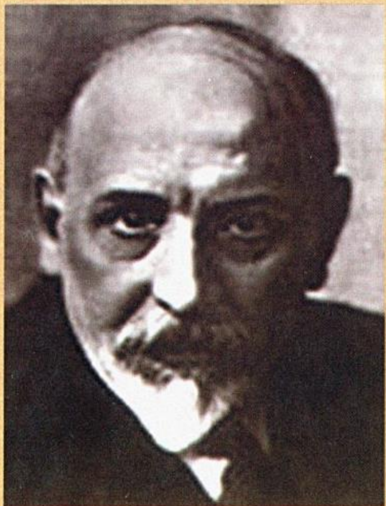
١٩٣٤

مكتبة نوبل

لويجي بيرانديللو

قصص ايطالية



ترجمة: خليفة التليسي

قصص ايطالية

مكتبة نوبل

اسم المؤلف : لويجي بيراندللو
عنوان الكتاب : قصص ايطالية
المترجم : خليفة التليسي
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : سنة ٢٠٠٤

Author:Luigi Pirandello
Title :Conti Italiani
Translator:Khalifa Attelisi
Al- Mada P.C.
Second Edition : 2004

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
E-mail:almada112@yahoo.com

١٩٣٤

مكتبة نوبل

لويجي بيراندللو

قصص ايطالية

ترجمة:

خليفة التليسي

صَوت

قبل أن تموت المركيزة (يورجي) بأيام، أرادت أن ترضي ضميرها فاستدعت الدكتور (فالشي) كي تعرض عليه ابنها (سلفيو) الذي أصيب بالعمى، منذ عام تقريباً، لقد عرضته على أعظم وأبرع أطباء العيون في إيطاليا، وخارجها، فأجمعوا على أنه قد أصيب بمرض في عينيه لا يرجى منه شفاء.

وكان الدكتور (فالشي) قد فاز منذ مدة طويلة بمنصب مدير عيادة لطب العيون. ولكنه لم يكن موفقاً في أن يحظى بعطف أحد من الناس أو ثقتهم. ربما كان مبعث ذلك، مظهر الإعياء والذهول الذي يحيط به، وربما كان مبعثه شكله المنفر، أو طريقة مشيته المسترخية التي تكاد تصيب مفاصله بالتقطع. وكان هو يعرف مكانته في النفوس، ويبدو أنه يستمتع بهذه المكانة.

كان يوجه إلى طلبته، وإلى زبائنه، أسئلة غريبة، نفاذة، محيرة، تبعث على الشك والبلبلة. وكان يُفهم الآخرين، بكل وضوح، الفكرة التي كوّنها عن الحياة، ويكشف هذه الفكرة في كل عريها، مجردة من الرياء والأوهام الخداعة التي يخلقها كل منا، دون قصد، ولا إرادة، استجابة لحاجة طبيعية، أو خضوعاً للوقار الاجتماعي... وبمضي الزمن أصبحت صحبة الدكتور مملة لا تطاق.

وعندما استدعته المركيزة، فحص بدقة تامة، وانتباه كامل، عيني الشاب، دون أن يصغي -كما يبدو على الأقل- إلى ما كانت المركيزة تقوله، حول الداء وأحكام الأطباء الآخرين عليه، وعن المعالجات الطبية العديدة التي حاولتها.. وما كاد ينتهي من الفحص، حتى ثبت له، أن الأعراض المميزة للمرض الذي وصفه الأطباء، غير موجودة، وهي الألوان الزرقاء والخضراء الدالة على العمى.. وتبين له أن المرض لا يعدو أن يكون نوعاً نادراً من أمراض العيون، غير أنه لم يرغب في إعلان شكه في صحة تشخيص الأطباء، وآثر أن يسكت في البداية حتى لا يبعث في نفس الأم أملاً ضعيفاً. وأخفى الاهتمام القوي الذي ألقاه في نفسه هذا المرض، واكتفى بإبداء رغبته في أن يعود إلى الكشف على المريض بعد شهر.

وعاد إليها.. ولكنه وجد في ذلك الشارع الجديد المهجور، الذي تقوم فيه فيلا المركيزة، حركة غير عادية وجماعة من الفضوليين متزاحمين أمام المدخل.. لقد ماتت المركيزة فجأة في الليلة السابقة.

ماذا يفعل؟ هل يعود؟ وفكر في أنه لو أظهر شكه في طبيعة المرض كما شخصه الأطباء لكان من الممكن ألا تموت تلك الأم المسكينة، وفي نفسها يأس من شفاء ابنها الذي تتركه إلى العمى الذي لا علاج له. وعلى كل فهو إذا لم يستطع أن يدخل العزاء بهذا الأمل إلى قلب الأم ألا يجب عليه -على الأقل- أن يدخل الأمل والطمأنينة إلى قلب ذلك البائس المسكين الذي نزلت به هذه الكارثة الجديدة؟

ودخل إلى الفيلا.

وبعد انتظار طويل، في ذلك الجو المضطرب، الذي يهيمن على البيت، تقدمت إليه فتاة شقراء مرتدية السواد، وفي مظهرها شيء من

الحزم والقوة، وقدمت نفسها على أنها وصيفة المرحومة، فأوضح لها الدكتور سبب زيارته. ووجدت الفتاة نفسها تسأله في استغراب ينم عن شكها في كلامه.

- وهل يصاب الشباب بمثل هذا المرض الذي تتحدث عنه؟

فنظر إليها الدكتور نظرة فاحصة، مسلطة على عينيها. ثم أجاب في ابتسامة ساخرة تبدو على عينيه أكثر مما تبدو على شفتيه.

- ولماذا لا يتعرضون؟ معنوياً دائماً يا آنستي، وخاصة عندما يحبون.. وحتى عضوياً.

فزاد هذا الكلام من حنق الفتاة التي قطعت الحديث قائلة بأن حالة المركيز في تلك اللحظة، لا تسمح له، بأن يتحدث في أي موضوع، وأنه سوف يدعوه بنفسه، حين يزول عنه الحزن، وتخبره بهذه الزيارة..

وانقضى أكثر من ثلاثة أشهر دون أن يدعى الدكتور.

وفي الحقيقة كان الدكتور قد ترك انطباعاً سيئاً في نفس المركيزة عند زيارته الأولى. والآنسة (ليديا) التي بقيت خادمة وقارئة للمركيز، مازالت تذكر ذلك، وقد أنستها نقمتها على الطبيب الثقيل أن انطباعات المركيزة عنه، كان من الممكن أن تتغير لو أبدى رأيه في احتمال شفاء ابنها. وقد رأته عند زيارته الثانية إنساناً محتالاً لئيماً يختار اليوم الذي ماتت فيه المركيزة، ليعلن شكه في آراء الأطباء ويبعث أملاً في الشفاء بعد أن استسلم المركيز إلى مصيبته.

لقد أحس بالظلام يتكاثف حوله بعد موت أمه. إن الظلام الذي يحاصر نفسه من الداخل لهو أشد هولاً وأقسى من العمى. ظلام يقف الناس حياله عمياناً. إن المبصر يمكنه أن يتعزى برؤية الأشياء حوله، أما

هو فليس له مهرب من هذا الظلام. إنه أعمى أمام الحياة، وأعمى أمام الموت، وقد اختفت أمه في هدوء، وتركته وحده، في فراغ فظيع، وإلى ظلام بارد كثيف.

وفجأة سرى إليه في ظلامه الحالك صوت ناعم رقيق، مثلما يسري شعاع عذب من النور. ولم يستطع أن يعرف في البداية، صاحبة ذلك الصوت الناعم الذي تعلقت به نفسه، في ذلك الفراغ المفزع. إنه صوت الآنسة ليديا التي ظلت في الأشهر الأخيرة أقرب الناس إلى أمه، وإنه ليذكر أن أمه قد حدثته عنها، وذكرت له، أنها فتاة طيبة ونبيهة، وحركاتها لطيفة وهي مثقفة وذكية. صفات أصبح يلمسها الآن في رعايتها له، وعطفها عليه، وفي الأنس الذي تدخله على نفسه.

لقد داخلها الشك منذ الأيام الأولى لاستخدامها أن المركيزة لا ترى ضرراً، بل تتسامح في أن يتسلى معها ابنها، وكانت في ذلك مدفوعة بأنانية الأمومة. وقد أحست (ليديا) إهانة جارحة، وأخذت نفسها بالشدة، وأحاطتها بالتحفظ الحازم. مستجيبة إلى ترفعها الطبيعي... إلا أنها بعد وفاة أمه، وجدت نفسها، تخلص له، مدفوعة بعاطفة التجاوب والرعاية، دون أن يتسرب إلى نفسها شك، بعد أن أخذ يدها وأراح على خدها وجهه الشاحب الجميل، وهو يبكي قائلاً: (لا تتركيني. لا تتركيني).

كان يعذبها بفضول العميان.. يريد أن يراها في ظلامه، يريد أن تتحول صورتها إلى صورة في أعماقه، كانت أسئلته الأولى قصيرة وغامضة، كان يريد أن يرسم لها صورة في نفسه، تتفق مع هذا الصوت الذي يسمعه، حين تقرأ له، أو تتحدث إليه.

- شقراء.. أليس كذلك؟

- نعم.

كانت شقراء، ولكن شعرها الخشن القليل، لا يلائم لون بشرتها المائل إلى الشحوب.. هل تقول له ذلك، ولماذا تقول ذلك؟.

- وعيناك... زرقاوان؟..

- نعم...

عيناها زرقاوان ولكنهما كئيبتان متألمتان غارقتان تحت جبهتها الحزينة، هل تصفها له؟ ولماذا؟ لم تكن جميلة الوجه، ولكنها كانت رشيقة القوام، وأجمل ما فيها يداها؛ وصوتها بصفة خاصة، يتميز بعذوبة بريئة ناعمة، تختلف عن الطابع الحزين العميق المرتسم على محياها. وكانت تعرف أنه يراها من خلال هذا السحر الذي يغلف صوتها الناعم الرقيق، ومن خلال أجوبتها المحتشمة عن أسئلته الملحة. كان يراها من خلال هذا الصوت وكانت هي تحاول جاهدة، أمام المرآة، أن تكون شبيهة بتلك الصورة التي صنعها خياله لها، كانت تحاول أن ترى نفسها كما يراها هو في ظلامه الدامس. إن صوتها لم يعد يخرج من شفتيها، ولكنه يخرج من شفتي (تلك).. تلك التي يتصورها. وعندما تضحك، تشعر في الحال أنها لم تكن هي التي تضحك، وإنما تقلد ضحكة تلك الصورة الأخرى. صورتها التي تعيش في نفسه. كل ذلك كان يسبب لها عذاباً جارحاً يصيبها بالاضطراب. كانت ترى أنها لم تعد هي نفسها وأنها أصبحت تختفي شيئاً فشيئاً عن نفسها.. كل ذلك من أجل هذه الشفقة التي تحسها نحو هذا الشاب.. أهي الشفقة فقط؟.. لا.. إنه الحب. إنه الحب فلم تعد تقدر على أن تنزع يدها من يده، أو أن يبعد

وجهه عن وجهها. وإذا جذبها إليه كانت تكتفي بالاحتجاج الرقيق (لا.. هكذا لا.. أرجوك).

وكان حتماً عليهما أن يصلا إلى قرار، كلف الآنسة ليديا صراعاً عنيفاً مع نفسها. لم يكن للمركيز أقارب، فهو سيد نفسه، يفعل ما يبدو له وما يريد. ولكن ألا يقول الناس، أنها قد استغلت مصيبته، لكي تتزوجه، وتصبح مركيزة وغنية؟ أجل.. إنهم سيقولون ذلك وأكثر، ولكن كيف تستطيع البقاء في هذا البيت من غير هذا الشرط؟ ألا يمكن أن يعتبر قسوة كبيرة السعي إلى التخلي عن ذلك الأعمى وحرمانه من رعايتها وحنانها، خوفاً من أقوال الناس؟ إنه بلا شك حظ عظيم بالنسبة إليها، ولكنها كانت تشعر في أعماقها بأنها تستحق هذا الحظ، لأنها تحبه بل إن أعظم حظوظها أن تحبه في صراحة، أن يقول إنها له، خالصة مخلصة إلى الأبد، له وحده جسداً وروحاً.

إنه لا يبصر ولا يرى في أعماقه إلا تعاسته. ولكنه جميل.. جميل جداً ورقيق كأنه فتاة وديعة. وكانت تنظر إليه وتتأمل جماله دون أن يفطن إلى ذلك وتفكر في نفسها «إنك لي لأنك لا ترى ولا تدري. ولأن روحك أسيرة لتلك العاهة وأنت في حاجة إليّ لكي ترى وتدري وتحس».

ولكن ألا يجب عليها أن تعترف له قبل أن تنزل عند رغبته، بأنها لم تكن كما يتصورها؟ أجل.. إنها خديعة، ولكنه أعمى.. يكفيه قلب.. قلب كقلبها في إخلاصه والتهابه، كما يكفيه، وهم الجمال.. وهي ليست قبيحة على كل حال.. ثم إن أية فتاة جميلة.. من يدري.. ربما تخدعه، بأية طريقة، مستغلة عاهته.. إنه محتاج إلى القلب العاشق الودود أكثر من حاجته إلى الوجه الوسيم الذي لن يراه أبداً.

وبعد أيام من الحيرة المؤلمة حدد يوم الزفاف. وتقرر أن يتم دون أبهة، وفي أقرب وقت، وبعد الشهر السادس لوفاة الأم مباشرة. كان أمامها شهر ونصف لإعداد اللوازم على أحسن ما يرام، وكانت سعادة تلك الأيام عظيمة. كانت الساعات تطير وتمضي وهي تستعجل إعداد عشها السعيد. كانت الساعات تمضي دون أن تشعر بها في غمرة تلك الملاطفات والمداعبات التي يغمرها بها والتي كانت تتحرر منها وفي قلبها نشوة. كانت تتحرر منه ومن مداعباته في عنف محبب، حتى تستطيع أن تصون من عبث الحرية، بهجة ما... بل أبهج الأشياء ليوم الزفاف. ولم يبق ليوم الزفاف سوى أسبوع عندما أخطرت ليديا فجأة بزيارة الدكتور (فالشي)، وكادت تخضع لانفعالها الأول فتجيب بأنها غير موجودة، ولكن الأعمى الذي كان يسمع حديثها الخافت تساءل: «من؟» فأجابه الخادم: «الدكتور فالشي» وأضافت هي: «أتعرفه؟ إنه الطبيب الذي استدعته أمك قبل أيام من حلول الكارثة».

فقال في استغراب، وهو يسترجع ذكرياته:

- آه... لقد فحصني طويلاً.. طويلاً.. إني أذكر جيداً.. وقال إنه سيعود.

فقاطعته ليديا، وهي مضطربة:

- انتظر سأذهب إليه.

كان الدكتور واقفاً في حجرة الاستقبال، وكان رأسه الأصلع الضخم مرتفعاً إلى الخلف وعيناه مغمضتين، وهو يمسح بيده لحيته الكثيفة.

ودخلت دون أن ينتبه إليها، ثم قالت:

- تفضل يا دكتور.. استرح.

فانتفض الدكتور من دخولها المفاجئ، ثم انحنى قائلاً:

- معذرة إذا..

ولكنها كانت قلقة مضطربة فأرادت أن تستعجله:

- أنت لم تدع قط قبل الآن؟

فأجابها بابتسامة هادئة على شفتيه:

- حتى زيارتي هذه كانت غير مناسبة، ولكن معذرة يا آنسة.

فتضرج وجهها وقالت:

- لا.

فأجابها:

- أنت لا تدركين الأهمية التي يعلقها الرجل البائس المشتغل بالعلوم على مثل هذه الأمراض، ولكني أريد أن أكون صريحاً يا آنسة. قد نسيت هذه الحالة على الرغم من أنها في رأيي نادرة وعجيبة.. ولكن أمس فقط، حين كنت أتحدث في الزائد والناقص مع بعض الأصدقاء، علمت بزفافك المنتظر إلى المركيز.. أليس هذا صحيحاً يا آنسة؟

فشحب وجهها وأكدت له كلامه بهزة من رأسها.

ثم أضاف قائلاً:

- اسمحي لي أن أقدم تهاني.. ولكنك ترين أنني تذكرت هذه الحالة فجأة، وتذكرت تشخيص المرض من قبل أشهر الأطباء إذا لم أخدع.. إذا لم تخني الذاكرة.. كان من الصعب تشخيص هذا المرض في البداية، ولكنني واثق من أن المرحومة المركيزة لو عرضت ابنها على هؤلاء الزملاء في الوقت الذي عرضته فيه عليّ، لأجمعوا على أن تشخيصهم السابق كان خطأ، وأن الداء في أعراضه السابقة، غير

موجود. وتذكرت أيضاً زيارتي الثانية الملعونة، وفكرت في أنك لا بد أن تكوني قد نسيت دعوتي في غمرة الارتباك الذي نشأ عن وفاة المركيزة، ثم في غمرة هذا الحادث السعيد.. صحيح؟ لقد نسيت..

فأنكرت في قسوة عندما وصل الحديث إلى هذه النقطة، وتمردت على ذلك العذاب الذي أصابها به هذا الحديث الطويل الذي سمعه الدكتور.. وتضايقت..

- تقولين.. لا؟

فردّت في حزم وإصرار:

- لا، لقد تذكرت أكثر الثقة الضعيفة -ولا أقول انعدام الثقة- التي كانت المركيزة قد كوّنتها عنك وعن شفاء ابنها بعد زيارتك.

فردّ الدكتور على الفور:

- ولكني لم أصرح بوجهة نظري في مرض ابنها.

فقاطعته من جديد قائلة:

- صحيح.. لقد قلت لي ذلك.. ولكنني كالمركيزة.

فقاطعها بدوره:

- ثقة قليلة؟ بل ثقة معدومة؟ أليس كذلك؟ ولكنك لم تخبري السيد بزيارتي وأسبابها.

- في ذلك الوقت لم أخبره.

- وبعد ذلك؟

- لم أخبره أيضاً.

ورفع يده قائلاً:

- أفهم.. لقد ولد الحب.. ولكن معذرة يا آنسة.. يقولون.. إن

الحب أعمى، هذا حق.. هل تريدينه أعمى إلى هذه الدرجة، حب المركيز؟ أعمى حتى عضوياً.

فشعرت ليديا أنه لن يفيدها، أمام بروده الثابت القاتل، أن تتسلح بالتحفظ المترفع الذي كانت تلوذ به دفاعاً عن عزتها ضد هذا الشك الحاقد الكريه. وجهدت في أن تصمد وسألته في هدوء واضح:

- أنت تصر على أن المركيز سوف يستعيد بصره بمساعدتك؟

- مهلاً يا آنسة -ورفع يده- لست إلهاً قادراً، لقد فحصت مرة واحدة عيني المركيز، وتبين لي أنه يجب استبعاد إصابة المركيز بالمرض الذي حدده الأطباء، أما البقية، فيحيط بها الشك، كما يحيط بها الأمل، وهذا يكفيك إذا كنت تحبين خطيبك كما أعتقد.

فأسرعت ترد عليه في مظهر المتحدي:

- وإذا ما تقوض الشك، بعد فحصك، وظل الأمل خداعاً ضائعاً؟ ألا يعني ذلك أنك قد أقلقت عبثاً، وفي قسوة، روحاً قد أسلمت أمرها إلى القدر؟

فأجاب في هدوء حازم قاسٍ:

- لا يا آنسة.. لقد رأيت من واجبي كطبيب أن أزوره دون دعوة لأنني لا أجد نفسي أمام حالة مرضية فحسب، ولكنني أمام حالة ضميرية أشد وأقسى على النفس.

وحاولت أن تقاطعه قائلة؟

- أنت تشك...

ولكنه لم يمهلها حتى تتم كلامها فقال:

- لقد ذكرت أنت نفسك أنك قد أخفيت خبر زيارتي عن المركيز.. وتعللت بعذر لا أستطيع أن أقبله، لا لأني أعتبره إهانة، ولكن الثقة أو

عدم الثقة في قدرتي ومهارتي، شيء لا يخصك أنت، وإنما يخص المركيز.. تأملي يا آنسة ربما كانت هذه قسوة مني، لا أستطيع أن أنكرها. وأزيدك أنني لن أتقاضى شيئاً من المركيز إذا زارني في عيادتي حيث يجد كل عناية وكل مساعدة يستطيع أن يقدمها إليه العلم بلا مقابل. بعد هذا التصريح أيشق عليك أن أطلب منك أن تخبري المركيز بزيارتي هذه؟ فنهضت ليديا ثم نهض الدكتور مستعيداً مظهره المعتاد قائلاً:

- انتظري.. لن أخبر المركيز بزيارتي السابقة بل أقول له، إذا رغبت، أنك دعوتني بصفة مستعجلة قبل الزفاف.

ولكن ليديا نظرت إليه في اعتزاز وتحدٍّ،

- قل الحقيقة بل سوف أقولها أنا.

- الحقيقة في أنك لم تثقي بي؟

- تماماً.

فهز الدكتور كتفيه وابتسم قائلاً:

- سوف يؤلمك ذلك.. أنا لم أرد إيذاءك.. إذا كنت راغبة في تأجيل الزيارة إلى ما بعد الزفاف فإنني مستعد للعودة؟

وصرخت فيه: «لا»، مصحوبة بحركة من يدها دالة على الرفض أكثر من الكلمة المنطلقة من شفتيها. وكانت تشعر بالضيق. وتضرج وجهها حنقاً على النقيصة التي يثيرها في نفسها هذا الكرم الزائف من الدكتور. وأشارت إليه بيدها أن يتبعها.

كان المركيز الشاب ينتظر في الحجرة، في قلق زائد، ودخلت عليه، وهي ترتجف، ثم قدمت إليه الدكتور قائلة:

- هذا هو الدكتور (فالشي)، لقد أوضحنا هناك أشكالاً خاصة. ألا تذكر أن الدكتور قد وعد في زيارته الأولى بالعودة.. أليس كذلك؟

فأجاب المركيز:

- أذكر ذلك جيداً.. يا دكتور.

فواصلت ليديا كلامها قائلة:

- ولكنك لا تعرف أنه في اليوم نفسه الذي ماتت فيه أمك.. تحدث معي، وأكد أن عاهتك تختلف كل الاختلاف عن تشخيص الأطباء. ومعنى ذلك في رأيه احتمال شفائك.. ولكنني لم أخبرك بشيء من ذلك.

فأسرع الدكتور يضيف إلى كلامها:

- تأمل.. كان ذلك لأن الآنسة استغلت شكي الذي شرحته في تلك اللحظة، وتوهمت أني أريد أن أدخل الاطمئنان على نفسك فقط.. ولذلك لم تهتم بالموضوع.

فأجابت في اعتزاز واستعلاء:

- هذا ما قلته أنا..ولكنه ليس ما تفكر فيه أنت يا دكتور.. اسمع يا سلفيو: إن الدكتور، شك فيما أصبح بعد ذلك حقيقة ثابتة.. وهي أني لم أخبرك بزيارته السابقة، وإنه جاء وحده، مدفوعاً برغبته الخاصة ليقدم إليك خدماته قبل الزفاف دون مقابل.. فهل تستطيع أن توافقه في اعتقاده بأني أردت أن أتركك أعمى، لكي أتزوج منك؟

فصرخ الأعمى:

- ليديا.. ماذا تقولين؟

فتابعت كلامها في ضحك عصبي غريب وهي تقول:

- أجل.. ربما كان ذلك صحيحاً. وفي الحق أنني بهذا الشرط فقط أستطيع أن أكون لك.

فعاد الأعمى إلى مقاطعتها:

- ماذا تقولين؟

- سوف تفهم ذلك يا سلفيو إذا استطاع الدكتور أن يرد إليك بصرك.. إني خارجة الآن.

وهتف بها:

- ليديا.. ليديا..

ولكنها خرجت وجذبت الباب في عنف، وألقت بنفسها على الفراش في غرفتها، وهي تعض الوسائد في حنق، وانفجرت في بكاء لا ينقطع. وما كادت تخمد رغبتها في البكاء حتى أصابها ذهول وأحست أنها تواجه ضميرها، فزعة مرتاعة. وبدا لها أن كل ما قاله الطبيب، ببرودة قاتلة، قد قالته هي إلى نفسها، منذ زمن بعيد، أو على الأصح، قد قاله شخص آخر في نفسها، وتظاهرت هي بأنها لم تسمعه.. أجل لقد تذكرت دائماً الدكتور فالشي.. كانت صورته تبدو لها دائماً كأنها شبح من عذاب الضمير، وكانت تدفعها دائماً عنها بإهانة.. «محتال» لأنها.. وهل تستطيع أن تنكر؟ لأنها تريد.. تريد أن يبقى خطيبها سلفيو أعمى.. إن عماه هو الشرط الأساسي لحبها.. إنه إذا استعاد بصره غداً فلن يتزوجها.. وهو الشاب الغني صاحب السيادة؟ أيتزوجها اعترافاً بفضلها؟ أم يتزوجها رحمة بها؟.. لا.. لا يمكنها أن تقبل منه ذلك، وهي التي أحبته، ولم ترغب في شيء آخر غير حبه.. لقد كانت ترى في عاهته تبريراً لحبها، وعذراً تجابه به ثرثرة الناس، هل يمكن أن تتسامح

وتتساهل مع ضميرها الذي يوشك على اقتراف جريمة دون أن تشعر، لكي تقيم سعادتها على شقاء، ومصيبة إنسان آخر؟ إنها في الحقيقة لم تكن تصدق أن عدوها الطبيب قادر على أن يصنع المعجزة، فيرد البصر إلى سلفيو، لم تصدقه، ولم تؤمن به حتى الآن. ولكنها لماذا سكتت؟ هل فعلت ذلك لأنها لم تكن تثق في الطبيب؟ أم لأن الظن الذي عبر عنه الطبيب سوف يفتح باباً للأمل في نفس سلفيو ويكون في ذلك موتها، موت حبها، خاصة إذا تأكد النجاح في العملية..

كانت تعتقد، حتى ذلك الوقت، أن حبها كافٍ لأن يعوض على خطيبها بصره الضائع، وهي تعتقد أنه إذا استعاد بصره بمعجزة، فلن تستطيع هذه النعمة السابغة، ولا كل الملذات التي يحققها بثروته، ولا حبه لأية امرأة أخرى، لا تستطيع، كل هذه، أن تعوضه عن فقدانه لحبها. ولكن هذه الأفكار لا تعدو أن تكون أفكارها وتبريراتها، وليس له شيء فيها. لو ذهبت إليه قائلة: «سلفيو.. يجب أن تختار بين حبي ونعمة البصر»، فلا يستبعد أن يجيبها: «ولماذا ترغبين في أن أظل أعمى؟»، إنها ترغب في ذلك لأن سعادتها لا يمكن أن تتحقق إلا بهذا الشرط.

ونهضت فجأة كأنما كانت تستجيب لنداء عاجل. ألم تنته الزيارة؟ ترى ماذا يقول الطبيب؟ وماذا يفكر؟ واستبدت بها رغبة في أن تمشي على رؤوس أصابعها لكي تتجسس عليهما خلف الباب الذي أغلقته. ولكنها ظلت ثابتة واقفة خلف الباب الذي أغلقته بيديها إلى الأبد.. ولكن، هل كانت قادرة على أن ترضى بلذعات الطبيب المسمومة التي واجهها بها في قسوة؟ لقد عرض عليها أن تؤجل الزيارة إلى ما بعد الزفاف.. ليتها قبلت.. وانكمشت على نفسها هاتفة.. لا.. لا.. وهي

تعاني تقززاً واشمئزازاً.. ما أحقرها صفقة؟ إنها أحقر أنواع الخداع.. ونتيجتها؟ كراهية... ولا مكان للحب.

وأحست بانفتاح الباب فارتجفت ولكنها هرعت إلى الممشى الذي سيمر منه الدكتور.

فقال لها في برود:

- لقد فكرت كثيراً في صراحتك فازددت إصراراً على تحليلاتي.. سيزورني المركيز غداً في عيادتي.. اذهبي إليه فهو في انتظارك.. إلى اللقاء.

ورافقته إلى نهاية الممشى عند عتبة الباب وكان الفراغ يحيط بها، والشعور بالإعدام يملأ نفسها. ثم سمعت صوت سلفيو يناديها من الحجرة، فأصابها دوار، وكادت تسقط، ولكنها تجلدت، ووضعت يدها على وجهها، لكي تمسك الدمع، وتوجهت إليه.

كان جالساً ينتظرها بذراعين مفتوحتين، وضمها إليه ضمات، عنيفة قوية، هاتفاً بسعادته، وفرحه باستعادة بصره، الذي يمكنه من رؤية تلك المخلوقة العزيزة عليه.. زوجته الحلوة الجميلة.

- أتبكين؟ لماذا؟ إنني أبكي أنا أيضاً.. انظري.. يا لها من سعادة.. سوف أراك.. أراك.. سوف أبصر.

كانت كل كلمة بالنسبة إليها موتاً محققاً، وقد فطن هو رغم سعادته الغامرة، وفرحته العظيمة، إلى أن بكاءها يختلف عن بكائه، حتى كاد يصدق أقوال الطبيب، ولكنه لم يكن مستعداً لأن يؤمن بهذه الأقوال، في ذلك اليوم السعيد، وطرد عن نفسه تلك الفكرة، ولم يعد يفكر في شيء، سوى أن هذا اليوم عيد.. فلتطرد جميع المنغصات..

ولتذهب جميع الأفكار.. إلا فكرة واحدة هي أن سعادته ستكون كاملة لأنه سيرى زوجته. ستكون لها مهلة أطول، سيكون لها زمن أوفر لإعداد عش الزوجية الذي يجب أن يكون فاخراً وجميلاً. هذا العش الذي كان حلماً سوف يراه قبل كل شيء آخر. وقطع على نفسه عهداً في أن يخرج من العيادة معصوب العينين ولا يرفع العصابة أول ما يرفعها إلا على منظر هذا العش السعيد.

- كلميني.. حدثيني.. لا تدعيني أتكلم وحدي.

- هل أنت متعب؟

- لا لم أعرف التعب.. ولكن اسأليني مرة ثانية.. هل تشعر بالتعب؟ اسأليني بصوتك هذا العذب الناعم، دعيني أقبلك، هنا، على شفتيك.. مصدر صوتك العذب..

- حسناً.

- تحدثي وأخبريني كيف تعدين العش؟

- كيف؟

- أنا لم أسألك شيئاً من قبل، ومع ذلك فلست أريد أن أعرف شيئاً حتى الآن. افعلي ما تشائين.. سيكون كل ما تفعلينه مفاجأة مذهلة عجيبة.. ولكنني لن أرى شيئاً قبل أن أراك.

وخنقت نحيبها اليائس في حزن، واكتسى وجهها مسحة من الانشراح والبهجة، وكانت تجلس على الأرض، وهو ينحني عليها ويعانقها.

وبدأت تحدثه عن حبها، بصوتها الذي سرت فيه عذوبة، ونعومة لم تسر فيه من قبل. وأخذته نشوة هذا الصوت فضمها إليه، مقسماً أنه لن

يتـركـهـا أبداً. ولكنهـا في تلك اللحظة بالذات تحـررت من ذراعـيـه، ونهضت في كبرياء واعتزاز كأنما انتصرت على نفسها في معركة. ها هي قد شدته إليها بوثاق لا يمكن أن ينفصم إنها تحبه.

وانتهى ذلك اليوم في ساعة متأخرة ظلت خلالها تسكر أعصابه، وتذهله بصوتها العذب وهي على يقين أنه الآن خالص لها في ظلامه الدامس الذي يلمع خلاله بريق الأمل.. إنها جميلة جمال الصورة التي صنعها له خياله.

وفي اليوم التالي رافقته في العربة إلى العيادة. وأخبرته أنها ستنصرف في خفة الحسون للعمل على إعداد لوازم الزفاف.

وانتظرت في قلق زائد يومين كاملين نتيجة العملية، وعندما علمت بنجاحها انتظرته قليلاً في ذلك البيت الفارغ الذي أعدته في شوق ولهفة.. وأرسلت تطلب إليه أن يتريث أياماً أخرى، فليس هناك ما يدعوه للاستعجال والقلق.. ولكن الطبيب لم يسمح له بالبقاء.

وفي اليوم السابق على خروجه من العيادة جمعت ملابسها، وسافرت إلى جهة مجهولة.. تريد أن تظل ذكرى صوت، سوف يلاحقه بعد أن خرج من ظلامه، ويبحث عنه على كثير من الشفاه... دون جدوى!

نور الجيران

حدث ذلك في عشية الأحد، بعد عودته من جولة طويلة.

كان توليو بوتي قد استأجر، قبل شهرين تقريباً، حجرة في منزل السيدة نيني. وقد اعتاد أن يخرج في موعد صباحي لا يتغير، دون أن تراه صاحبة البيت، وهي عجوز من الطراز العتيق، ولا ابنتها العانس التي جفّت حيويتها. وكل ما تعرفانه عنه، أنه موظف بوزارة العدل وأنه كان محامياً، ولا شيء أكثر من ذلك.

كان الحجرة صغيرة ضيقة، مؤثثة بطريقة متواضعة، لا تحتفظ بأثر يدل عليه أو على إقامته فيها. وكان يبدو واضحاً أنه أراد لنفسه -عن تصميم- أن يظل غريباً، كأنه نزيل الفنادق. فقد وضع ملابسه في صندوق وعلق بعضها الآخر في الخزانة. ولكن الجدران وبقية الأثاث لم يضع عليها شيئاً. فلا كتاب على مقعد ولا إطار على الجدار. لم يترك فوق الخزانة الصغيرة حتى غلافاً ممزقاً من رسائله. ولم يترك أبداً شيئاً من ملابسه على أحد المقاعد، فلا رقبة قميص ولا رباط عنق، ولا أي شيء يدل على أنه يعتبر نفسه مقيماً في بيته.

وكانت الأم وابنتها تخافان ألا تطول إقامته. فقد ترددتا كثيراً في تأجير تلك الغرفة التي شاهدها الكثيرون ولم يرغب فيها أحد. فهي في

الحقيقة لم تكن مريحة ولا منشرحة بنافذتها الوحيدة التي تطل على زقاق منعزل لا يمدها بالضوء ولا بالهواء.

وقد أرادت الأم وابنتها أن تخففا عنه شيئاً كثيراً مما كان يجده من ضيق في تلك الحجرة، وذلك بأن تحيطاه بالرعاية والاهتمام. كانتا تدرسان جيداً الطريقة التي تكسبانه بها.. «سوف نفعل له كذا.. سوف نقول له كذا». وخاصة العانس كلوتدينا، فقد هيأت نفسها على أن تكون لطيفة رقيقة، أي أن تكون متمدنة، كما تقول الأم. ولكن أنّى لها أن تستعمل هذا السلوك الذي درسته وأعدته، إذا كانت رؤية السيد غير ممكنة؟

مَن يدري.. لو تعرفتا به عن قرب، لكان من الممكن أن تدركا وتفهما في الحال، أن خوفهما لا أساس له، وأن تلك الحجرة الحزينة المظلمة المحاصرة من البيت المجاور.. تتفق مع مزاج الساكن.. الحزين.

اعتاد توليو بوتي أن يقطع الشارع وحيداً دائماً بلا سيجار ولا عصا. وهما في العادة الرفيقان المفضلان لأشد الناس انصرافاً إلى العزلة. كان يمشي واضعاً يديه في جيبي معطفه. رأسه غارق بين كتفيه. قبعته تكاد تغطي عينيه، حتى ليبدو أنه ينطوي على حقد عنيف ضد الحياة.

وفي الدائرة التي كان يعمل بها لم يكن يتبادل أي كلمة مع أي واحد من زملائه الذين احتاروا في تسميته ولم يستقروا على الصفة التي تحدده، وظلوا حائرين في تشبيهه، بالبومة أو الدب.

لم يره أحد يدخل مساء إلى أحد المقاهي، وقد رآه الكثيرون يقطع الشوارع المزدحمة في عجلة حتى يغيب في ظل الشوارع الطويلة المنعزلة

ذات العمارات العالية. وقد يبتعد أحياناً على الجدران ليطوف حول الدائرة التي تتكوَّن تحت مصابيح الرصيف.

لا يمكن لحركة غير إرادية ولا انقباض ملامحه ولا إشارة من عينيه أو شفتيه أن تخون الأفكار التي يبدو غارقاً فيها، أو الألم الجارح الحاد الذي تنطوي عليه نفسه. كان الفساد الذي أصابت به هذه الأفكار نفسه واضحاً في ذهول عينيه الحزينتين الصافيتين الحادتين، وفي شحوب وجهه المنكسر، وفي الشيب الذي وخط لحيته المهملة.

لم يكن يبعث ولا يتلقى رسائل. لا يقرأ الصحف. لا يقف في الشوارع ولا يلتفت إلى ما يثير فضول الناس. إذا داهمه المطر في بعض الأحيان على حين غرة واصل سيره بالخطوات نفسها كما لو لم يهطل المطر!

ماذا يفعل في هذه الحياة؟ لا أحد يدري. ربما لم يكن هو نفسه يدري أنه موجود، وربما لا يشك في أنه من الممكن أن يوجد في غير هذه الحالة، أو أن وجوده في غير هذه الحالة خليق أن يخفف عن نفسه بعض ما تجد من حزن وقلق.

لم تكن له طفولة.. ولم يشعر بشبابه على الإطلاق. والمشاهد الوحشية التي مرت عليه في بيته منذ صغره بسبب طغيان وشراسة الأب، قد أحرقت في نفسه بذور الحياة جميعها. لقد ماتت أمه في ريعان الشباب بسبب قسوة الزوج في معاملتها، فتفرقت الأسرة. دخلت إحدى أخواته في سلك الرهبنة. سافر أخوه إلى أمريكا. وفرّ هو من البيت. وقد استطاع بعد تعب وإعياء أن يدفع حياته حتى انتهى إلى هذه الحالة. والآن لم يعد يشعر بالألم وإن بدا عليه الإحساس بذلك. ولكنه كان

يستسخف هذا الإحساس كان يبدو دائماً مستغرقاً في تفكير عميق. ولكنه لم يكن يفكر. إن نفسه قد أصبحت مشدودة إلى نوع من الغم القاتل الذاهل. ولا يكاد يذكرها إلا حين يحس بمرارة تسري إلى حلقه.

يتمشى مساء في الشوارع الخالية، يعد المصابيح، ولا يفعل شيئاً أكثر من ذلك. أو ينظر إلى ظله ويصغي إلى صدى خطواته. وفي بعض الأحيان يتوقف أمام حدائق الفيلات، ليتأمل شجر السرو الذي يشبهه في وحدته وكآبته العميقة الجارحة، وما تنطوي عليه نفسه من ظلمة حالكة، أشد من ظلمة الليل

في عشية ذلك الأحد، كان قد تعب من جولته الطويلة في الشارع العتيق، فقرر على غير عادته أن يعود إلى البيت.

وكان وقت العشاء لم يحن بعد، ولذلك صمم أن يمكث في حجرته حتى يحين الوقت وينقضي اليوم. كانت مفاجأة جميلة، للأم وابنتها، هذه العودة المبكرة. وقد صفقت الفتاة لشدة السرور الذي اعتراها. وأخذتها الحيرة فيما يجب عليها أن تعمل وفيما يجب أن تقدم من أنواع العناية والاهتمام، التي سبق أن درستها هي وأمها، وبأي من صفات الرقة والسلوك الراقي المتمدن تبدأ؟ كانت الأم تتشاور مع ابنتها. وفجأة دقت بقدمها على الأرض وضربت جبينها.. آه يا إلهي.. النور.. النور.. قبل كل شيء يجب أن نحضر له النور.. فلنحضر له ذلك المصباح الجميل، الذي وضعناه على جهة استعداداً لمثل هذه المناسبات، إنه من خزف، حواشيه مزخرفة وهو فاخر ثمين! وأوقدت المصباح، وذهبت إلى حجرة الجار. ودقت بلطف وهدوء وكانت ترتجف من الانفعال حتى كادت زجاجة المصباح تصطدم بالأنبوب فيؤدي إلى خروج الدخان.

- إذناً؟.. المصباح.
وأجابها من خلف الباب:
- لا.. شكراً.. إنني خارج..
فأطرقت العانس، وقامت بحركة فيها تكسر ودلال، كما لو كان الجار ينظر إليها، ومضت في إلحاحها تقول:
- إنه معي الآن... أردت ألا أتركك إلى الظلام.
ولكنه أجاب في قسوة:
- شكراً، لا أريد.
كان جالساً على مقعد صغير خلف المنضدة، يسرح بصره في ظلام الحجرة الذي أخذ في التكاثف تدريجياً حين أخذت تحتضر على زجاج النوافذ آخر أضواء الغروب..
لا يدري مدى الزمن الذي أنفقه على هذه الحالة بعينين مفتوحتين ذاهلتين، وبلا تفكير في شيء، ودون أن يفطن إلى الظلمة التي أخذت تحاصره...
وفجأة رأى شيئاً، فاتجه إليه ببصره في دهشة. أجل. لقد أضيئت الحجرة على حين غرة وسرى فيها شعاع هادئ كما لو كان بفعل نفحة غامضة. وأخذ يتساءل عن مصدر هذا النور، وكيف وقع ذلك.. ولم يطل به التفكير حتى اهتدى إلى أن النور قد تسرب إلى حجرته من البيت المجاور. إنه نفحة من حياة غريبة تدخل، لتزيح الظلمة والفراغ وتملأ صحراء وجوده.
ولبث برهة طويلة يتأمل هذا النور كما يتأمل المعجزة. وأحس بغصة عميقة تحاصر حلقه عندما أخذ يقارن كيف يقع هذا النور عذباً لطيفاً

ناعماً على السرير وعلى الجدران.. هناك.. وكيف يقع هنا على يديه الشاحبتين المتهالكتين على المنضدة؛ وبرزت له من خلال هذه الكآبة ذكرى بيته المحطم، وطفولته المعذبة، وأمه المسكينة. لقد بدا له هذا النور كأنه نور أفق بعيد ينبثق في ظلام روحه.

ونهض من مكانه. وتوجه إلى النافذة ونظر خلسة إلى نافذة البيت المجاور، مصدر النور.

رأى أسرة صغيرة مجتمعة حول المائدة، كان الأب وأطفاله الثلاثة جالسين. أما الأم فقد كانت واقفة تقوم على خدمتهم، محاولة -كما استطاع أن يفهم من حركاتها- تهدئة الطفلين الكبيرين اللذين كانا يعبثان بالملاعق ويتمايلان على مقعديهما. أما الصغير فقد كان يبدي تبرماً شديداً ويدور برأسه الأشقر الصغير، وكان واضحاً أنهم شددوا عليه الخناق عندما ربطوا إلى رقبته منشفته الصغيرة.. آه لو أن الأم عجلت بإعطائه وجبته لما أحس بالضجر من هذه الربطة الضيقة... وها هي تسرع إليه.. ما أشد نهمه وإقباله على الأكل، إنه يدفع بالملعقة كلها إلى فمه. وها هو الأب، يضحك منه، بين البخار المتصاعد من إنائه. وها هي الأم تجلس هناك مواجهة. وعندما رآها تجلس وتأخذ مكانها من المائدة، حاول أن ينسحب تلقائياً بعدما رآها ترفع بصرها إلى النافذة، ولكنه فكر في أنها لا يمكن أن تراه مادام يقف في الظلمة، ولذلك ظل في مكانه يستمتع بمنظر تلك العائلة.

ومن ذلك اليوم تغيرت عادته. فما يكاد يخرج من الدائرة حتى يعود إلى البيت متخلياً عن جولاته المسائية المعتادة، ويظل في حجرته منتظراً أن تزاح الظلمة المخيفة عليها عندما يسري إليها شعاع هادئ

عـذب من نـور الجـيـران. ويظل واقـفـاً خلف زجاج النافـذة، كـمـا يفـعل المتـسـول، ويسـتـشـعـر في ألـم زائد، تلك الألفـة الحلوة، الحـبـيـبـة، وهذه الطمأنينة العـائليـة التي يسـتـمـتع بهـا الآخرون، والتي اسـتـمـتع بهـا هو الآخر عندما كـان طفلاً صغيراً في مسـاء نادر هادئ عندمـا كـانت أمـه.. مثل هذه الأم.. وكان يبكي.. إن هذه المعجزة قد حققها في نفسه في نور الجـيـران، وتلك الكآبة الذاهلة التي ظلت نفسـه مشـدودة إليـهـا أعـوامـاً طويلة تفتحت لهذا الإشراق الوديع.

ولم يفكر أبداً فـيـمـا قد يثيره وقـوفه واستراحتـه إلى هذه الظلمة، من أفكار عند صـاحـبـة البيت وابنتـهـا. وخـاصـة بعـدمـا عـرضت عليـه الفـتـاة المصباح مرتين، ولعله مما يثير العجب حقاً ألا يضيء حتى.. شمعة!!

وسألته الفـتـاة في صوت عذب هادئ عندما أسرعت إليـه بالنور عما إذا كان يشعر بمرض؟ فأجابها: لا.. أنا على أحسن حال..

وفي النهـايـة.. نعـم، بحق الإلـه إنهـا لمعـذورة، إذا هي حـاولت أن تتـجـسس عليـه من ثقب المفتـاح فـأثار عـجـبـهـا أن ترى النور منتـشـراً في الحـجرة، إنه نور الجـيـران، إنه نور بيت «مـاشي» بـالضـبط. ولقـد رأتـه هو واقـفـاً خلف النـافـذة، منصـرفـاً بكـل جوارحـه إلـى النظر إلى تلـك الأسـرة. وأسـرعت إلى أمـهـا تـزف إليـهـا خـبـر الاكـتـشـاف العـظيم. إنه عـاشق لمرجريت! مرجريت ماشي، إنه عاشق!

وفي إحـدى الأمـسـيـات، وبعـد هذه الحـادثة كـانت الأسـرة كـالعـادة تتناول طعـام العـشـاء، وكـان الأب غـائبـاً. ذلك المسـاء كان توليـوبوتي قـد اتخذ مكانه المعتـاد من النافـذة، ولكن الحيـرة أخذت تحاصر نفسه عندما رأى السيدة تستقبل صاحبة البيت وابنتها كصديقتين قديمتين..

وانسحب توليو من النافذة في سرعة يعاني قلقاً واضطراباً. فقد رفعت الأم وأطفالها أبصارهم نحو نافذته، وتأكد لديه أن صاحبة البيت وابنتها تتحدثان عنه. وماذا الآن؟ ربما انتهى الآن كل شيء، وفي المساء التالي حين تعرف الأم والزوج، أن في الحجرة المواجهة رجلاً يختفي في الظلام، فلا بد أن يغلقا على نفسيهما هذا النور. فلا يعود يتسرب هذا النور الذي يعيش عليه، ولا يعود يسري إلى هذه الظلمة المحيطة به، ذلك النور الذي كان تسليته البريئة وراحته الوحيدة.

ولكن لم يحدث شيء من ذلك. ففي ذلك المساء نفسه، بعد أن أطفئ النور، وبقي هو مغروساً في تلك الظلمة، وبعد أن انتظر قليلاً، ريثما تتوجه الأسرة إلى النوم، ذهب إلى النافذة، وفتحها في حذر حتى يجدد الهواء، فرأى نافذة الجيران مفتوحة، ورأى بعد قليل -وكان يرتجف في الظلام من الدهشة -تلك المرأة تنظر إلى نافذته. ربما كانت مدفوعة بالفضول لمعرفة ما قالته صاحبة البيت وابنتها عنه.

إن هاتين العمارتين المواجهتين لم تكن نوافذهما لتساعد على رؤية ذلك الشريط الصغير المشرق من السماء ولا ذلك الشريط المظلم من الأرض، حيث يقع المدخل. إنهما عمارتان لا يدخلهما نور الشمس ولا نور القمر.

فهي إذاً لم تطل من النافذة إلا من أجله، وإنه لعلى يقين من ذلك، لأنها قد انتبهت إلى أنه يطل من نافذته المظلمة.

لم تكن الظلمة تسمح له أن يتبينها جيداً. ولكنه يعرف منذ زمن أنها جميلة، وهو يعرف تماماً جميع محاسن حركاتها وتعابير عينيها العسليتين وابتسامات شفتيها الجميلتين.

وكانت المرة الأولى التي تذهله المفاجأة، وتصيبه بالاضطراب، وتقطع أنفاسه، في ارتجافة قلقة، لم يقوَ معها على أن يمسك نفسه، وبذل مجهوداً جباراً للتغلب على نفسه، حتى لا ينسحب، حتى يظل منتظراً أن تنسحب هي الأولى.

وأحس بأن ذلك الحلم بالأمن والحب والألفة الحبيبة العذبة التي تصور تلك الأسرة تنعم بها، والتي نعم هو الآخر بتأملها من بعيد، تتهاوى في نفسه، إذا كانت هذه المرأة تخرج خلسة في الظلام لتطل من النافذة من أجل إنسان غريب..

إنه هو، هذا الإنسان الغريب.

وقبل أن تنسحب، وقبل أن تغلق النافذة الزجاجية همست في نعومة:

- ليلة سعيدة!

وأخذ يفكر فيما تحدثت به المرأتان حتى استطاعتا أن تحركا وأن تلهبا وتثيرا فضوله. ما أعجب وما أقدر الجاذبية التي صنعها هذا السر الغامض الذي يحيط بحياته الغامضة إذا كانت من المرة الأولى تتخلى عن أطفالها الصغار، وتأتي إليه، لتمنحه صحبتها.. من بعيد!

كان كل منهما يواجه الآخر، وعلى الرغم من أن كلاً منهما قد تجنب النظر إلى الآخر، وتظاهر أمام نفسه، بأنه إنما وجد في النافذة دون قصد ولا غاية، إلا أنه كان متأكداً من أن الاثنين قد ارتجفا لهذا النداء الغامض، بالانتظار، والاستجابة إلى الذهول الساحر الذي يلف أحاسيسهما في الظلام وكان متأكداً بأنه في مساء اليوم التالي لا بد أن يعيد فتح النافذة بعد إغلاقها، ولا بد أن تطفئ النور وتطل عليه...

وهكذا كان.

ومن ذلك اليـوم لم يعـد توليـو بوتي ينتـظر النور يسـري إليـه من النافذة، بـل أصبح ينتظر في قلق زائد اللحظة التي ينطفئ فيـها النور. وفي نهم مفزع، تفجرت عـاطفة الحب في قلب ذلك الرجل الذي لم يعرف الحب، والذي ظل أعـوامـاً طويلة خـارج الحـيـاة. وأخـذت هذه العـاطفـة العنيفة تلاحق وتلح على تلك المرأة حتى قذفت بها فيما يشبه الإعصار. وفي اليـوم الذي رحل فيـه بوتي عن الحجرة انفجر كالقنبلة خبر السيـدة التي تسكن في الدور الثالث، التي تخلت عن زوجها وأطفالها الثلاثة. وظلت الغـرفـة التي آوت بوتي أربعـة أشـهر تقريباً كـمـا ظلت الغـرفـة المجاورة لهـا ، مطفأة النور عـدة أسابيع، حيـث كانت الأسرة تجتـمع كل مساء للعشاء. ثم عاد النور حول تلك المائدة الحزينة التي يجتمع حولها أب أذهلته المصيبة، متأملاً وجوه أطفاله الحائرة التي لا تقدر على توجيه بصرها إلى باب الحجـرة التي كـانت تدخل منه أمـهم كل مـسـاء حـاملة الإناء السـاخن... وعـاد ذلك المصـبـاح حـول المائدة الحـزينة ينيـر، في عذوبة، الحجرة المواجهة، الحجرة الخالية.

فهل استيقظ العاشقان بعد أشهر من نوبتهما الجنونية القاسية؟

في إحـدى الأمـسـيـات دهشت صـاحـبـة البـيت عندمـا رأت جـارها الغريب يقف أمامـها.. ماذا يريد؟ إنه يريد تلك الحجرة الصغيرة، الحجرة الصـغـيـرة، إذا لم تؤجر. لا يريدها لنفسـه، ولا يريدها للإقـامـة، ولـكنه يريدها سـاعـة واحدة، بل للحظة واحـدة من مـسـاء كل يوم، ويأتـي إليـهـا خلسـة، رحـمـة بتلك الأم التـي تريد أن تنظر من بعـيـد، ودون أن يراها أحـد، أن تنظر أبناءها. وهمـا على اسـتـعـداد لأن يتـخـذا جـمـيع الاحتيـاطات، وهما على استعداد للتنكر، وأن يختارا الوقت المناسب

الذي لا يكون فيه أحد على السلم، وهو على استعداد أن يضاعف الإيجار... بل يدفع ثلاثة أمثاله، من أجل تلك اللحظة فقط. ولكن صاحبة البيت لم تقبل هذا العرض، ورضيت بأن تتركها لهما بعض المرات مادامت لم تؤجر، على شرط ألا يكتشفهما أحد، ومضت تلح في إصرارها على قصر الزيارة على بعض المرات.

وفي مساء اليوم التالي قدما إلى البيت كأنهما لصان، وتسللا إلى تلك الحجرة الصغيرة المظلمة وظلا ينتظران أن يسري إليها نور النافذة المجاورة! إنهما بعد اليوم سيعيشان على ذلك النور من بعيد.. وسرى النور في تلك الظلمة الحالكة، ولكن توليو بوتي لم يعد يطيقه... ما أشد ما يحس الآن ببرودته وسيطرة الأشباح والآثام عليه. أما هي فقد أسرعت شاهقة باكية إلى زجاج النافذة، ضاغطة بأسنانها على المنديل.

ها هم أطفالها... الصغار... إنهم هناك حول المائدة في غفلة عن كل شيء.

وهرع هو إليها ليسندها، ولبثا هناك متلاصقين ثابتين يحدقان في... نور الجيران.

المرحوم

منذ اليوم الأول سمع خطيبته تقول:

- في الحقيقة ليس اسمي لينا. إن اسمي كارولينا. ولكن المرحوم كان يدعوني لينا، فعلق بي هذا الاسم.

أما المرحوم فقد كان زوجها السابق.

وأشارت الخطيبة إلى صورته على الحائط. إنه لايزال هناك ضاحكاً رافعاً قبعته بالتحية. وكانت الصورة فاخرة وكبيرة تقع أمام الأريكة التي يجلس عليها خطيبها. وكاد الخطيب يرد على التحية، بانحناءة عفوية من رأسه.

لم يخطر ببال الأرملة أبداً، أن تنزع تلك الصورة من حجرة الاستقبال. إنها صورة صاحب البيت. لقد كان البيت له في الحقيقة. كان مهندساً، وهو الذي أقامه ثم أثثه فاخراً أنيقاً، وتركه في النهاية ميراثاً لزوجته مع أملاكه الأخرى.

وتابعت كلامها دون أن تلاحظ الارتباك الذي كان يبدو على خطيبها.

- لم أكن أحب أن أغير اسمي. ولكن المرحوم قال لي: ألا يكون أحسن لو دعوتك بدل كارولينا باسم كارا-لينا.. تسمية متشابهة.. ولكنها أجمل.. ما رأيك؟

فأجابها خطيبها (برتولينو) كما لو طلب منه المرحوم رأياً من الآراء.

- جميلة جداً.. جداً.

فقالت باسمة:

- إذاً كارالينا.. مفهوم؟

- مفهوم.

أجابها برتولينو وهو يتمتم في اضطراب وذهول وخجل، معتقداً أن الزوج يطل عليهما من الحائط ضاحكاً مسلماً..

وبعد ثلاثة أشهر سافر برتولينو وزوجته إلى روما لقضاء شهر العسل، وكان يرافقهما إلى المحطة لفيف من الأقارب والأصدقاء. من بينهم السيدة (أورتنسيا) الصديقة الحميمة لأسرة العروسين، والتي قالت لزوجها مشيرة إلى برتولينو:

- يا له من ولد مسكين.. لقد تزوج؟.. إنهم قد زوجوه من رجل.

إن السيدة لا تعني أن لينا امرأة مسترجلة لا. بل إنها أنثى طاغية الأنوثة. ولكنها إذا قورنت بزوجها فإن المقارنة سوف تنتهي إلى أنها - بلا شك- أشد خبرة بالحياة وأعرف بأحوالها، وهي أحكم منه على كل حال.

إنه أشقر. له مظهر طفل مدلل. طفل ذاهل. وهو أصلع. ولكن صلعته تبدو زائفة، كما لو حلق بنفسه أعلى رأسه حتى يزيح عنه مظهر الطفولة الذي يحيط به. دون أن يوفق في ذلك. مسكين برتولينو.

- لماذا ترينه مسكيناً؟

قال ذلك في صوت أخن، حانق، زوجها العجوز الذي صنع هذا الزواج، ولم يعد يرغب في أن يسمع كلمة سيئة فيه. وأضاف:

- إن برتولينو ليس غبياً.. إنه رجل له قيمته في ميدان الكيمياء.

- إنه من طراز ممتاز.

- بل إنه من الطراز الأول.

إنه كيماوي قدير، لو استطاع أن يدفع إلى المطبعة بأبحاثه ودراساته العميقة ذات الأصالة التي لا جدال فيها، والتي ظل متفرغاً لها منذ كان شاباً صغيراً، حيث كانت هوايته الوحيدة في حياته، أنه بلا شك.. من يدري.. ربما فاز في أول مسابقة تجريها الجامعة الكبرى للدولة بمنصب الأستاذ. إنه سيكون عالماً.. عالماً.. والآن سوف يكون زوجاً مثالياً. لقد دخل الحياة الزوجية طاهر القلب محتفظاً بعذريته.

- ومن أجل هذا..

قالت الزوجة ذلك، وكأنما أتاحت لها فرصة الحديث عن عذريته أن تمضي أكثر في السخرية بهذا الزواج.

والواقع أنه قبل أن يتم هذا الزواج، كانت تضحك من أعماقها، كلما سمعت الأقارب يقترحون تزويجه.. وكان هذا الضحك يثير حفيظة زوجها الذي كان يصر على تزويجه. وكان يلتفت إليها غاضباً قائلاً..

- لا بد من تزويجه يا سيدة.

ولكنها كانت تتوقف وتصرخ فيه.

- زوجوه يا أعزائي.. زوجوه.. أنا أضحك وحدي.. أضحك من المواضيع التي أقرؤها.

وكانت في العادة تقرأ قصة فرنسية، على العجوز والدة العريس، التي ظلت منذ ستة أشهر مشدودة إلى مقعد بسبب الشلل الذي أصابها، كانت تقرأ وكان زوجها يلعب الشطرنج مع خال برتولينو. حقاً.. ما أبهج

تلك الأمسيات: كان برتولينو منعزلاً في حجرة تجاربه، وكانت أمه تتظاهر بالإصغاء إلى القراءة دون أن تفهم جملة واحدة. والشيخان المتفرغان إلى اللعبة يرددان: يجب تزويج برتولينو حتى ندخل شيئاً من المرح على هذا البيت..

وها هو المسكين.. قد زوجوه حقاً.. يا لها من كارثة.

كانت أورتنسيا تفكر في الزوجين المسافرين، وتضحك كلما تصورت لينا تخلو إلى ذلك الشاب الأصلع الساذج الطاهر القلب، كما يصفه زوجها. مضحك أن تخلو إليه لينا التي عاشرت المهندس المحبوب أربعة أعوام.. كان خبيراً بأدواء النساء نشطاً مرحاً.

ومن يدري، ربما لاحظت في تلك الساعة الفرق بين الاثنين.

وقبل أن يقلع القطار قال خاله للزوجة الجديدة.

- لينا.. إنني أوصيك به.. قوديه أنت.

وكان يقصد أن تقوده وتشرده في روما التي لم يرها برتولينو من قبل.

أما هي فقد رأت روما في رحلتها الأولى لقضاء شهر العسل، وكانت في صحبة المرحوم. وهي مازالت تذكر حتى الأشياء الصغيرة وأتفه الحوادث التي مرت بها. إن ذاكرتها دقيقة ووقادة، تذكر كل شيء كأنما مرت ستة أشهر، لا ستة أعوام من ذلك التاريخ.

وقد أحست أن الرحلة مع برتولينو قد استغرقت زمناً طويلاً مملاً، لم ترفع خلاله الكلفة. وما كاد القطار يصل روما حتى هتفت به.

- دعني أتصرف.. أرجوك دع كل الأمور في يدي.. هات الحقائب.

وأحصت الحقائب وملحقاتها قبل أن تسلمها إلى الحمال الذي طلبت منه أن يحملها إلى فندق فكتوريا.

وعندما خرجت من المحطة بعد أن سحبت الصندوق، تعرفت في الحال على سائق السيارة العامة، فحيته، ثم قالت لزوجها بعد أن ركبا السيارة.

- سترى.. إنه فندق متواضع ولكنه مريح.. خدمة ممتازة.. نظافة.. أثمان معتدلة.. ثم هو يقع في مركز ممتاز.

ودون أن تشعر وجدت نفسها تتذكر المرحوم الذي أحب الفندق كثيراً واطمأن إلى خدمته.. لا شك في أن برتولينو هو الآخر سيكون ممنوناً.. آه يا إلهي.. ما أطيبه من وليد.. إنه لا يكاد يتنفس.

وسألته:

- هل أنت ذاهل؟.. حتى أنا كنت أحس بهذا التأثير في رحلتي الأولى.. ولكنك سوف ترى.. إن روما سوف تفرحك وسوف تحبها.. انظر إلى تلك الميادين هناك.. فيا ناسيونالي.. رائعة.. أليس كذلك!.. سوف نمر بها فيما بعد.

ونزلت في الفندق. وكانت لينا تشعر كأنها في بيتها. وكانت تتمنى أن يعرفها أحد موظفيه كما تعرفهم جميعاً.. ها هو الخادم العجوز مثلاً.. بيبو.. إنه كما هو منذ ستة أعوام..

- أي حجرة؟

لقد سلموها الحجرة رقم ١٢ بالدور الأول.. حجرة جميلة، رحبة، ذات مضجع مرتب ومنسق. ولكنها قالت للخادم:

- بيبو.. الحجرة رقم ١٩ في الدور الثاني.. هل يمكن أن ترى إذا كانت خالية؟

وانحنى الخادم قائلاً:

- في الحال.

وأخذت تشرح لزوجها:

- إنها مريحة أكثر.. ثم إن بها حوضاً صغيراً قرب السرير.. وهي أكثر تهوية، وأبعد عن الضجة، وسوف تستريح فيها أكثر.

وتذكرت أن مثل هذه الحادثة، قد وقعت للمرحوم نفسه، لقد سلموه حجرة في الدور الأول، ولكنه طلب تغييرها.

وعاد الخادم بعد قليل وأخبرها أن الحجرة رقم ١٩ غير مشغولة، وهي تحت تصرفهما إذا رغبا فيها.

وفرحت لهذا الخبر وهتفت:

- نعم نريدها.. نريدها.

وما كادت تدخل الحجرة حتى ابتهجت لأن ترى تلك الحجرة كما كانت.. البسط نفسها.. الأثاث نفسه.. في الأماكن نفسها.

وظل برتولينو غريباً عن هذه الحجرة التي تشعر بالاطمئنان إليها. وسألته وهي تضع قبعتها على مشجب قرب المرآة..

- ألا تعجبك؟

فأجاب:

- تعجبني؟ إنها جميلة.

- آه.. لقد لفتت نظري المرآة.. ذلك الإطارلم يكن هناك في ذلك الوقت.. كانت هناك آنية يابانية، ربما تكسرت.. ولكن قل لي ألا تعجبك؟ أرجوك.. أرجوك.. لا تقبيل الآن بوجهك المتسخ.. يجب أن تنظفه هنا.. وسوف أذهب أنا إلى هناك..

وهربت منه، سعيدة، مرحة. ونظر هو حوله بعد أن قمع رغبته، واقترب من المضجع، ورفع الستار فرأى الفراش.. لا بد أن يكون هو السرير نفسه الذي نامت عليه للمرة الأولى مع زوجها المهندس (المرحوم).

ومن بعيد.. من صورة معلقة على الحائط في حجرة الاستقبال ببيت زوجته، خيل لبرتولينو أن الزوج السابق، يحييه.

ولم يكتفيا طوال الوقت الذي استغرقته الرحلة بأن يناما في السرير نفسه.. ولكنهما تغديا وتعشيا في المطاعم نفسها، حيث كان المرحوم يصطحب زوجته للأكل، وتمشيا في شوارع روما، وكانا يتابعان كالكلب خطوات المرحوم الذي كان يقودهما بذكريات الزوجة.. زارا الآثار والمتاحف والمعارض والكنائس والحدائق، وشاهدا ولاحظا كل ما عرضه المرحوم على زوجته.

كان خجولاً.. برتولينو. فلم يستطع في الأيام الأولى أن يظهر سأمه وحنقه وسخطه على أن يتابع في كل شيء، خبرة ونصائح وأذواق وميول (المرحوم) زوجها السابق.

إلا أنها لم تفعل ذلك بقصد الإساءة إليه، ولم تكن لتفطن أن في تصرفها هذا إساءة إليه.

لقد تزوج بها المهندس، وهي في الثامنة عشرة.. فتاة صغيرة.. محرومة من الإدراك وليست لها فكرة عن الحياة، فأخذت بذلك الرجل الذي علمها وكونّها امرأة كما يريد.. وبصفة عامة.. فقد كان زوجها السابق هو الذي صنعها.. وهي مدينة له بكل شيء.. فلا تستطيع أن تفكر أو أن تشعر أو أن تتكلم أو تتحرك إلا بالطريقة التي رسمها المرحوم.

ولماذا تزوجت إذاً؟

تزوجت لأنه (المرحوم..) علمها أن الدموع لا تجدي مع الكوارث. وأن الحياة لمن بقي، والموت لمن كان نصيبه الموت. لو ماتت هي، لكان حتماً أن يتزوج.. وإذاً يجب على برتولينو أن يسلك الطريق نفسها الذي

حدده المرحوم معلمهما ومرشدهما. فليس له أن يفكر في شيء، ولا يعلق على شيء، وعليه أن يضحك، ويبحث عن التسلية، مادامت هناك فسحة من الوقت، فهي لم ترد أن تسيء إليه بمتابعة خطوات المرحوم.

ولكن، على الأقل قبلة، مغازلة، أي شيء في النهاية ليس فيه أثر من طريقة المرحوم. أمحكوم عليه بأن لا يشعر هذه المرأة بشيء فيه طابعه الخاص؟ شيء يزيح ولو قليلاً، سيطرة المرحوم على حياته؟..

وبحث برتولينو. بحث كثيراً. ولكن الخجل كان يمنعه من صنع مداعبات جديدة. إنه يصنع بينه وبين نفسه مداعبات جديدة جريئة.. ولكنها كانت تطير من رأسه بنظرة واحدة تسلطها عليه زوجته عندما تلمح الاحمرار يعلو وجهه.. وتسأله عما به، فيجيب بوجه متبلد.. لا شيء.

وأقلقهما عند عودتهما من الرحلة، خبر حزين غير منتظر. لقد مات فجأة السنيور موتا.. الذي عقد بينهما.. وأسرعت لينا إلى السيدة ارتنسيا لتعزيها في مصابها، ولتقف إلى جانبها في هذه الكارثة، كما وقفت هي منها وقفة الأخت الودود.. عندما مات المرحوم.

ولم تكن تظن أن هذه المهمة سوف تكون عسيرة، لأن ارتنسيا يجب ألا تكون في الحقيقة حزينة لهذه المصيبة.. حقاً إن زوجها كان رجلاً طيباً. ولكنه كان إنساناً مملاً مضجراً، ثم إنه أكبر منها بكثير.

وحيرها ألا يجد العزاء مكاناً في قلب صديقتها، بعد عشرة أيام لوقوع الكارثة. فظنت أن زوجها قد تركها في أوضاع اقتصادية سيئة، ووجدت الجرأة على أن تسألها في أدب ولطف عن ذلك، فأجابتها دامعة العينين:

- لا أشكو ضائقة اقتصادية.. ولكنك سوف تفهمين.

ما الذي سوف تفهم؟ أهذا الحزن كله حزن جاد؟ إنها لا تستطيع أن تفهم. وأفضت بحيرتها إلى زوجها. ولكن برتولينو أجابها، وهو يرفع كتفيه، وقد احمر وجهه لهذا السؤال الذي تطرحه زوجته..

- على كل حال.. أقول.. لقد مات زوجها.

فهتفت به في عجب:

- دعك من هذا الآن.. زوجها.. كان يبدو لها أباً في كثير من الأحيان.

- وهل هذا قليل في نظرك؟

- ولكنه في النهاية لم يكن أباً.

كانت لينا على حق، إن ارتنسيا كانت تبكي أكثر من اللازم.

في أشهر الخطبة الثلاثة كان زوج ارتنسيا قد لاحظ ما أصاب الشاب، من ذهول واستغراب، بسبب البساطة التي تتحدث بها خطيبته أمامه عن زوجها السابق (المرحوم). كان قلقاً. لأنه لم يستطع أن يوفق بين ذاكرتها الحية النشطة الملحة التي تحتفظ بتلك الذكريات وبين رضائها بالزواج منه. لقد بحث هذه القضية مع العجوز الذي حاول أن يطمئنه ويؤكد له أن هذا الكلام دليل على الصراحة التي يجب ألا يعتبرها مهينة له، لأن زواجها الجديد يجب أن يبث فيها يقيناً ثابتاً أن ذكرى المرحوم لا جذور لها في القلب، ولكن في الذهن فقط. ولهذا فهي تتحدث أمامه عن المرحوم دون ريبة. وقد شعر برتولينو بالثقة تعود إلى نفسه بعد سماع هذا المنطق. وكانت ارتنسيا تعرف ذلك. وهي لذلك تملك الدليل على أن قلق الشاب قد تزايد من تلك الصراحة بعد الرحلة. ولهذا حرصت على أن تظهر أمامه عندما جاء للتعزية بمظهر المرأة التي لا يمكن أن تسلو.

وأثر ذلك الحزن في نفس برتولينو، وأحس بعطف عليها، بسبب هذا الحزن الذي استطاع أن يعارض من أجله -وللمرة الأولى- زوجته التي لم تؤمن بحزن صديقتها.

- ألم تبكي أنت عندما مات..

فقاطعته قائلة:

- لا وجه للمقارنة.. لقد كان المرحوم...

فأسرع يضيف إلى قولها:

- نعم، كان شاباً.

ثم قالت:

- ولكنني بكيت.. وبكيت.. هذا حق.

ووجد الجرأة في أن يقول لها:

- ألم تبكي كثيراً؟

- لقد بكيت كثيراً. كثيراً، ولكن في النهاية، حكمت العقل. صدقني إن حزنها مبالغ فيه.

ولكن برتولينو لم يصدق، بل أحس بعد هذا الحديث أن الغيظ الذي في صدره قد تزايد، لا ضد زوجته ولكن ضد (المرحوم). لأنه أدرك أن طريقة حكمها على الأشياء، وطريقة تفكيرها وطريقة شعورها ليس فيه جميعاً شيء منها، ولكنها ثمرة مدرسة ذلك الرجل الذي لا بد أنه كان خليعاً ماجناً من طراز ممتاز.

ألا يراه برتولينو، كل يوم عندما يدخل إلى الصالون، باسماً يحييه... إنه لم يعد يتحمل تلك الصورة. إنها لعنة تلاحقه. إنها أمام عينيه دائماً. وإذا ما دخل المكتب كانت صورته أول ما تقفز إلى الذهن.. وهو في وضعه الضاحك المرحب، كأنما يريد أن يقول:

- تفضل.. تفضل.. لقد كان مكتبي مكتب مهندس.. هل تعرف ذلك؟ ولكنه الآن تحول إلى معمل كيماوي.. أتمنى لك عملاً طيباً. الحياة لمن بقي، والموت لمن مات. يدخل حجرة النوم. هذه الصورة تلاحقه حتى هناك.. ضاحكاً مسلماً كأنما يريد أن يقول:

- تفضل.. تفضل.. ليلة سعيدة.. هل أنت ممنون من زوجتي؟.. لقد أحسنت تثقيفها وتعليمها.. آه.. الحياة لمن بقي، والموت لمن مات.

إنه لم يعد يحتمل، لقد امتلأ عليه البيت بوجود ذلك الرجل، كما امتلأت زوجته بوجوده. لقد وجد نفسه، وهو الرجل المسالم الهادئ، ضحية لعذاب مستمر كان يحاول جاهداً أن يخنقه. وأخيراً.. قرر أن يأتي بأفعال غريبة حتى يغير من عادات زوجته، ويهزها، ولكنه نسي أن هذه العادات لم تكتسبها إلا بعد ترملها. فقد كان المرحوم ذا ميول حية نشيطة، فلم تكن له عادات. ولذلك.. فإن الأعمال الغريبة التي قرر برتولينو أن يقوم بها، لم تكن غريبة عند زوجته التي فاجأته بقولها:

- يا إلهي.. إنك تتصرف كالمرحوم!

ولكنه لم ينهزم.. وغالب طبيعته حتى تأتي بما هو أعجب وأغرب.. ولكن أي عمل يقوم به، كانت تؤكد له أن المرحوم قد قام بمثله.. لقد قام المرحوم في الحقيقة بكل الألوان.

وزاد حنقه لارتياحها إلى هذه المحاولات الهروبية التي كان استمرارها يخيل إليها أنها مازالت تعيش مع (المرحوم).

وحينئذ.. حينئذ فقط، رسم برتولينو خطة مؤلمة حتى يخفف من الأسى الذي يتضاعف في نفسه يوماً بعد يوم. حقاً.. إنه لم يرد أن يخون زوجته بقدر ما أراد الانتقام من ذلك الرجل (المرحوم) الذي

انتزعها منه كلها، ولايزال محتفظاً بها حتى الآن.. وكان يظن أن هذه الخطة الشريرة قد نشأت في ذهنه عفواً. ولكن في الحقيقة يجب أن يعتذر له، بأن الفكرة أوحيت إليه، وتسربت إلى ذهنه من قبل تلك المرأة، التي حاولت عبثاً عندما كان شاباً أعزب، أن تصرفه بفنونها وألاعيبها عن إفراطه في دراسة الكيمياء.

وانتصرت (اورتنسيا)، وأظهرت له أنها متألمة لخيانة صديقتها، وأفهمت برتولينو بأنها كانت تعشقه قبل أن يتزوج بها.. وعلى كل.. فليكن ما يكون.. ذلك حكم القدر..

ولكن هذا المصير لم يكن واضحاً لدى برتولينو، الشاب الساذج. ولذلك ظل مندهشاً ذاهلاً من البساطة والسهولة التي استطاع بها أن يحقق خطته.

وعندما كان وحده في حجرة العجوز الطيب أحس بالندم لهذه الفعلة الدنيئة، ولكن بصره وقع فجأة على شيء لامع فوق البلاط قرب الجهة التي كانت فيها ارتنسيا من السرير. كانت قلادة ذهبية.. لا بد أن تكون قد سقطت من رقبتها، ورفعها، وفي نيته أن يعيدها إليها.. ولكنه في فترة الانتظار، وجد نفسه يفتحها في حركة عصبية بأصابعه دون أن يرغب في ذلك..

حتى هنا.. صورة صغيرة للمرحوم... يضحك ويحيي!

تَمرد

لا انظر إليها عندما يكون هناك إنسان إلى جواري. ولكنني أحس أنها تحدق فيّ، دون أن تحول بصرها عني لحظة واحدة. وكم أود أن أفهمها، مواجهة، بأن لا شيء هناك. وبأن تحافظ على هدوئها، وبأني لن أسمح لنفسي بالقيام بهذا العمل البسيط مع غيرها. ذلك العمل الذي لا أهمية له بالنسبة إليها، ولكنه كل شيء بالنسبة لي.

إنني أقوم به كل يوم، في الوقت المناسب، وفي شيء كثير من الاحتياط والتخفي. مستشعراً سروراً عظيماً في تذوق هذه الشهوة الجنونية التي تحررني من كل شيء.

يجب أن أكون على يقين -واليقين لا أدركه إلا معها- أن هذا العمل لم يكتشفه أحد. فإذا قدر له أن يكتشف فإن الضرر الذي يلحق بي لا يمكن أن يقدر. سأكون إنساناً منتهياً. ربما قبضوا عليّ وأوثقوني ثم اقتادوني في فزع إلى مستشفى المجانين. إنني أرى الفزع الذي يحسه الجميع في عيني ضحيتي هذه.

لقد اؤتمنت على شرف وحياة وحرية وأملاك عدد كبير من الناس. يحاصرونني من الصباح إلى المساء، ملتمسين عملي ومشورتي ومساعدتي. وقد أرهقت بواجبات أخرى بين عامة وخاصة. لي زوجة

وأطفال يحتاجون إلى إرشادي وإلى سلطتي الحازمة التي تمسكهم باستمرار وتحول بينهم وبين الانحراف. إنهم في حاجة إلى استشعار التزامات زوج، وأب، ومواطن، ومحام، وأستاذ للحقوق. فالويل إذاً لو اكتشفوا سري..

حقاً إن ضحيتي غير قادرة على الكلام، ولكني لم أعد أشعر بالاطمئنان منذ أيام. إنني ذاهل وقلق لأنها تحدق فيَّ بعينين مملوءتين بالرعب الذي أخشى أن يتبينه أحد، فيسعى إلى معرفة السبب، وأكرر أنني سأكون رجلاً منتهياً. إن معنى العمل الذي أقوم به لا يقدره سوى القليل الذي اكتشف الحياة فجأة كما اكتشفتها. وبيان ذلك وإفهامه ليس بالأمر اليسير؛ ولكنني سأحاول.

كنت عائداً من بيروجيا منذ خمسة عشر يوماً تقريباً. حيث ذهبت إلى إنجاز أمور تتعلق بمهمتي. ومن أفدح التزاماتي ألا أحذر الإعياء الذي يؤذيني، ولا أرهب ثقل الواجبات التي وضعت على كاهلي. ولا أتطلع إلى شيء من الراحة التي يحتاج إليها ذهني المكدود من حين إلى آخر. والشيء الذي أسمح به لنفسي عندما يعييني التعب إثر مشكلة أتوقعها منذ زمن، هو أن أتجه إلى أخرى جديدة.. تلك هي راحتي. ولذلك حملت معي إلى القطار محفظتي اليدوية، وبها بعض الأوراق لدراستها أثناء الرحلة. ووجدتني أرفع بصري إثر مشكلة عسيرة اعترضتني أثناء القراءة، وصوبته نحو نافذة العربة. كنت أنظر إلى الخارج، ولكنني لم أر شيئاً، فقد لبثت مستغرقاً في تلك المشكلة. حقاً إنني لا أستطيع أن أنكر رؤيتي لبعض الأشياء. فقد كانت عيناي تنظران، وربما كانتا تستمتعان وحدهما بعذوبة وبهجة الريف الجميل..

ولكنني لم أكن منتبهاً إلى ما تراه عيناي إلا حين خف استغراقي في تلك المشكلة التي سيطرت على تفكيري. ومع ذلك فلم أعر مشهد الريف الذي كان يتوالى على بصري هادئاً مشرقاً مريحاً أي اهتمام، بل لم أكن أفكر في شيء.

وقد لبثت برهة كأنني مشدود إلى شيء مبهم غريب، ولكنه بهيج هادئ. وكأنما كانت روحي مبغضة لمشاعري، فنفرت منها إلى ما بعد لانهائي، حيث استطاعت أن تتبين في عذوبة لم تستشعرها من قبل، بهجة حياة لم تكن من نصيبها، وكان من الممكن أن تكون من نصيبها، في غير هذا الزمان والمكان، ولكن هناك في ذلك البعد اللانهائي. إنها حياة ربما كانت مقدرة لها. ولست أذكر متى ولا كيف هبت على روحي نسمات لذكرى غير واضحة لا صلة لها بالأعمال التي مارستها والمشاهد التي رأيتها، ولكنها نسمات ذكرى رغبات، زالت قبل أن تخرج إلى الوجود، وفي صميمها ألم مبهم قاسٍ يشبه الألم الذي يصيب الزهور التي لم تقدر على التفتح.. إنها حياة كان يجب أن تعيشها هناك، بعيداً، حيث تجد حقيقتها الضائعة، وهذه الحياة ليست بهجة خالصة، ولكن حسبها أن تشعرها بألم خاص بها.

وأخذ الكرى بعيني دون أن أشعر. وربما واصلت في نومي الحلم بتلك الحياة التي لم تولد. أقول ربما، لأنني حين استيقظت في فتور، والمرارة في فمي الجاف، استولت عليّ دهشة مرعبة، ضاعت خلالها مظاهر الأشياء الجميلة، حتى لكأنها فقدت معناها، أو أنها في نظري أصبحت قاسية الوطأة لا تطاق.

ووجدت نفسي فجأة أحمل روحاً جديداً، وشعوراً قاسياً بجفاف

الحيـاة. وهبطت إلى المحطة حامـلاً في نفسـي هذه المشـاعـر. ثم ركبت سيارتي التي كانت في انتظاري واتجهت عائداً إلى البيت.

وفي سلم البيت، وعند المسـتـراح القـائم أمـام البـاب، رأيت لافـتـة نحاسـيـة قد نقش عليـهـا اسمي، مسـبـوقـاً بألقـابي، ومتـبـوعـاً بنعـوتي العلمـيـة والمهنيـة، وقد زادتني تلك اللافـتـة إيماناً بأن هذه الحـيـاة لـيـست حياتي. وتيـقنت في شكل مخيف، أن الرجل الواقف أمام الباب المتـأبط محفظته الجلدية، الرجل الذي يسكن في هذا البيت، لست أنا..

إنني لم أكن ذلك الرجل أبداً. وأدركت فجأة أنني كنت كالغائب عن ذلك البـيت، وعن حـيـاة ذلك الرجل. بل ربما كنت بعـيـداً عـن كل أنواع الحياة. أنا لم أعش أبداً، ولم أكن في يوم من الأيام من الأحياء، لم تكن لي حياة يمكن أن أعترف بأنها لي قد رغبت فيها، وأحست بأنها ملكي. حتى جسـمي، حتى هيئـتي بدت لي في ثيـابهـا وأناقـتـهـا غـريـبـة عني. فكأن أحداً فرض عليّ هذه الحياة ليـحـركني داخل حيـاة ليست حيـاتي، وليدفعني إلى أن أنجز في هذه الحياة التي كنت غائباً عنها أعـمالاً تثبت وجودي. تلك الأعمال التي أشعر أن روحي لم تعثر فيها على حقيقتها.

من الذي صور هذا الـشكل؟ هذا الرجل الذي يمثلني؟ من الذي أراده هكذا؟ من الذي ألبسـه ثيـابه وحـذاءه هكذا؟ من الذي يـحـركـه على هذا النمط وينطقه؟ من الذي فـرض عليـه تلك الـواجبـات؟ وبعـضـهـا أثقل من الآخـر وأبغض. رتبـة ممتـازة، أسـتـاذ، مـحـام، ذلك الرجل الذي يحـتـرمـه الجـمـيع، ويـبـحـثـون عـنه، ويعـجـبـون به، ويريدون عـمله، ومـشـورته، ومساعـدته، إنهم دائماً يختـصمون ويتشـاجرون دون أن يمكنوه من لحظات يسـتـريح فـيـهـا ويـتـنفس بملء رئتيـه. أأنا هو؟ أنا حـقـاً؟ ولكن مـتـى كـان

ذلك؟ وما يهمني من تلك المشكلات التي يغرق فيها ذلك الرجل من الصباح إلى المساء، وذلك الاحترام والتقدير الذي يتمتع بهما، ومن تلك الرتبة الممتازة، والأستاذية، والمحاماة ومن الثروة والجاه اللذين حصل عليهما من استخدام مهنته، في إنجاز تلك الواجبات المرهقة القاسية...

ولكن هناك، خلف هذه اللافتة النحاسية التي تحمل اسمي، هناك امرأة وأربعة أطفال ينظرون إلى الأيام بسأم يشبه سأمي، ولكني لا أطيق فيهم ذلك الرجل الصابر المتجلد، الذي هو أنا، ذلك الرجل الذي أجده غريباً عني، بل عدواً لي. زوجتي؟ أطفالي؟ ولكن لم أكن أنا أبداً ذلك الرجل، إني متيقن من ذلك بشكل مخيف. فزوجة مَنْ تلك المرأة؟ وأبناء من أولئك الأطفال الأربعة؟ أبنائي؟ لا.. إنهم أبناء ذلك الرجل الذي لو كانت روحي قادرة على أن تتقمص جسدها الحقيقي لحطمته وألقته مع جيمع تلك الأعمال والواجبات والجاه والثروة والاحترام وحتى الزوجة. نعم، ربما حتى الزوجة، ولكن الأطفال؟

ووضعت يدي على صدغيّ، وضغطت عليهما بقوة. لا، إنهم ليسوا لي، ومن خلال شعور مبهم غريب، تبينت أنني اعتدت أن أراهم كل يوم، وأنهم في حاجة إلى رعايتي، وعملي؛ وتملكني شعور بالضيق، فوجدت نفسي أتقمص من جديد شخصية ذلك الرجل الصبور الذي يقف أمام الباب، وأخرجت المفتاح من جيبي، وفتحت الباب، ثم دخلت في ذلك البيت، وفي تلك الحياة السابقة. ومأساتي هي هذه، أقول مأساتي، ولكن من يدري مأساة كم من الناس أيضاً؟..

الذي يحيا لا يستطيع رؤية حياته إنه يعيشها، فإذا استطاع أحد رؤيتها ومراقبتها فمعنى ذلك أنه لا يعيشها أبداً، إنه يكابد آلامها،

ويجر أيامها كما تجر الجثة الميتة. ذلك لأن كل تحجر في صورة، في شكل معناه الموت، وهذه الحقيقة لا يعرفها إلا القليل. أما أكثر الناس فإنهم يقاومون ويكافحون ليضمنوا مكانة لأنفسهم، وليصلوا إلى حالة، فإذا أدركوها اعتقدوا أنهم قد أدركوا حياتهم، حينئذ يبدأ موتهم. إنهم لا يدركون ذلك لأنهم لا يستطيعون الانفصال عن القالب المميت الذي صيغوا فيه. إنهم أموات، ويعتقدون أنهم أحياء، وهذه حقيقة لا يفهمها إلا من استطاع أن يرى القالب الذي هيأه له الحظ، والفرص والمكانة التي ولد فيها.. وإذا استطعنا أن نرى هذا القالب فمعنى ذلك أنه فاقد لمعنى حياتنا وحقيقة وجودنا. فلو كانت حياة، لما أمكننا أن نراها. نعيشها دون أن نراها، ونموت كل يوم فيها دون أن نفطن إلى ذلك. إننا لا نرى ولا نعرف إلا الأشياء التي ماتت فينا.

وقضيتي ربما كانت أفدح. فأنا لا أرى ما مات فيَّ، ولكني أرى أني لم أعش أبداً. أرى أن القالب الذي أفرغت فيه حياتي، إنما أعطاه لها الآخرون، ولست أنا الذي صغتها فيه، فأنا أشعر أن حياة هذا القالب، لم تكن حياتي الحقيقية. لقد أخذوني كأية مادة، أخذوا دماغاً وروحاً وعضلات وأعصاباً ولحماً، وعجنوها على النحو الذي يريدونه حتى تنجز أعمالاً، وتقوم بأفعال، وتطيع الواجبات التي أبحث عن نفسي فيها فلا أجدها.

وأصرخ، وتصرخ روحي في هذه الهيئة الميتة التي لم تكن هيئتي أبداً. ولكن كيف، وفي نفسي سأم وحقد ورعب من هذا الرجل الذي لم أكنه. من هذا القالب المميت الذي قيدني فلا أقدر على التحرر. إنه قالب مثقل بالواجبات التي أشعر أنها ليست واجباتي. مرهق بأعمال لا

تهـمني، مـتـخذ كـرمـز للتـقـدير الذي لا أعـرف مـا أصنع بـه. إن هذه الواجبات والأعمال والتقدير والاحترام صور خارجة عن حقيقة نفسي، إنهـا أشـيـاء مـيـتـة، لا مـعنى لهـا، إلا أن تشـقل كـاهلي، وترهقني وتسحقني، ولا تدع لي الفرصة للتنفس. أتحرر؟؟ ولكن متى استطاع إنسان إلغاء الحقيقة الواقعة فينكر الموت عندما يأخذ بخناقه.. والحقيقة أنه مهـمـا كـان مـسلكك في الحـيـاة فلا بد أن تقـيـدك المحن التي يـجـرها عليك. وتحيط بك تلك المسؤولية التي أخذتها على عاتقك كأنها الجو الخانق الكثيف. فكيف أستطيع التحرر، وأنا سجين هذا القالب الغريب الذي يمثلني كما أنا بالنسبة للجميع، وكما يعرفني ويحترمني الجميع؟..

إنني أعـيـش حيـاة مـختلفة عن تلك الحقيـقـة التي أحلم بهـا. إنني أعيش حياتي في قالب أشعر أنه ميت وهو يعيش من أجل الآخرين. من أجل الذين رفعوه والذين يريدون له هذه الصورة.. فهو مرغم إذاً على أن يعـمل من أجل زوجتي وأطفـالي والمجتـمع والسـادة طلاب الحـقـوق في الجامعة والسادة العملاء الذين أودعوني الحياة والشرف والحرية والثروة. يعمل هكذا ولا أستطيع تغييره ولا أستطيع أن أركله بالأقدام وأزيحه وأتمرد عليه وأنتقم منه إلا في هذه اللحظة التي أحصل عليـهـا كل يوم، إنه عـمل أقـوم به فـي الخـفـاء، مـغـتنمـاً الفـرصـة الملائمـة في احـتـراس، وارتجاف بحيث لا يراني أحد، وإليك القصة.

عندي كلبة عجوز مضى عليها بالبيت إحدى عشرة سنة. لونها مزيج من البياض والسواد، سمينة ذات شعر ناعم وعيناها غائرتان من الشيخوخة، لم تكن بيني وبينها صلات طيبة، ربما لأنها لم تعجب بمهنتي التي لا تطيق الضجيج في البيت. ولكنها أصبحت تألفها وتحبها

شيئاً فشيئاً حين حاصرتها الشيخوخة فجعلتها تفزع إليّ من قسوة الأطفال الذين يريدون أن تشاركهم مرحهم، ولعبهم، ونشاطهم في الحديقة. وقد أخذت منذ زمن تختفي في مكتبي من الصباح إلى المساء، واعتادت النوم على البساط، واضعة رأسها بين قائمتيها الأماميتين شاعرة بالأمن والراحة بين هذه الأوراق والكتب الكثيرة، ومن حين لآخر كانت تفتح عينيها، وتحدق فيّ كأنها تقول: «أجل أيها العزيز المحترم، اعمل. لا تتحرك من هناك، لأني مطمئنة إلى أن أحداً لن يفسد عليّ نومي ما دمت جالساً هناك، متفرغاً للعمل».

ويقين أن هذا هو تفكير الكلبة المسكينة. والإغراء بأن أنتقم منها لنفسي، قام بذهني منذ خمسة عشر يوماً تقريباً، فجأة، عندما رأيتها تحدق إليّ بإمعان، ولم يكن في نيتي أن ألحق بها ضرراً، ولكنني ما أكاد أتحرر من العملاء لحظة، حتى أنهض في حذر شديد عن كرسيي كيلا يتبين أحد أن علمي المخيف الذي يطمع فيه الجميع، ومعرفتي الرهيبة كأستاذ للحقوق ومحام، ووقاري كزوج وأب، إن هذه كلها قد انفصلت للحظات عن هذا الكرسي الوثير. وأسرع على رؤوس أصابعي إلى الباب، ثم أطل على المشى لأتأكد من أن ليس هناك أي قادم. ثم أغلق الباب بالمفتاح، وتلتمع عيناي بسرور عجيب، للحظة واحدة، وأحس أن يدي تتراقصان من هذه المتعة التي سأحسها بعد حين، أو أكون مجنوناً للحظة واحدة، أن أخرج من هذه الهيئة الميتة، أن أحطم لوقت قصير، وفي استخفاف، هذه المعرفة، وذلك الوقار الذي يرهقني. وأجري نحو الكلبة النائمة على البساط، وفي رفق وأدب، أرفع قدميها الخلفيتين وأرغمها على المشي بضعة خطوات بقدميها الأماميتين

وأدفعها إلى الأمام كما تدفع العربة. هذا كل ما في الأمر، لا أفعل شيئاً آخر، ثم أجري مسرعاً إلى الباب وأفتحه في رفق، دون أي صرير وأعود إلى كرسيي على استعداد لاستقبال عميل جديد، في كامل وقاري السابق. وأنا محشو بمعرفتي المخيفة كأنني مدفع.

ولكن الكلبة منذ خمسة عشر يوماً أصبحت تعبة من التحديق بذينك العينين الغائرتين المفتوحتين من الرعب، إني أريد إقناعها بأن لا شيء هناك، وبأن تطمئن ولا تنظر إليّ هكذا. أتفهم الكلبة فظاعة العمل الذي أقوم به؟ ولا معنى لذلك، فهي عرضة لأن يقوم به نحوها أطفالي، ولكنها تعرف أنني لا أهزأ، ولا يمكن أن تقتنع بأني أسخر حتى للحظة واحدة. ولذلك فهي تتابع النظر إليّ في دهشة واستغراب.

الإكليل

وقف الدكتور شيما، عند مدخل الحديقة العامة القائمة بظاهر المدينة، على كثيب مرتفع، وأخذ يتأمل باب المدخل المكون من قطعة واحدة شاحبة، وقد استند على دعامتين متواجهتين، قامت خلفهما شجرتان من السرو، كان الحزن يخيم عليهما، رغم ما يحيط بهما من أزهار باسمة، تفرقت هنا وهناك، خلال الخضرة الداكنة، أو تسلقت بعض الأشجار. ثم نظر إلى الطريق المائل الذي يمتد من المدخل حتى نهاية الهضبة، حيث قامت في قمتها مقصورة تشبه الهيكل الصيني. وكان ينتظر أن تتغلب الرغبة في جولة منعشة في تلك المقصورة القديمة المهجورة، على الوهن الذي يشعر به في مفاصله، والذي سببته له أشعة شمس الصباح.

وكان الظل المنعش مفعماً برائحة الأشجار البرية، وروائح شجر الخوخ ورائحة النعنع الحادة. وكان تغريد الطيور المحتفلة بعودة الربيع ينساب من أعلى الشجر كأنما هو دعوة للمشاركة.

وبدأ الدكتور يأخذ طريقه في خطوات بطيئة إلى المقصورة، وكان يستنشق تلك الروائح البرية الحادة في شراهة زائدة مستشعراً نشوة وانجذاباً.. وكانت رؤية تلك الأشجار المخضرة وحفيف الفراشات البيضاء التي تطوف بالزهور، تحيط أفكار الدكتور الحزينة بإطار ضبابي من الأحلام.

ما أجمل تلك المقصورة الهادئة التي لا يطرقها أحد من المتجولين.

- لو كانت لي؟

تلك كانت أمنيته، ولما لم تكن يده الطامعة قادرة على ذلك، فليس له إلا أن يرسل التنهدات الطويلة. ومن يدري كم من الناس لا يغشون الحديقة تجنباً لهذه الحسرة الذي يجدونها في تنهدهم.. لو كانت لي. لقد كتب على الأشياء العامة ألا تكون ملكاً لأحد. وكانت في كل خطوة، يافطة معلقة على عمود: ممنوع الدخول إلى الأحواض، ممنوع إتلاف الشجر، ممنوع قطف الأزهار.

ومعنى ذلك أنهم لا يملكون إلا النظر والتجول. إن معنى التملك أن تقول أنا، لا (نحن)، وفي هذا المكان لا يستطيع أحد أن يقول أنا، إلا البستاني، الذي هو صاحبها بحق. ويتقاضى مرتباً على ذلك، وله فيها بيت ومكانة وهو يبيع لحسابه الخاص الأزهار التي للجميع وليست لأحد.

وانسابت نغمة رقيقة، أعادت إلى الدكتور ذكرى فترة بديعة قضاها في الريف، في كوخ ضائع بين الأشجار. أشجار الريف الطلق المنشرح لقربه من البحر!.. لقد كان طفلاً حينذاك. طفلاً صغيراً مولعاً بصيد العصافير. كم قتل من عصافير مسكينة!

المرارة والذعر والمتاعب، التي ترهقه بها مهنة الطب، كلها قد استقرت وخمدت في نفسه، ولكن الأسى بأنه قد أتم الأربعين منذ أشهر لم يخمد في نفسه!. إن أجمل أيام الحياة قد انتهت، دون أن يقتنع بأنه قد استمتع بهذا الشباب الذاهب. وهل في الحياة ما يمتع؟ بلى.. في إمكان الحياة أن تكون جميلة. صباح مشرق هادئ كهذا، لهو مكافأة طيبة لكثير من الإرهاق والعناء.

وتوقف الدكتور، بعد أن لمعت في ذهنه فكرة. هي أن يعود إلى البيت لكي يصطحب زوجته الصغيرة. التي تزوجها منذ سبعة أشهر –حتى تستمتع بهذه الجولة الرائعة، وأخذته الحيرة ثم استمر في طريقه في هدوء.

لا... إن هذه الروعة له وحده. وربما كانت من نصيب زوجته، لو أنها جاءت وحدها دون دعوة منه. فإذا اجتمعنا فإن الروعة ستضمحل بالنسبة للاثنين. وها هي الروعة التي كان يحسها قد زالت بمجرد التفكير في اصطحابها.. إن مرارة الكآبة التي تغلب عليها منذ لحظات قد عادت ترهقه الآن. لا لأن في زوجته ما يثير ضحكه. إنها طيبة القلب. مسكينة. ولكنها في الثانية والعشرين أي أنها تصغره بثماني عشرة سنة. إن الشيب قد بدأ يلمع في صدغيه ولحيته. تزوج منذ سبعة أشهر، وكان يأمل أن يتحول الإعجاب الحنون الذي أظهرته له خلال فترة الخطوبة إلى حب. بيسر وسهولة. حسبها أن تعلم، رغم هذا الشيب الذي في صدغيه، أنه مدله في حبها كالشاب الصغير. ذلك لأنه لم يحب غيرها من النساء من قبل.

أوهام.. إن الحب الصحيح لم يولد بعد في زوجته ولن يولد أبداً. إنه يشعر بذلك. إنها تضحك له. وتظهر له بمختلف الطرق أنها تحترمه. ولكنها تفعل ذلك بحكم الواجب.

ولم يكن الأسف الذي يحسه، شديد المرارة، لو لم تخنقه مماحكة بينه وبين نفسه، عاقته عن إطالة التفكير في زوجته الشابة.

حين كانت زوجته فتاة، كانت تحب بحرارة الثامنة عشرة، طالباً في الليسيه. مات في التيفوس. إنه يعرف ذلك. لأنه استدعي إلى معالجة الشاب. ويعرف أنها كانت هناك، تكاد تجن من الألم وأنها أغلقت على

نفسها حجرة مظلمة أسابيع طويلة دون أن ترى أحداً، وأنها لم تخرج بعد ذلك من المنزل، وأنها عزمت على أن تترهب. وقد تألمت المدينة بأسرها لهذا الحب العارم، بين شابين، يمزقه الموت. فقد كان الشاب محبوباً من الجميع لحيويته، وذكائه، ومعاملته اللطيفة، ومسلكه المهذب الراقي. أما هي فقد كانت بحق أجمل فتاة في البلد.

وبعد أن انقضى عام على وفاة الشاب. أرغمها أهلها على أن تحضر حفلات المجتمع، فكان منظرها ووقارها وملامح الحزن على وجهها وابتسامتها، تلقى في قلوب الجميع، وبخاصة الشباب، إعجاباً حاراً وحناناً ناعماً. وأصبح حلم كل شاب أن تقع في هواه، وأن يخرجها عن ذلك الألم القاتل إلى الحياة والحب والشباب.

ولكنها أصرت على حزنها، وبعد قليل أخذت الألسن تتناول هذا العناد، وتهمس بخبث أنه ليس بعناد، فقد أصبحت تستشعر لذة في هذا الحزن، عندما تحققت أنه يحببها إلى الجميع، ويحيطها بإطار من التواضع والحشمة. والهامسون بذلك، ربما كانوا يعبرون عن حقد دفين أو غيرة قاتلة. فالدليل على أنها لم ترد من وراء ذلك أن يزداد تعلق الناس بها رفضها عدداً من الخاطبين الذين تقدموا لطلب يدها. وهم من خيرة شباب البلد.

ومر عامان على وقوع الكارثة. ولم يتقدم أحد لخطبتها، بعدما شاع في الناس خبر رفضها، ولكن الدكتور تقدم لخطبتها على الرغم من نصائح أصدقائه، فقبلت في الحال.

وما كادت تمضي المفاجأة الأولى حتى وجد الجميع تفسيراً لهذا النصر. لقد قبلت الزواج به لأن الدكتور ليس شاباً، فلا أحد يتوهم بعد

ذلك أنها قد تزوجته عن حب. عن حب صحيح. لقد قبلت لأنها واثقة من أنه لا ينتظر حباً كالذي يمكن أن يذخر لأي شاب. وأنه سيرضى بهذه العاطفة الممتزجة بالإعجاب والعرفان والعبادة.

وتلك حقيقة لم يبطئ هو الآخر في فهمها. لقد تألم كثيراً ولا يزال يعاني ذلك الألم الذي يدفعه إلى محاولة التغلب على نفسه، لكي تتجنب القطيعة تارة وحتى لا يخونه الألم القاتل الذي يشعر به تارة أخرى..

إنه عذاب مؤلم، أن يشعر بشباب القلب دون أن يحدثها عن مشاعره أو يظهرها لها حتى لا يفقد إعجابها وشكرها واعترافها. ومن أجل ذلك فقط سعى إلى أن يكبح كل خفقة من خفقات هذا الحب الذي كان الأول والأخير في حياته.

امرأة واحدة كانت تراه شاباً، بل طفلاً. إنها أمه التي ماتت منذ ثلاث سنوات، وفي صحبتها.. نعم.. في صحبتها كان من الممكن أن يستشعر روعة ذلك الصباح الجميل، وكان من الممكن أن يهرع إلى البيت دون أن يطيل التفكير، لكي يصطحب تلك القديسة العجوز. حتى تستمتع بشمس الصباح. كان يجدها كلما عاد إلى البيت في إحدى الزوايا، وبيدها سبحتها تصلي من أجل المرضى الذين في رعاية ابنها.

وما كادت ترتسم في ذهنه هذه الصورة حتى ابتسم ابتسامة حزينة، وهز رأسه، وكان يأخذ طريقه إلى أعلى الحديقة حيث تقوم تلك المقصورة. إن أمه بصلاتها من أجل المرضى الذين في رعايته لا تثق في طبه وبراعته، وقد سألها مرة في مداعبة، فأجابت بأنها لا تصلي لذلك، ولكنها تصلي حتى يعينه الله على إنقاذ مرضاه.

- إذاً أنت تعتقدين أنني دون مساعدة الله...

فقاطعته..

- ماذا تقول؟ إن معونة الله مطلوبة دائماً يا بني.

وكانت تصلي من الصباح إلى المساء، حتى أصبح يود من أعماقه ألا يكون له عدد كبير من المرضى كي لا يتعب شفتي والدته. وعاد إلى الابتسام.. إن ذكرى أمه أعادت إلى أفكاره ذلك الإطار الضبابي من الأحلام. فعادت إليه الدهشة والانشراح، ولكن البستاني، الذي كان يقتلع بعض الحشائش، قطع عليه هذه البهجة.

- آه.. أنت هنا يا دكتور.. أبحثت عني طويلاً؟

- لا أبحث، وفي الحقيقة..

- إنها جاهزة.. إنها جميلة وجاهزة منذ الساعة الثامنة.

وتقدم نحوه، وقد وضع قبعته في يده وكان العرق يتلألأ فوق جبهته.

- إذا أردت مشاهدتها، فهي هنا في المقصورة.. لنذهب حالاً.

- أشاهد ماذا؟.. أنا لا أعرف...

- كيف لا تعرف سيدي الدكتور.. إنه الإكليل؟

- الإكليل؟

وحدق فيه البستاني، في شيء كثير من الدهشة.

- معذرة، أليس تاريخ اليوم ١٢؟

- طيب، وماذا في ذلك؟

- ألم ترسل الخادمة أول أمس. طالباً إعداد إكليل؟

- أنا؟ ليوم ١٢؟.. آه نعم -وتظاهر الدكتور بأنه تذكر- نعم لقد أرسلتها، وأرسلت الخادمة.

- ورد وبنفسج.. ألا تذكر؟ وعاد البستاني إلى الضحك من ضعف ذاكرة الطبيب! -إنها جاهزة منذ الثامنة صباحاً. تعال نرها.

ومن حسن الحظ أن البستاني تقدم الدكتور، وبذلك لم يلاحظ التغير الذي بدا على وجه الدكتور الذي كان يتبعه بعيون حزينة تبدو عليها الدهشة وفم فاغر ويدين مفتوحتين.

إكليل؟.. أأمرت زوجته في الخفاء بهذا الإكليل؟ أجل، إن يوم ١٢ هو يوم الذكرى السنوية لوفاة ذلك الشاب. حتى بعد ثلاث سنوات لاتزال تذكره؟ حتى بعد أن أصبحت زوجته؟ تبعث في الخفاء إكليلاً.. إنها زوجة آخر.. أهذه المحتشمة المتواضعة تتجاسر وتتجرأ فتفعل ذلك.. فهي إذاً تحبه حباً عميقاً؟ وذكراه لا تزال حية في قلبها؟.. لماذا تزوجت غيره إذاً؟ إذا كان قلبها لذلك الشاب، وسيبقى لذلك الشاب.. لماذا؟ لماذا؟

هكذا كان الدكتور يهذي بينه وبين نفسه، مقتفياً البستاني. إنه يريد رؤية هذا الإكليل حتى يتأكد بنفسه أن زوجته قادرة على هذا الخداع وعلى مثل هذه الخيانة.

وعندما رأى الإكليل في تلك الزاوية من المقصورة وقد استند على الحائط، بدا كأنما قد أعدّ من أجله. ولذلك فقد أخذ يتأمله طويلاً. وقد فسر البستاني هذا الإعجاب لمصلحته متسائلاً:

- جميلة؟ إنها من بنفسج وورد.. قطفت عند الفجر. إن مئة ليرة قليلة فيها يا سيدي الدكتور. لا شك في أنك تقدر التعب الذي عانيته في تربيتها وتنسيقها زهرة زهرة.. والورود؟ إنها غالية في الشتاء لندرتها.. وغالية في فصلها لأن الجميع يطلبونها.. مئة ليرة قليلة، أرى أن تعطيني عشرين أخرى على الأقل.

وحاول الدكتور أن يتكلم.. ولكنه أحس بما يشبه العي فابتسم ابتسامة شاحبة.

- أنا ؟.. أدفع ثمنها ؟ أجل.. إن مئة ليرة لقليلة في هذا الورد والبنفسج.. إليك مئة وعشرين ليرة..

فأخذ البستاني النقود، وأجاب على الفور:

- شكراً سيدي الدكتور.. تيقن أنها تستحق هذا الثمن.

فقاطعه الدكتور بعد أن وضع محفظته في جيبه..

- احتفظ بها هنا، ولا تعطها للخادمة.. سأعود وآخذها بنفسي.

وخرج من المقصورة، وأخذ طريقه إلى الباب، ولكنه توقف حين أحس أنه وحيد، بعد عن أعين الناس، وشعر برجفة ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة.

- لقد دفعت ثمنها.. أنا ؟!

ما الذي يجب أن يفعل الآن؟ هل يأخذ زوجته إلى بيت والدها دون أن يلحق بها أذى؟ إنها تستحق ذلك. وهناك تستطيع أن تبكي حبيبها الشاب، بعيداً عنه، دون أن تسرق حب هذا الرجل الشهم الذي كان يجب عليها أن تحترمه، على الأقل.

لا حب ولا احترام؟ أجل، لقد رفضت الشبان وارتضت الزواج بعجوز مثله لأنها تدرك أن الحب شيء لا يطلبه، لقد ذهب زمن الحب بالنسبة إليه. ولن يحلم بالحصول عليه بعد أن أخذت الشعرات البيض تلمع في رأسه ولحيته. وكان من الممكن أن يغض الطرف عن حزنها القديم دون أن يتألم، لو لم تعمد إلى إرسال هذا الإكليل في الخفاء. ربما رأت أنه غير لائق بها كزوجة أن تذهب بنفسها لتأمر بهذا الإكليل، فاكتفت بإرسال

الخادمة، راجية منها أن تضع الإكليل على قبر حبيبها الشاب تعبيراً عن الحب الذي تحمله له. ومع ذلك فإن هذا العمل غير لائق مهما كان العمر متقدماً بزوجها.

آه.. كم كان الموت جائزاً في القضاء على ذلك الشاب. فلو أنه عاش، وامتدت به الحياة حتى أصبح رجلاً ناضجاً خبيراً بتجارب الأيام، ثم تزوج هذه الفتاة، لفهمت أن هناك فرقاً بعيداً بين الحب الذي يبدأ في النافذة، في الثامنة عشرة، وبين الحياة اليومية الغارقة في الواقع المر، حين تنطفئ تلك الشرارات الأولى وتتخذ الحياة شكلها الرتيب الممل ويسيطر عليها الخمول والإعياء، تتوالى المشكلات التي ترهق الزوج الشاب وتلاحقه بالقلق والسأم. وحينئذ يبدأ التفكير في خيانتها! كم يتمنى أن تكون قد اجتازت مع هذا الشاب تجربة قصيرة.. وحينئذ يكون هذا العجوز..

وشدد قبضة يده، حتى كادت أظافره تغوص في راحته، ثم نظر إلى يديه المرتجفتين وتنهد عميقاً. ثم خمدت حدة المفاجأة على نفسه، فوقف يحدق فيما حوله حتى إذا أبصر كرسياً يقع غير بعيد منه، قصده وجلس. ومضى في تفكيره، أليس من حق هذا العجوز أن يسلك مسلك الأشرار من الشباب ويواجهها بخيانتها ثم يعاقبها على ذلك؟ لماذا لا يعمد إلى التشهير بها، ولكن ذلك سوف يثير دهشة الذين استغربوا قبولها الزواج منه. وسوف يتساءلون.. من أجل ماذا كانت الفضيحة؟ أبسبب إكليل على قبر ميت؟ لقد كانت ترسل إكليلاً في مثل هذا اليوم من كل عام؟ إن البستاني الجديد لا يعرف ذلك. ومن الطبيعي أن تحتفل بذكراه حتى هذا العام، إذ لم يستطع الدكتور أن ينسيها أو يقتلع من

نفسها جذور ذلك الحب الذي تحمله للشاب. ولم تصبر هي على مقاومة الرغبة في إرسال هذا الإكليل. نعم لقد اجترحت إساءة كبرى بإقدامها على هذا العمل. ولكن العاطفة لا تعقل. والموضوع كله، يتعلق بميت..

هذا ما سيقوله الجميع.

ما الذي يجب أن يفعله إذاً؟ أيترك الأمر يأخذ مجراه؟ أيتظاهر أنه لا يعرف شيئاً؟ أيعود إلى البستاني ليطلب منه تسليم الإكليل إلى الخادمة، بعد أن أراد الاحتفاظ به هناك، دليلاً على خيانتها؟ لا.. لا.. وإلا لوجب عليه أن يسترجع الثمن الذي دفعه موصياً إياه بالصمت. ماذا؟ أيذهب إلى بيته ليطلب منها إيضاحات باطلة. يواجهها بخيانتها ثم يعاقبها؟

إن العمل الذي أقدمت عليه شديد على نفسه، موجع لها، ولكن أشد منه إيلاماً لقلبه المطعون، سخرية الناس به حين يعلمون بالحادث الذي سيؤكد لهم الاحترام القليل الذي يظفر به من زوجته. يجب أن يتغلب على قلبه ويقنعه بأنه لا يزال يحس بالشباب على الرغم من لغط الناس بشيخوخته. إن الشاب قادر على إعلان الفضائح. أما هو الشيخ المتهدم، فلا يقدر على ذلك، يجب أن يترفع عن هذا المسلك ويرغم زوجته على احترامه.

ثم نهض في هدوء، ولكن في هيئة من يشكو الإعياء والارتخاء في المفاصل. وكانت طيور الحديقة تتابع تغريدها. آه.. أين الإعجاب الذي كان يتملك نفسه قبل لحظات؟

وغادر الحديقة، متوجهاً إلى البيت، وما كاد يصل إلى الباب حتى ودع هدوءه. وكان يتنفس في ضيق كأنه جواد متعب. وهو لا يدري كيف

استطاع صعود السلم بساقيه المرتعشتين. إن رؤية زوجته الآن ستثيره، فهي بلا شك ستكون حزينة وأشد حزناً منها في أيامها العادية. وربما استطاعت أن تخفي حزنها ببراعة. لقد تعودت واستسلمت للقدر. إنه يحبها، يحبها جداً ويشعر في أعماقه بأنها جديرة بأن تحب. لأنها لطيفة، بحركاتها الرشيقة الأنيقة، وعينيها العميقتين، وجهها الأسمر.

وفتحت الخادمة الباب، فأزعجته رؤيتها. إنها شريكة في هذا الخداع الذي ذهب هو ضحية له. كانت تعمل خادمة لدى أسرتها منذ سنوات بعيدة، وهي تحبها، ولعلها لم تتحدث بشيء فيما شاركت فيه، لأنها لم تقدر ولم تفهم خطورة المشاركة التي قامت بها. إنها شاهدة عامية، وهو يريد أن يظل ما عزم على فعله سراً بينه وبين زوجته.

ودخل حجرة زوجته.

وكانت هي أمام المرآة، تمشط شعرها، ومن خلال ذراعيها المرتفعتين نحو رأسها، استطاع أن يبصر وجهها في المرآة، والتقت نظراته بعينيها اللتين كانتا تعبران عن دهشتها في أن تراه في البيت في هذه الساعة التي لم يتعود العودة فيها.

قال: لقد عدت لأدعوك للخروج معي.

فابتسمت في مرارة، دون أن تنزل ذراعيها اللتين تمسكان الخصلات المهملة من شعرها الفاحم الجميل، وأجابت في دهشة: الآن؟

فآلمته تلك الابتسامة الشاحبة حتى كادت تنتزع الدموع من عينيه.

- أجل.. الآن، إن الجو بديع. فلتسرعي.. سنذهب إلى الحديقة، وقد نذهب إلى الريف. سوف نستأجر عربة.

فسألته، دون أن تدرك معنى السؤال: لماذا اخترت هذا اليوم بالذات؟

وخاف أن تفضحه نظراته، وحاول أن يحتفظ بصوته هادئاً رزيناً.

- ألا يناسبك اليوم.. سيفيدك الخروج، أسرعي.. أسرعي.. إنني أريد.

وحين هم بالخروج من الحجرة أعلن لها أنه سينتظرها في مكتبه.

وبعد قليل كانت مستعدة للخروج. إنها تطيعه دائماً. فهي طيبة تفعل كل ما يأمرها به، وكل ما يريد، ولكن قلبها فقط، هو الشيء الذي لا يستطيع أن يسيطر عليه. وقد اكتفت بأن تردد في خجل: ولماذا اليوم بالذات؟ ومع ذلك، ورغم الألم الذي تعانيه فقد أذعنت لرغبته في الخروج من أجل نزهة ريفية. وخرجا. وبعد أن قطعا شوطاً من الطريق مشياً على الأقدام مخترقين المدينة. استأجر الدكتور عربة وطلب من السائق أن يتوقف عند الحديقة العامة، حيث نزل وحده، طالباً من زوجته أن تنتظره قليلاً.

وتحكم فيها القلق والانزعاج حين طالت غيبته أكثر من ربع ساعة، ولكنها أبصرته هابطاً من البيت القائم على الهضبة يتبعه البستاني حاملاً الإكليل بين ذراعيه، وأرادت أن تتخلص، ولكنها توقفت عندما رأت نظراته تلاحقها من بعيد.

- إلى المقبرة.

هكذا أمر السائق. ثم ركب، وما كادت العربة تتحرك حتى انخرطت في البكاء، وقد غطت عينيها وفمه بمنديلها.

خاطبها في رفق: لا تبكي، لم أقل لك شيئاً في البيت، ولست أريد أن أقول لك شيئاً الآن، أرجوك ألا تبكي. لقد عرفت ذلك مصادفة، ذهبت إلى الحديقة للنزهة فأخبرني البستاني بكل شيء معتقداً أنني

أمرت بإعداد الإكليل. لا تبكي، سوف نذهب لنضعه على القبر. ألا ترين هذا الرأي؟ ولم ترفع المنديل عن عينيها حتى وصلت العربة مدخل المقبرة، حيث ساعدها على النزول ثم دخلا معاً.

- أتعرفين مكانه؟

فنفت ذلك بحركة من رأسها، فدعاها إليه ثم أخذ يبحث عن القبر. لقد كان القبر يقع في نهاية إحدى طرق المقبرة. ورفع قبعته ثم وضع الإكليل وانسحب في هدوء كأنما يريد أن يمكنها من أن تصلي وحدها من أجله. ولكنها وقفت ساكنة دون أن تجد القدرة على انتزاع المنديل عن عينيها. فلا فكرة، ولا دمعة من أجل الميت. والتفتت كالضالة تبحث عن زوجها، ودعته إليها بطريقة لم تدعه بها في يوم من الأيام وارتمت في أحضانه صارخة:

- اغفر لي.. اغفر لي.. خذني إليك.

السيد الصغير

عرف البارون راجونا من الفلاحين الذين كانوا يتوجهون كل يوم إلى المدينة، محملين بغالهم بمنتوجات الريف، أن ابنه قد أصيب بمرض خطير.

وكانوا قد نقلوا إليه من قبل خبر وفاة زوجته، ولكنه لم يكن ليهتم بها. لقد كان زواجه خطأ، وحماقة من الحماقات التي اندفع إليها استجابة إلى طموح الشباب.

كان من أبناء الفلاحين الفقراء، ولكنه استطاع بعمله أن يصيب حظاً كبيراً من الثراء وأن يشتري بأقطاعه لقب بارون فيتزوج ابنة البارون المركيز نجرللي، التي ربيت ونشأت منذ كانت صغيرة في فلورنسا، حتى أصبحت كما يقول، لا تفهم اللهجة الصقلية.

كانت شاحبة، شقراء، نحيفة. أما هو فقد كان قوياً، وثيق الكيان، أسمر البشرة، بل هو أسود كأنه إفريقي. ملامح فظة، وعيون قاسية، شفاه غليظة، وشعر كثيف فاحم جعد.

إنه الآن يحس بالفخر كلما انتسب إلى الفلاحين، بعد أن تحقق من فشل زواجه بابنة المركيز نجرللي. لم يكن كلاهما في حاجة إلى وقت كثير لكي يدركا استحالة العيش معاً، تحت سقف واحد. كانت تبكي دائماً، وكان يؤمن بأنه ليس هناك أي سبب يدعوها إلى البكاء الذي كان يضجره ويحنقه، فيرد على دموعها بالتأفف والازدراء.

وولد لهما من هذه العلاقة الفاشلة، طفل أشقر شاحب، نحيف مثل أمه. وقد أظهرت أمه، منذ الأيام الأولى غيرة عليه، حتى أنه لم يستطع أبداً أن يمسه، بل لم يستطع أن يراه تقريباً، ولذلك فقد هجر المدينة دون أن يهتم بأحد أو يقدم الأسباب إلى أحد. لقد أراد أن يفعل ما يروق له. وهو حر في أن يفعل ما يراه محققاً لراحته.

وذهب إلى الريف، مسقط رأسه، واصطحب بارتولا الفتاة الجميلة، ابنة موكله الذي مات منذ عام. فلاحة تفيض عافية، وتمور بهجة، وتمتلئ نفسها طيبة ووداعة. وقد استقبلت بارتولا حب سيدها الشاب على أنه تشريف وتعطف حقيقي!.. واستولدها ابناً، كان أسمر مثله، صلب العود، سميناً.

وهناك في الريف، وفي صحبة بارتولا، ظفر براحة لم يستطع أن يحققها مع زوجته التي كانت سعيدة بابتعاده عنها.

إن البارون يعترف بأن كل شيء بينهما قد انهار بسبب حماقة طائشة. فلم يطق أن تعامله زوجته الارستقراطية، من أعلى إلى أسفل، في تلك المرات القليلة التي كان يقصدها لزيارة ابنه. وقد أحس بدمه يختلط ويفور حين تحقق من احتقارها له. إنها لا تراه جديراً بامرأة غير بارتولا التي يعاشرها في الريف.

وصرخ فيها، حانقاً من انصرافها عنه:

- أحبك.. إنك في النهاية زوجتي.

ولكنها تمردت في شموخ واعتزاز على ذلك العنف الذي استخدمه ضدها، والذي أراد به أن يثيرها ويغيظها. وأعماه الغضب، فاندفع بأكثر من إحساس الانتقام لكرامته المهانة، وانفجر في ضحك ساخر.. قائلاً:

- تلك على كل حال.. أحسن منك مئة مرة.

ومنذ ذلك اليــوم لم يعـد إلى المدينة. ولم يعـد يهـتم بما يصله من أخبار عن مرض زوجته. أما أن يصاب ابنه بمرض، ومرض خطير، فإن الأمر يهمه كثيراً. يا له من صغير مسكين.. لم يره منذ خمس سنوات. إنه يشعر بضميره يؤنبه. إنه شيء من دمه، يحمل اسمه، اسم راجونا، وسوف يكون وريثه. ومع ذلك فإنه ينشأ في أحضان أسرة نجرللي، خالصاً لأمه التي ربما كانت تملأ وجدانه بالحقد على والده الذي لا يعرفه. إنه يتذكر، إنه كان جميلاً جداً كأنه ملاك، بشعره الذهبي، وعينيه الصافيتين السماويتين. ترى كيف حاله الآن؟ بعد خمس سنوات. إنه مريض في خطر. ماذا يكون الأمر إذا مات دون أن يعرف والده؟

كانت بارتولا في تلك الأيام، قد احتفظت بابنها بعيداً عن السيد، الذي كانت تراه حانقا غاضباً مستغرقاً في التفكير من أجل ابنه الآخر. وكانت تفهم، بطيبة قلبها وإخلاصها وصفاء سريرتها، أن السيد، لن يتقبل رؤية تانوتو مرحاً لاهياً، في تلك الأوقات. وكانت في الوقت نفسه تخشى أن يسيء إلى ذلك الطفل البريء، فيدفعه عنه كأنه كلب مزعج لجوج. وكانت هي لا تجسر إلا في القليل النادر، على سؤاله عن أخبار الطفل المريض.

كان يجيبها في قسوة وثورة:

- لا أعرف شيئاً.. لم يعودوا يخبرونني بشيء.

ولم تكن بارتولا لتتألم من هذه القسوة أو هذا الاستعلاء. كانت تبرر ذلك بشدة الألم الذي يحسه من أجل طفله. وكانت تضم يديها وترفع عينيها، متضرعة إلى السماء، تصلي من أجل ذلك الطفل الذي

ينبغي أن تعجل العذراء المقدسة بشفائه. إنها لا تطيق أن ترى سيدها يتعذب ويتألم بهذه الصورة.

وفي أحد الأيام، أحنقه توسلها إلى العذراء فصرخ فيها قائلاً:

- دعي العذراء.. إني أعرف أن موت ابني سوف يسعدك.

وفتحت بارتولا عينيها وذراعيها، مندهشة، جريحة القلب، لا تكاد تصدق أن مثل هذه الفكرة تطوف بذهن سيدها. وارتجفت قائلة:

- ماذا يا سيدي... ألا تدري بأني مستعدة لأن أهب حياة ابني من أجل هذا السيد الصغير؟

وغطت وجهها بيديها وانفجرت باكية.

كان البارون قبل لحظات من هذا الموقف، مستنداً بجبهته على زجاج الشرفة. فأبصر تانوتو يداعب الكلب في الميدان الصغير، الذي يقع أمام الفيلا. فطافت بنفسه تلك الفكرة الشريرة التي أغضبت بارتولا. وقد ندم على قسوته في إظهار تلك الفكرة. ولكن كبرياءه لم تسمح له بالاعتذار والتعبير عن ندمه، بل أحنقه بكاء بارتولا الذي تسبب فيه بظلمه وسوء ظنه.

وصرخ، رافعاً قبضتي يديه في الهواء:

- ابني لن يموت.. ينبغي ألا يموت.. لا أريده أن يموت.. أتفهمين؟

أجل، إنها تفهم، بارتولا تفهم أن ابن السيد.. الابن الحقيقي، إنما هو ذلك الآخر الذي يقيم مع أمه في المدينة. أما تانوتو فهو ابن فلاحة فقيرة. لن يهز موته السيد، بل سوف يزيح عنه كثيراً من المخاوف والآلام، ويجنبه كثيراً من المتاعب القاسية التي يتوقعها. بينما يكون الهلاك في موت ذلك السيد الصغير (لينقذه الله). إنه غني وجميل،

وقد خلق ليعيش ويستمتع بالحياة. وينبغي على الله أن يحميه ويرعاه!!

وفي غروب ذلك اليوم نفسه أسرج حصانه وسافر إلى المدينة في صحبة فارسين من فلاحيه. ووصل إلى المدينة عند الليل، ودخل دار نجرللي. فوجد المركيز قد وصل من روما. حيث يقيم هناك، مبدداً آخر أرصدته على النساء. واستقبله بالترحيب المعتاد نفسه متظاهراً بأنه لا يفهم شيئاً في الموضوع.

- أهلاً.. يا عزيزي البارون.

- احتراماتي.

قال ذلك في غضب. ونظر إلى صهره نظرة حادة، وتركه باسطاً يده؛ وحين رآه يرفع تلك اليد ليربت بها على كتفه في مودة... أضاف قائلاً..

- أرجوك.. لا تقربني.. أين ابني؟

فتنهدالمركيز، ورفع يديه إلى أطراف شنبه المدهون بالشمع، وقال:

- إنه في حالة سيئة، يا عزيزي البارون... تعال.. تعال.

فسأله البارون في حزم وصرامة:

- هل هو مع أمه في حجرة واحدة؟

فأجاب المركيز:

- لا.. لقد نقلناه إلى حجرة أخرى.. لأنه.. كما تعرف، في حاجة إلى الهواء، إلى هواء كثير. والهواء يضر بأمه. إنه مصاب بالتيفوس. يا عزيزي البارون، حتى أنني فكرت...

فقاطعه البارون راجونا في جفاء:

- أين مكانه... دلني عليه؟

لقد أصبح بعد خمسة أعوام، يحس بالغربة في بيته، ولم يعد يعرف

شيئاً، خلال التغيرات التي أدخلتها زوجته على البيت. وحين دخل حجرة الطفل المريض، وقعت عيناه أول ما وقعت، على راهبة، فاضطرب اضطراباً عنيفاً.

وقد لاحظ المركيز ذلك فأخذ يشرح له:

- لقد دعوتها أنا.. أريد أن أقول.. طالما كانت أمه لا تقدر على العناية به. فمن ترى أولى من الراهبة بالرعاية الحنون؟

وختم كلامه بابتسامة ناعمة موجهة إلى الراهبة الشابة التي خفضت بصرها تحت أجنحة غطاء رأسها الأبيض.

- أنا هنا الآن.

قال ذلك البارون، واقترب من السرير، ثم أخذ يتأمل الطفل الصغير الذي أصبح شاحباً كالشمع، وقد تحول جسده إلى هيكل عظمي لا يكسوه غير قليل من اللحم. وأخذ يهتف به: ولدي.. ولدي.. يا عزيزي يا ولدي.

كان الصغير في سريره، ينظر إليه في دهشة وذهول. إنه لا يعرف هذا الذي يدعوه بتلك الطريقة. وأدرك البارون الحيرة في نظرات الطفل، فانفجر باكياً.

- إنني أبوك يا ولدي.. أبوك.. أبوك.. أبوك الذي يحبك كثيراً.

وانحنى على السرير، وأخذ يداعب وجه الطفل الشاحب، ويقبل يديه الصغيرتين في رفق. هنا وهناك. فوق أصابعه الصغيرة ثم راحتيه، ثم ظاهر يده.. ويردد.. يا إلهي ما أشد حرارتهما.

ولازم ذلك السرير لم يتحول عنه ليلاً ولا نهاراً، مدة شهر كامل. وسرح الراهبة التي كان يتشاءم من وجودها. ورغب في أن يقوم بنفسه

بكل ما يحتاجه ابنه من رعاية. دون أن يستريح لحظة. دون أن يغمض عينيه، عدة ليال طويلة. ورفض حتى الأكل. ورفض كل مساعدة تقدم إليه من أهل البيت. ولم يستفسر عنه زوجته، ولا حاول أن يتعرف على المرض الذي تشكو منه. لم يعش في تلك الأيام إلا من أجل ولده، الذي أخذت صحته في التحسن، وشيئاً فشيئاً، بفعل تفتحه الغريزي لهذا الحب الدافئ الذي غمره به والده، في كل ما أحاطه به من ألوان العناية. حتى أصبح الطفل غير قادر على الاستغناء عن والده. كان يعانقه بشده ويداعبه بيديه الصغيرتين بينما يكاد والده يغص من تأثره بهذه العاطفة التي يظهرها ابنه نحوه.

وحين تم الانتصار على المرض نصحه الطبيب بأن ينقل ابنه إلى الريف، حتى يعجل تغيير الهواء بشفائه.

قال للأطباء:

- لقد فكرت في ذلك قبل أن تنصحوني.

وأعطى أوامره بالسفر. واستعد وتهيأ، وفكر في كل الأشياء حتى يوفر لابنه المريض كل وسائل الراحة في الريف، فلا يحوجه إلى شيء.

ولكن زوجته المريضة، ما كادت تعلم بهذه الاستعدادات للسفر، حتى خافت أن يكون زوجها قد صمم على أن ينتزع منها ابنها إلى الأبد، فثارت ثائرتها. وكان ضحية النزاع المتجدد، المركيز والدها الذي كان يسعى بين الطرفين، وينقل في أمانة رأي كل طرف في الموضوع. وقد جهد في أن يلطف الجو ليصلا إلى أحسن الحلول. ولكن البارون قطع عليه الحبل قائلاً:

- أخبر ابنتك.. إنني أنا الأب.. وإنني أنا الذي أحكم.

فحاول المركيز أن يعترض لمصلحة ابنته:

- صحيح.. أنت الأب.. ولكن.. هناك في الريف.. أقصد وضعك في الريف..

فرد عليه باللهجة المعتادة نفسها:

- قل لابنتك إني أعرف واجبي كأب.. وهذا يكفي.

وفعلاً، أمر الفلاحين القادمين من الريف، أن ينقلوا إلى بارتولا رغبته في أن تغادر الفيلا، وأن تتحول هي وابنها للسكنى في البيت القروي.

وقبل أن يسافر، اتفق مع زوجته على أن يبقى الابن معه في الأشهر الكبيرة، كما كان يسميها بلغة الفلاحين، ويقصد بها الأشهر التي تقع بين مارس وسبتمبر. أما الشتاء، أي الأشهر الصغيرة، فيقضيها في المدينة مع أمه.

وقد بدا لبرتولا أن أمر السيد عادل وطبيعي. إنها لا تستطيع أن تقيم في الفيلا إذا جاء السيد الصغير. ودون أن تفكر في الإساءة إلى سيدها كانت تشعر أنه ينبغي أن ينعم عليها، ويتعطف ويسمح لها بخدمة السيد الصغير، حيث أن امرأة أجيرة، لا يمكن أن تخدمه بما يفوق حبها وحماستها، كانت واثقة من التشرف بهذا العطف. ولذلك ظلت تعمل كالأجيرة، في تنظيف الفيلا، وإعداد الحجرة التي ينام فيها سيدها الصغير.

وأحست بذراعيها تتخاذلان، حين رأت في اليوم التالي، خادمة تهبط من العربة، وكانت تبدو كأنها سيدة، وقد مد لها البارون ابنه الملفوف في شال. ثم رأت بعد ذلك الطباخ ومساعده يهبطان من العربة.

ماذا ؟. إنه إذاً يحتفظ بها كمحظية، كعاهرة؟ حتى المطبخ؟ حتى المطبخ؟ لم يرد أن يسمح لها بأحط الخدمات؟

وترقرق الدمع في عينيها، ولكن البارون رماها بنظرة متعالية منعتها عن البكاء. فأحنت رأسها. وذهبت بقلب منفطر تبكي هناك في الحجرة التي تسكنها هي.. وتانوتو.

وبكت.. بكت كثيراً.. ثم نظرت من النافذة، فرأت ابنها واقفاً على أحد الكثبان، يحرس الدواجن ويراقبها. يا له من ولد مسكين. لقد أبعدته حتى لا يسبب المتاعب ساعة وصول السيد. ومع ذلك فإن المتاعب لم ترحم سنه الصغيرة، بل أخذت تلاحقه منذ الآن، مادامت معاملة السيد بهذه الطريقة. لقد نقل السيد ابنه إلى الريف. ربما كان معنى ذلك، أنه تصالح مع زوجته. وأنها سوف تطرد، وتعود إلى بلدها لتقيم مع أمها العجوز، أو تعمل خادمة في بعض الأماكن الأخرى. حين يكبر تانوتو يتحتم عليه أن يقدم إليها في شيخوختها قطعة الخبز.

وقررت أن تنفصل عنه في الحال. ولكنها لم تستطع أن تقترب منه في ذلك اليوم، ولا في الأيام التالية. كان منصرفاً كاملاً إلى ابنه. وأتعبها الانتظار وهي في تلك الحالة النفسية فصممت على السفر، خفية، دون أن تخبره بشيء. ولكنه فاجأها بزيارة في بيتها القروي، حين كانت تستعد للرحيل. ورآها تجمع لوازمها وقد ضمت بعضها في صرة موضوعة وسط البيت، فسألها:

- ماذا تفعلين؟

فأطرقت ثم أجابت:

- إذا أذنت لي.. فسوف أذهب.

- تذهبين؟ إلى أين؟ ماذا تقولين؟

- أذهب إلى أمي.. ماذا أفعل هنا ما دمت في غنى عني؟

وغضب البارون ونظر إليها طويلاً وقد رفع حاجبيه، وصار مظهره ينم عن القسوة والشراسة، ثم أغمض عينيه قائلاً:

- اهدئي ولا تزعجيني. من الذي طردك؟ هناك ابني. ولا يتسع وقتي للتفكير في شيء غيره.

فتجرأت بارتولا وأسرعت تجيب في حياء ظاهر:

- إذا كنت يا سيدي لا تفكر، فإنني أقسم لك بأني أنا الأخرى لا أفكر في شيء مما طاف بذهنك. وليست لدي رغبة في شيء. إنني لا أتحدث إليك من أجل هذا.. إنني إذاً قليلة الحياء.. قصدي أن أقول، إنني أستطيع أن أكون خادمة لك وللطفل الصغير. هل كتب العار على جبيني؟ أم أن يدي ليستا جديرتين بخدمته؟

انطلقت منها هذه الكلمات في حزن يذيب القلب، فلم يتمالك البارون نفسه من الرثاء لها والإشفاق عليها. وأخذ يشرح لها في لطف الأسباب الدقيقة التي جعلته يبعدها عنه. إن الطفل بحاجة إلى رعاية خاصة، ربما لا تستطيع هي أن تقدمها له.

ولكن بارتولا هزت رأسها في مرارة، وقالت:

- هل تحتاج خدمة الأطفال إلى فن؟ إنها تحتاج إلى القلب. والذي يشعر بخدمة القلب لا يفتقد إلى الفن.. ألم أقم بتربية ابني؟ إنني سوف أخدمه أكثر من ابني.. إنني سوف أحمل إليه حباً كبيراً إلى جانب الاحترام والعبادة.. وإذا كنت يا سيدي لا تصدقني ولا تراني جديرة بذلك، فلنكف عن الكلام في هذا الموضوع، إن الله يقرأ ما في قلبي، يعلم أنني غير جديرة بهذه النعمة من سيادتك. لتكن مشيئة الله.

وحاول البارون أن يغير الحديث، فأخذ يسألها عن تانوتو. فأجابت وهي تشير إلى النافذة المطلة على المزرعة:

- إنه هناك.. يراقب الدواجن. إنه يسألني دائماً عن السيد الصغير. كل مساء. عند عودته إلى البيت. وهو يكاد يذوب شوقاً إلى رؤيته، ولو من بعيد. هكذا يقول. يريد أن يحمل إليه بعض الزهور البرية، ولكنني ذكرت له أن رؤية السيد غير ممكنة لأنه مريض، وأن الزهور سوف تضر بصحته. فهدأ.

هدأ؟.. إن ابنها هناك بين الدواجن، كان ينفق أياماً كاملة في التفكير حتى يفهم كيف تضر الزهور بصحة ذلك الطفل. وكان يفكر بأن هذا الطفل لا بد أن يكون قد خلق بطريقة خاصة، ولكن كيف؟ إنه ينظر إلى الزهور، فلا يراها تؤذيه باستثناء تلك الزهور الشائكة، ولكنه لن يقوم بإهدائها إليه، بالتأكيد. بل إنه هو نفسه لا يستطيع أن يدنو منها. ترى كيف يكون ذلك الطفل.

وظل يتأمل ويبحث عن الطريقة التي يمكنه بها أن يراه، دون أن يكتشفه أحد. ولكنه لم يجد طريقة. ولم يستطع أن يقاوم رغبته. وفي أحد الأيام تخلى عن الدواجن وجاء إلى الميدان الواقع أمام الفيلا، ليرى شرفات الحجرة التي ينام فيها ذلك الطفل العجيب. كان على يقين أن أمه لا بد أن تضربه إذا اكتشفته في ذلك المكان. ولكن لا بد من إرضاء فضوله، بأي ثمن. ووقف هناك. رافعاً أنفه الصغير إلى السماء، شابكاً يديه خلف ظهره. ولبث قليلاً يتطلع إلى الشرفة حتى رأى أخيراً خلف زجاجها رأس ذلك الطفل العجيب. وأخذ يتأمله في ذهول. كان يبدو له أنه قد خلق بطريقة أخرى. ولكنه لم يعرف هذه الطريقة. وكان يفكر أنه

بحالته هذه لا بد أن تكون الزهور مضرة بصحته! حتى ذلك الطفل الصغير كان يبادله النظرات ويتطلع إليه من الشرفة.

وظهرت بعد قليل شخصية البارون، فهرب تانوتو مطلقاً رجليه للريح. وسمع عدة مرات صوت السيد يناديه، ويلح في النداء، يناديه بكلتا يديه.

ماذا يفعل؟

عاد كسير النفس هادئ الخطوات. وكان يدخل الفيلا، حين لمحته أمه هناك. فقبضت عليه من أذنه وأخذت تضربه باليد الأخرى. وكان يصرخ تحت ضرباتها ويقول:

- لقد دعاني السيد.. السيد يريدني.

- السيد؟ أين السيد؟ متى دعاك؟

- الآن.. دعاني السيد.. الآن.

كان يتقد غضباً وهو يجيب على سؤالها الأخير، ويبكي للظلم الذي نزل به أكثر من بكائه للألم الذي أحسه.

- حسناً.. تعال معي.. أريد أن أتحقق بنفسي.

فدخل الطفل وكان يمسح عينيه الدامعتين بيديه. وقد أقبل البارون لملاقاته في حجرة الاستقبال. ومعه ابنه. وسأله:

- لماذا تبكي؟

فأجابت بارتولا:

- لقد ضربته أنا.. يا له من مسكين. لم أكن أعرف أنك دعوته يا سيدي.

فانحنى البارون عليه، وأخذ يمسح شعره الفاحم الذي يشبه شعره تماماً. قائلاً:

- مسكين.. هيا.. كفى بكاء.. لتلعبا قليلاً مع بعض. كونا طيبين.

فتبادل الطفلان النظرات، وابتسما. ثم تقدم تانوتو والدموع تنساب على خده، وأخرج من جيبه بعض الزهرات، وقدمها إلى الطفل، وسأله، والغصة تنتابه من حين إلى آخر من أثر البكاء:

- هل تريدها؟ خذها إذا كانت لا تؤذيك.

فضحكت بارتولا وأمرته أن يخاطب السيد بصيغة الجمع. ولكن البارون طلب منها أن تتركهما يتصرفان في حرية.

ولكن بارتولا لم تقبل ذلك، ولامته من جديد حين سمعته يسأل الطفل:

- ما اسمك؟

فاقترح البارون إخراج ابنه المريض للمرة الأولى لكي يتمشى في الهواء الطلق. وكانت بارتولا سعيدة جداً بأن تحمله فوق ذراعيها وتنزل به السلم.

- إنه خفيف.. لا وزن له.. إنه ريشة.

وفي نهاية السلم قال البارون للطفلين:

- امسكا أيديكما، وتمشيا قليلاً تحت الشجر.

فذهب تانوتو مع رفيقه المريض. وتوجها في دهشة وفرحة الأطفال الذين يخرجون للمرة الأولى. كان تانوتو أصغر بعامين ولكنه يبدو أكبر من رفيقه بكثير. كان يرشده ويحميه. ثم أمسك بيده اليسرى ورفع اليمنى إلى كتفيه حتى يساعده على المشي.

وحين ابتعدا واطمأنا إلى عدم وجود خطر أو احتمال أن ينصت إليهما أحد سأله:

- ما اسمك؟

فأجاب:

- تانينو... مثل جدي.

فقال الطفل ضاحكاً:

- أنت مثلي إذاً.. حتى أنا اسمي تانينو مثل جدي.. هكذا قال الوكيل.. ولكني أدعى تانوتو لأنني سمين.. وأمي لا تريد أن يقال أن اسمي على اسم جدي.

فسأل تانينو دون تفكير:

- ولماذا؟

- لأني لا أعرف جدي.

فأعاد تانينو القول ضاحكاً بدوره:

- أنت مثلي إذاً.. فأنا لا أعرف جدي.

وتبادلا نظرات تنم عن العجب والاستغراب، وضحكا من هذا اللقاء، كما لو كان حادثاً عجيباً، ولكنه جميل، يستحق أن يضحك منه الإنسان طويلاً، وكثيراً.

الليلة الأولى

أربعة قمصان أربع ملاحف، أربعة مراييل، أربعة من كل شيء.. ذلك هو جهاز ابنتها. هيأته في صبر العنكبوت. وأعدته خيطاً خيطاً، يوماً بعد آخر. دون أن تسأم عرضه على جاراتها. وهي تقول:

إنها أثواب فقراء.. ولكنها نظيفة.

ومن الصندوق المصنوع من خشب الشربين، والذي يشبه التابوت بطوله وضيقه. كانت تستخرج بيديها الشاحبتين اللتين جربتا جميع أنواع المتاعب، جهاز ابنتها، وتمسك به في رفق كأنما تمسك شيئاً مقدساً. وتعرضه قطعة قطعة. الملابس، والأوشحة المطرزة ووشاح الزواج المطرز الأطراف. أما الأوشحة الثلاثة الأخرى فهي أيضاً من الصوف، ولكن من نوع متواضع.

كانت تضع جميع هذه الملابس فوق الفراش، لكي تراها الجارات. وتبتسم في ذلة وهي تكرر قولها:

- إنها جهاز فقراء.

وكانت رعشة الفرح تسري في صوتها ويديها، وهي تقول:

- لقد وجدت نفسي وحدي. وحدي مع هاتين اليدين اللتين لم أعد أشعر بهما وحدي تحت الماء. وحدي تحت الشمس. أغسل الملابس في

النهر، وفي النبع. أقشر اللوز. أجمع الزيتون من هنا وهناك، في الحقول. أعمل خادمة. وناقلة مياه. ولكن ذلك غير مهم. إن الله الذي أحصى دموعي وعرف حياتي، منحني القوة والعافية. لقد عملت كثيراً. وشقيت كثيراً. ولكنني انتصرت. والآن أستطيع أن أموت. فإذا لقيني ذلك الرجل الصالح الذي ينتظرني هناك في السماء، وسألني عن ابنتنا، فسوف أقول له: إنها في أمن ودعة، أيها المسكين. لقد تركت ابنتك في خير سابغ. ولن يصيبها أذى في الحياة. لقد تحملت أنا من أجلها كل صنوف العذاب.

- إنني أبكي من الفرح يا جاراتي فلا تأخذن عليَّ هذا البكاء.

وتمسح دموعها بطرف منديلها الأسود الذي يلف رأسها، وينعقد تحت ذقنها.

كل من رآها في ذلك اليوم، بثيابها الجديدة، وكل من أصغى إلى حديثها أحس بانطباع غريب، من هذا التغيير الذي طرأ عليها، والذي تبدو معه، كأنها ليست تلك الجارة ممانتو.

وكانت الجارات يمتدحنها. ويتسابقن في إبداء العطف وإظهار الشفقة عليها. أما ابنتها فقد عرضت في ثوب رمادي حريري. وبدت عروساً أنيقة، يحيط بعنقها منديل حريري، سماوي اللون. كانت تجلس في زاوية من زوايا الحجرة الحقيرة التي هيئت أحسن تهيئة ونظمت أجمل تنظيم في ذلك اليوم، بمناسبة هذا الحادث السعيد.

وما كادت تبصر أمها تبكي حتى انفجرت في البكاء.

وحفت بها الجارات من كل جانب. يتسابقن إلى تهدئتها والتخفيف عنها. كل بأسلوبها وطريقتها.

- أيتها المحظوظة، ما بك؟ ليس اليوم يوم بكاء. ألا تعرفين المثل الذي يقول: مئة ليرة من الحزن لا تفي دين فلس واحد؟

فقالت وهي تخفي وجهها بين يديها.

- لقد تذكرت أبي.

لقد غرق والدها منذ سبع سنوات. كان من موظفي جمارك الميناء. يخرج أحياناً في الليل لمراقبة السواحل. وقد انقلب به القارب في ليلة عاصفة، واختفى بالرجال الثلاثة الذين كانوا فيه.

مازالت ذكرى هذه الحادثة حية ماثلة في أذهان جميع رجال البحر الذي يقيمون في تلك الجهة. ومازالوا يذكرون كيف اندفعت ماراستلا مع أمها، صارختين، رافعتين أيديهما إلى رأسيهما، بين عصف الرياح، متجهتين نحو صخرة الميناء. حيث سحبت جثث الغرقى الثلاثة الذين أخرجوا بعد يومين من البحث اليائس. وبدلاً من أن تجثو أمام جثة والدها، تحجرت أمام جثة أخرى. وهي تغمغم، وقد تشابكت يداها على صدرها.

- آه يا حبيبي.. أي مصير انتهيت إليه؟

وكانت أمها، وأقارب الشاب الغريق، والناس الذين ذهبوا إلى المكان، قد ذهلوا جميعاً لهذه المفاجأة التي لم يكونوا يتوقعونها. وما كادت أم الشاب الغريق تراها على حالها ذاك، حتى أسرعت إليها تطوقها بذراعيها. وتضمها إلى صدرها في قوة وعنف، على مشهد من الجميع، كأنما تريد أن تجعلها ابنة لها. إنها لها. لأنها كانت لابنها الغريق. وأخذت تهتف:

- آه.. يا بنيتي..

ومن أجل ذلك، تبادلت الجارات نظرات ذكية، ذات معنى. وأشفقن عليها في صمت، حين سمعنها تقول أنها تفكر في والدها. إنها لا تبكي والدها. هذه الفتاة المسكينة. أو ربما كانت تبكي والدها. وتفكر في أنه لو كان حياً، لما قبل هذا الزواج، وارتضى هذه الصفقة التي تبدو لها ولأمها، في حالتها البائسة حظاً عظيماً.

ما أكثر ما قاومت الأم لكي تتغلب على عناد ابنتها وإصرارها على عدم الزواج به.

- ألا ترين. إنني عجوز، محسوبة على الموت أكثر مني على الحياة. ماذا تؤملين؟ وماذا تصنعين حين يغيب وجهي عنك؟ وتكونين وحدك بلا معين، في قارعة الطريق؟

أجل، إن الأم على حق. ولكن هناك اعتبارات أخرى، تنظر إليها ماراستلا من جانبها، ولا تستطيع أن تفهمها أمها. إن كيريكو الذين يريدون أن يزوجوها به، رجل طيب، بلا شك، وهي لا تنكر ذلك، ولكنه شيخ عجوز، مضى على ترمله أكثر من سنة، وهو يتزوج الآن بحكم الضرورة. إنه في حاجة إلى امرأة ترعى بيته وشؤونه، وتعدّ له الطعام. هذا هو السبب الذي يدفعه إلى الزواج.

وكانت الأم تجيبها قائلة:

- وماذا يهمك من ذلك؟ إن هذا يجب أن يبعث الثقة في نفسك ويزيدك اطمئناناً على مستقبلك، لأنه رجل ناضج.. تقولين إنه شيخ متهدم؟ إنه لم يتعد الأربعين. إنه لن يبخل عليك بشيء. ولن يشعرك بالفاقة والعوز. له مرتب ثابت، ووظيفة لائقة.. خمس ليرات في اليوم.. إنه لحظ عظيم.

- صحيح.. إنها وظيفة لائقة.. ووظيفة حسنة.

وهنا كانت العقبة. لقد أدركت ذلك أمها، منذ البداية، وأحست أن العقبة إنما تكمن في وظيفة كيريكو.

وفي يوم جميل من أيام مايو، دعت الأم المسكينة جاراتها إلى جولة ريفية، في ذلك المرتفع، الذي يقع بظاهر المدينة.

كان كيريكو واقفاً عند مدخل المقبرة البيضاء التي تقع بأعلى المدينة حيث ينبسط أمامها البحر، على امتداد الأفق. ويمتد خلفها الريف بمروجه وحقوله. وحين أبصر النسوة دعاهن للدخول.

- أرأيت؟ إنها حديقة كثيرة الزهور. زهور لا تذبل. والريف محيط بك من كل جانب. وإذا أطللت برأسك من الباب، رأيت البلدة كلها تحت قدميك. وبلغتك أصواتها وضجيجها. أرأيت؟ ما أجملها حجرة بيضاء نظيفة، مليئة بالهواء والانشراح. أغلقي الباب والنافذة في المساء، وأشعلي المصباح، تجدي نفسك في بيتك.. إنه بيت كغيره من البيوت.. فيمَ تفكرين؟

هكذا قالت الأم لابنتها عقب زيارة تلك المقبرة. وهبت الجارات يساعدنها على إقناع الفتاة. ويقلن لها:

- هذا شيء واضح معروف.. ثم إن الأمر لم يخرج عن حدود العادة. سترين.. إن هذا المكان لن يكون له أي تأثير مزعج لنفسك، بعد أيام قليلة. إن الموتى لا يؤذون، وإنما ينبغي الحذر من الأحياء. ثم إنك أصغرنا سناً، وسنحل في رحابك، واحدة تلو الأخرى.. هذا هو البيت الكبير. وأنت سيدته الكريمة وحارسته الأمينة.

وارتسمت هذه الزيارة، في ذلك اليوم الجميل، من شهر مايو، في ذهن ماراستلا كرؤيا باعثة على العزاء والسلوى. وكانت تستحضرها في

ساعات القلق، طوال أشهر خطبتها وخاصة إذا هبط الليل، واكتأبت نفسها خوفاً من الظلمة.

كانت تمسح دموعها، حين بدا كيريكو عند العتبة، يحمل بين يديه قرطاسين كبيرين. لقد تغيرت ملامحه حتى لينكره من يعرفه. وصاحت فيه الأم..

- يا للعذراء... ماذا فعلت بنفسك أيها القديس؟

فأجابها في ابتسامة باهتة مرتجفة ضاعت بين شفتيه العريضتين:

- أنا؟.. أجل.. حلقت لحيتي.

ولكنه لم يحلق لحيته فقط، بل كان منتوف الوجه، وبدت أخاديد غائرة في خديه، نزع شعرها بقوة، فبدا كأنه تيس هرم مسلوخ.

وسارعت أخته، دونا ليزا، وهي امرأة بدينة، حادة الطبع، شرسة، تقول:

- لقد أقنعته أنا بأن يحلق لحيته.

وحين دخلت الحجرة كادت تغلق الباب من بدانتها. وهي تحمل تحت وشاحها عدداً من زجاجات الخمر. كما كانت ترتدي ثوباً حريرياً أخضر اللون يترقرق على جسدها كما يترقرق النبع. وكان يتبعها زوجها. وهو نحيل مثل كيريكو، هادئ عبوس. وتابعت أخت العريس كلامها، وهي تنزع الوشاح عن كتفيها.

- هل أسأت صنعاً؟ يجب أن نعرف رأي العروس.. أين هي؟ انظر يا كيريكو.. ألم أقل لك.. أتبكين؟ من حقك أن تبكي يا بنيتي. لقد تأخرنا كثيراً.. ولكن الذنب ذنب كيريكو.. (أحلقها. لا أحلقها) لقد استغرق ساعتين كاملتين للوصول إلى قرار.. ألا يبدو لك الآن أكثر شباباً؟ ما كان يليق أن يظهر بتلك الشعيرات البيض، في ليلة الزفاف.

ولكن كيريكو قاطع أخته، وأخذ ينظر نظرة حزينة إلى العروس قائلاً:

- سوف أطلقها من جديد. إنها لم تفلح في إخفاء سني. إنني أبدو شيخاً في كلا الحالين.. بل هي زادتني قبحاً.

فقالت أخته حانقة:

- الرجل دائماً رجل. أيها الحمار الكبير. سواء كان قبيحاً أو جميلاً. انظر إلى ثوبك الجديد.. لقد لطخته.. يا لها من خسارة.

وأخذت تنفض عنه دقيق الحلوى التي مازالت بين ذراعيه.

لقد تأخر الوقت بهما كثيراً. وكان عليهما أولاً التوجه إلى البلدية، ثم إلى الكنيسة. وينبغي في جميع الحالات أن يتم الحفل قبل المساء. ذلك لأن كيريكو معروف بتحمسه وغيرته على عمله، وتفانيه في واجبه، ولا يطيق التأخير في القيام بواجباته. وكانت تصرفات أخته السليطة الصاخبة قد زادت من قلقه، وتركته على مثل الشوك. لا سيما بعد تناول الطعام وشرب الأنخاب. فقد صرخت فيه:

- نريد أن نسمع ألحاناً.. هل سمعتم بعرس بلا ألحان ولا غناء؟ يجب أن نرقص.. ابعثوا في طلب سيدور الأعرج. ولتحضروا القيثارات والمندولين.

كانت تصرخ بإلحاح. حتى اضطر شقيقها أن يدعوها وينتحي بها جانباً قائلاً:

- دعينا يا نيلا.. كان ينبغي أن تفهمي أنني لا أريد ضجة كبيرة.

ولكنها حملقت فيه بعينين جاحظتين، وتساءلت عن السبب، فقطب كيريكو حاجبيه، وتنهد بعمق، وقال:

- تذكري أنه لم ينقض عام على وفاة تلك المسكينة...

فقاطعته مقهقهة وهي تقول:

- أما زلت تفكر فيها حتى هذه الساعة التي تتزوج فيها بأخرى؟ يا لها من مسكينة.

فأغمض كيريكو عينيه وشحب وجهه وقال:

- إنني أتزوج مرة ثانية. ولكنني لا أريد غناء ولا رقصاً. قلبي مشغول بغير هذا الذي تريدينه. ولما تبين أن الشمس توشك على الغروب طلب من الأم أن تهيئ كل شيء للرحيل.

- أنت تعرفين أنه يجب أن أدق تحية المساء.. هناك.

وقبل أن تغادر ماراستلا البيت تعلقت بعنق أمها وأخذت تبكي من جديد. وبدا أنها لا تريد الكف عن البكاء. فما كانت تجد معنى للذهاب هناك، وحدها مع هذا الرجل.

وحاولت أمها تهدئتها قائلة:

- لا تبكي.. سنرافقك جميعاً.. لا تبكي أيتها الغبية.

ولكنها لم تكف عن البكاء. وبكت أمها هي الأخرى. وكذلك بكت الجارات.

- رحيل مرير.

والوحيدة التي لم تبك ولم تنفعل لهذا الموقف، هي أخت العريس التي زاد تضرج وجهها، والتي قالت أنها شاركت في كثير من الأعراس، وأن الدموع مثل الحلوى، لم تتخلف أبداً في الختام.

- الفتاة تبكي لفراق أمها. والأم تبكي لفراق ابنتها. هذا شيء معروف. هاتوا كأساً أخرى لتهدئة العواطف، ثم لنذهب، فإن كيريكو على عجل.

وأخذوا طريقهم متجهين إلى المقبرة وبدا الموكب كأنه جنازة. وكان الناس الذين يتوقفون في الطريق أو يطلون من النوافذ لا يخفون أسفهم وتنهداتهم.

- يا لها من عروس مسكينة.

وهناك. في الفسحة الصغيرة أمام المدخل توقف المدعوون قليلاً قبل أن يستأذنوا في العودة. وقد أوصوا ماراستيلا بالصبر والشجاعة.

كان الشمس تميل إلى الغروب والسماء في حمرة اللهيب، وكان البحر يبدو كالآتون في احمراره. ويرتفع من البلدة التي تقع عند السفح، ضجيج لا ينقطع غير واضح كأنه هرج بعيد. وكانت تموجات هذه الأصوات تتلاشى عند ذلك الجدار الأبيض الذي يحيط بتلك المقبرة الضائعة الغارقة في صمت كئيب.

وكانت دقات الناقوس، تحية للعذراء، مؤذنة للمدعوين بالانصراف وقد بدا حائط المقبرة أشد بياضاً حين كانوا يصغون إلى دقات الناقوس. ربما نشأ ذلك عن الظلام الذي أخذ يخيم على المقبرة. كان ينبغي أن يعودوا بسرعة حتى لا يصلوا إلى البلدة في ساعة متأخرة. فاستأذنوا مهنئين العروس متمنين لها السعادة والرفاهية.

وبقيت مع ماراستيلا الذاهلة الحاقدة، أمها وصديقتان من أخلص الصديقات. وقد استحال السحاب إلى لون الدخان بعدما كان في لون اللهيب.

ودعا كيريكو الذي كان يقف عند البوابة السيدات للدخول. ولكن الأم أشارت إليه بأن يتمهل ويسكت. فقد كانت ماراستيلا تبكي وتستحلف أمها أن تعود بها إلى البلدة وترجعها إلى البيت، وكانت تلح في الرجاء، تهمس بذلك في صوت خفيض مرتجف، مزق فؤاد أمها التي

أدركت أن خوفها إنما كان بسبب المدخل الذي أطلت منه على منظر المقبرة والصلبان الكثيرة التي تخيم عليها ظلال المساء.

وذهب كريكو إلى حجرته الصغيرة التي تقع إلى يسار المدخل. وأوقد المصباح وألقى نظرة حوله لكي يتأكد أن كل شيء على مايرام، ولكنه لبث متردداً يسائل نفسه، أيذهب إلى العروس أم يتركها لأمها تقنعها بالدخول؟ إنه يفهم آلامها ويتجاوب معها ويدرك أن شخصيته الحزينة المسنة القبيحة لا يمكن أن توحي إليها عاطفة ولا ثقة، وكان ذلك يؤلمه ويملأ قلبه لوعة.

في مساء اليوم السابق كان قد جثا على ركبتيه، وأخذ يبكي كالطفل أمام صليب صغير في تلك المقبرة. كان يستأذن زوجته الأولى. فهو لن يفكر فيها بعد الآن. إنه سوف يكون مخلصاً لهذه الصغيرة، سوف يكون أباً وزوجاً معاً. إلا أن عنايته بهذه الزوجة الجديدة ينبغي أن تدفعه إلى إهمال واجباته التي يقوم بها منذ أكثر من ثلاثين عاماً، في حب وإجلال، نحو أولئك الأصدقاء والمجهولين الذين يرقدون هناك، في حمايته. لقد وعد جميع الصلبان في تلك الجولة المسائية التي قام بها في اليوم السابق من زواجه وأقسم أن يظل وفياً لواجباته.

وأخيراً أمكن إقناع مارا بالدخول. وأغلقت الأم الباب بسرعة، كأنما تريد أن تعزل ابنتها عن الرعب الذي يجثم خلف الباب ويوحي به المكان. وقد ألقى منظر الأشياء المألوفة في الحجرة بعض الطمأنينة في نفس مارا. ودعتها أمها إلى خلع وشاحها وهي تؤكد لها أنها الآن في بيتها.

وأضاف كيريكو في خجل واستحياء وفي ابتسامة حزينة مليئة بالعطف والحنان.

- أنت الآن سيدة البيت.

وأرادت أمها أن تشجعه فقالت لها.

- ألا تسمعين ما يقول؟

- إنك سيدتي. وسيدة كل شيء. هذا شيء ينبغي أن تعرفيه. سوف تجدين هنا إنساناً يحترمك ويعطف عليك ويحبك كأنك أمه. ينبغي ألا تخافي من شيء.

وأضافت الأم قائلة:

- إنها لن تخاف من شيء.. ذلك شيء واضح. هل هي طفلة حتى تخاف؟ ما معنى الخوف، إنها سوف تجد ما يشغلها عنه بالعمل، أليس كذلك؟

فأومأت مارا برأسها عدة مرات موافقة على هذا القول. وما كادت الأم والجارتان يهممن بمبارحة المكان حتى تعلقت الفتاة من جديد بعنق أمها، وحاولت الأم أن تتخلص من عناقها بحركة قوية ولكن برفق. وقدمت إليها آخر نصائحها. ودعتها إلى أن تثق في زوجها وفي الله. ثم انصرفت مع الجارتين.

ولبثت مارا قرب الباب الذي أوصدته أمها عند مبارحتها الحجرة، وهي تجهد في خنق بكائها، وهبت نسمة على الباب ففتحته قليلاً. وظلت هي على حالها دون أن تنتبه إلى الباب الذي فتح، ثم أحست به فكأنما انفتح لها فراغ عذب من الأحلام. وهبت عليها روائح الزهور وسرت إليها أصوات الجنادب من بعيد، ورفعت يديها عن عينيها، فرأت إشراقاً أقوى من إشراق الفجر، يثير السحر والذهول في كل شيء.

وأقفل كيريكو يقفل الباب. ولكنها انطوت على نفسها وانزوت بين الجدار والباب وصرخت فيه:

- من فضلك لا تقربني.

فقال وقد جرحه موقفها وآلمه اجتراؤها:

- لن أقربك.. إنني أردت إقفال الباب.

- كلا.. فلتترك الباب مفتوحاً.. إني لست خائفة.

وفي تلك السكينة التي كانت تخيم على ذلك المكان، ومن خلال فرجة الباب، كان يصل إلى الآذان، من بعيد، غناء فلاح عائد من الحقول، في ذلك الليل المقمر المنتعش المفعم برائحة العشب والزهور.

فقال كيريكو في ألم عميق:

- إذا سمحت لي بالمرور، فإني ذاهب لإقفال البوابة التي ظلت مفتوحة.

ولم تغادر ماراسيلا الزاوية التي انكمشت فيها. وذهب كيريكو متباطئاً يغلق البوابة. وحين عاد رآها تقبل عليه كأنها مجنونة.

- أين أبي؟ أريد أن أذهب إليه.

- ولم لا.. هذا مطلب وجيه. سوف أرشدك إلى مكانه. إني أقوم بجولة كل مساء قبل ذهابي إلى النوم.. هذا واجبي، ولكني لم أقم به في هذا المساء، من أجلك، فلنذهب. لسنا في حاجة إلى مصباح، يكفي مصباح السماء.

وسلكا الدروب الصغيرة المفروشة بالحصى، والمحفوفة بالأعشاب والزهور. وكانت قبور الوجهاء تلمع ببياضها الرخامي الذي ينعكس عليه نور القمر. أما قبور الفقراء فقد كانت صلبانها الحديدية سوداء، وكذلك ظلالها.

وكانت أصوات الجنادب تصل من الحقول إلى المقبرة أكثر جلاء ووضوحاً، كما كان يسمع من بعيد هدير البحر المستمر. وأشار كيريكو

إلى قبر ريفي قديم، بنيت عليه رخامة تذكارية حفرت عليها قصة الغرقى الثلاثة.

قال:

- ها هنا يرقد.

- لتبكي أنت هنا. أما أنا فذاهب أبكي هناك. إنه مكان غير بعيد.

قال ذلك بعد أن رآها تجثو باكية أمام قبر الشاب الذي كانت تحبه.

وفي السماء.. كان القمر ينظر إلى المقبرة الصغيرة. وقد شهد وحده شبحين أمام قبرين، على تلك الحصباء التي تغطي الدروب، في تلك الليلة الجميلة الساحرة من ليالي أبريل.

وانحنى كيريكو أمام قبر زوجته الأولى باكياً:

- ننزيا.. ننزيا.. ألا تسمعينني؟

الرفيقَان

كانت موضع عجب، بل موضع حسد من جميع سكان القرى المجاورة، تلك العلاقة التي قامت منذ أحد عشر عاماً، بين جيلوني وبوتشي، على استثمار المزرعة العتيقة. فلم يحدث أبداً، حتى بين الأب وابنه، أو بين الأخوين، أن تدوم الشركة بينهما على استثمار قطعة أرض، كل هذه المدة. فلنتصور كيف يكون الأمر بين غريبين. ومع ذلك فإن هذين الشريكين لم يعرفا الخلاف أو النزاع حول الأرباح أو غيرها من الأشياء، طوال أحد عشر عاماً.

لقد نشأت أسرتاهما في بيت واحد من البيوت القروية الكبيرة. وكانا يسكنان حجرتين كبيرتين أرضيتين، حيث كان المزارعون القدماء يجمعون ويدخرون المحاصيل التي تجود بها الأرض في أعوام الوفر والرخاء. لم تكن للحجرتين نوافذ، وكان يتسرب إليهما النور من البابين المفتوحين على الساحة الرحيبة المفروشة بالحصى، حيث تتوسطها فسقية، ويحيط بها جدار مسلح بسلسلة من قطع الزجاج المكسور الذي كان يتألق تحت ضوء الشمس. وكانت زرقة السماء تبدو كأنها سوداء من خلال البياض الجيري الذي يكسو الجدار.

وكانت تنبعث من جو المكان، بما فيه من دواجن وخنازير وخراف وبغال وحمير، رائحة المزارع القديمة الغنية، رغم أن حظيرة الخراف تبدو خالية،

وفي الزريبة قرب الفرن، لا يوجد سوى بغلين وحمار صغير بدلاً من البقر.

كانت تتصاعد، من الأرض التي لفحتها الشمس، روائح قديمة لأشياء كثيرة منتشرة، هنا وهناك، ومجففة منذ أعوام في الهواء الطلق. وكانت هذه الروائح تمتزج بروائح الزبل الحادة والبذور الجافة والتبن المبلل المحترق في الفرن. وكأنما كان الذباب متفشياً من هذه الموجة الراكدة من الروائح المختلطة، فكان يطوف في غير توقف. ومن بعيد، وفي الصمت المخيم على السهول، ينبعث صياح ديك متجاوباً مع صياح الديكة.

إن طنين الذباب، وصياح الديكة، وحفيف الشجر، لم تكن لتقطع سكون وهدوء الطبيعة في ذلك المكان، بل كانت تزيده روعة تبعث على الذهول. سكون لم يكدره ولم يشبه شيء غير عادي من المشاهد التي ظلت دائماً هادئة، ثابتة، رتيبة، تتساوق معها خطوات الإنسان والأعمال والثيران.

* * *

وطوال أحد عشر عاماً كانت الطبيعة، على التوالي، تستجيب لأتعاب هذين الشريكين. ولم تبخل عليهما بما يكافئ المجهود الذي بذلاه في خدمة الأرض. حتى زوجتاهما كانتا تتنافسان مع الأرض على الخصوبة. كانت رغبة الرجلين الحصول على عدد كبير من الذكور، يمكن استخدامهم في الفلاحة. فكان نصيب كل واحدة خمسة أطفال. بالتعادل. كانتا تتعاونان في فترات الحمل، في ود وعطف، دون أن تشغلا زوجيهما بالتفكير أو ترهقاهما بالمتاعب. فهما لا يجدان وقتاً يضيعانه في هذه الأشياء. وكثيراً ما كانا يعودان في الظهر للغداء، أو في المساء للعشاء، فيجدان طفلاً جديداً.

- ذكر؟

ويأتيهما الرد بهزة رأس، دون أية كلمات أخرى.

كان جيلوني صموتاً لا يكاد يتكلم تقريباً. وكان دائماً يترك لرفيقه الحديث أو التفاوض مع صاحب الأرض وتجار المدينة. كان هادئاً في قسوة، مستدير الوجه، حليقاً، لفحته الشمس فبدا عليه الاسمرار. كان يقبض على طرف أذنه، ويصغي إلى الحديث، ويزن الأجوبة، فإذا لزم الأمر قال رأيه في كلمتين، ولا شيء أكثر من ذلك.

ولكن رفيقه، بوتشي، كان إنساناً ذا حيوية، في عينيه اللامعتين الزرقاوين الشريرتين، ابتسامة دائمة. وكانت كلماته عذبة لطيفة تفصح عن ود ومحبة للناس. كان يسعى دائماً إلى تخفيف ما تثيره قسوة صديقه في نفوس المتعاملين معهما. ولكن الناس حين يقارنون بين هذا الرجل الهادئ الصامد، وبين معاملة بوتشي اللطيفة يصيبهم الارتباك وتستولي عليهم الحيرة.

كان جيلوني الشجرة الثابتة، العريقة الجذور. أما صديقه بوتشي فهو الطائر الذي يقفز متغنياً بين الغصون. ولم يستطع أحد أن يفهم ما إذا كانت الشجرة راضية وسعيدة بقفزات وغناء ذلك الطائر، فإذا تساءل أحد، أجيب.

- وماذا تقولون أنتم؟

كان جيلوني يرفع يده ثم يشد على طرف أذنه بإصبعيه السبابة والإبهام، ليشير إلى أن نصيبه السماع أما الكلام فهو مهمة صديقة ورفيقه.

إن سر الاتفاق بينهما هو في ذلك العهد الذي التزمه كل منهما بألا يتجاوز الآخر في شيء.

ولدا ونشآ في المرتفعات العالية البعيدة من جبال مونتبارتو. وكانا يتنافسان منافسة حامية، حتى اليوم الذي زوجهما فيه أبواهما ليحولا بينهما وبين السفر إلى أمريكا. مثل شباب البلدة. وكان ذلك بعد عودتهما من الخدمة العسكرية. وقربت بينهما زوجتاهما اللتان كانتا بنتي عمومة. واستبدلا المنافسة القديمة بالتعاون حتى يوفرا على نفسيهما الشقاق بعدما أصبح كل منهما مسؤولاً عن أسرة تعتمد عليه. كانا دائماً مهيأين لقبول المتاعب، وكان كل منهما يسعى لتجنيب رفيقه المتاعب الكبيرة. ويظفران في النهاية بشعور المساواة في كل شيء، والإحساس بأن كلاً منهما جدير بالآخر.

وللمرة السادسة حملت زوجة بوتشي. وقبل شهرين كان صديقه قد رزق طفلة.

وفي إحدى الأمسيات حين كانت المرأتان تشتغلان بتنظيف الصحون التي أكل فيها الأطفال، كان جيلوني يوجه نظرة حذرة محترسة إلى أرداف زوجة صديقه، التي يمكن أن تخل بتوازن الكفتين المتساويتين حتى ذلك الوقت.

* * *

وأخيراً، وقبل انبلاج الفجر، داهمت الحبلى آلام المخاض. فهرع بوتشي يدق باب صديقه، وجاءت امرأته في الحال لمساعدتها. وخرج الرفيقان، تحت السماء المحلاة بالنجوم يحملان فأسيهما على كتفيهما، قاصدين الساحل.

لم تمض ساعة حتى خيل لجيلوني أنه يسمع نداء ابنه الأكبر. كان بوتشي يعمل غير بعيد منه، وقد ترامى إليه هو الآخر هذا النداء. قال:

- ألا يبدو أنهم ينادونك؟

- يبدو ذلك؟

وصرخ بأعلى صوته، وقد ضم يديه إلى فمه في هيئة بوق - أوووه.

وتخلى بوتشي عن الفأس، وهرع إلى البيت، وكان رفيقه جيلوني يجري خلفه في جهد وإعياء.

وحين وصل إلى البيت وجد الاضطراب قد شمل الجميع. وقد تجمع الأطفال خلف باب حجرة بوتشي. وكانت زوجة جيلوني بشعرها المنفوش، ويديها الملطختين بالدم، تمزق قطعاً من خرق الثياب والمفارش البالية. كانت تفعل ذلك في عجلة.

وتم الوضع. وولدت ذكراً. ولكنها أصيبت بنزيف دموي مخيف. لم يستطع أحد إيقافه. فلجؤوا مسرعين إلى البلدة المجاورة للاستعانة بالطبيب.

وحين رأى بوتشي زوجته في تلك الحالة، أحس بالذهول الذي استولى عليه أكثر من إحساسه بالألم. حتى أن رفيقه دفعه دفعاً للخروج، ورفعه إلى ظهر البغل، وسلمه اللجام صارخاً فيه.

- أسرع... أسرع.

فأغضبه هذا العنف، وشحب وجهه وأجابه دون أ ن يتحرك.

- وماذا إذا لم أرغب في الذهاب؟

- اذهب بحق الإله... هل أنت جاد فيما تقول؟

ودفع البغل بيديه من الخلف، ثم ركله.

وبعد ثلاث ساعات عاد بصحبة الطبيب. وما كاد يدخل البيت ويبصر رفيقه وزوجته والأطفال، وقد لفهم جميعاً صمت عميق، حتى فهم أن كل شيء قد انتهى.

لقد تصور ذلك. وكان يتوقع هذا المشهد عند عودته مع الطبيب. وتملكه الغضب والحنق، ولمعت عيناه بالجنون، ونزل عن ظهر البغل وتوقف أمام عتبة الحجرة متأملاً الحاضرين قائلاً:

- ما أجملكم جميعاً.

وكانت زوجته ممتدة على السرير، أشد جموداً وبياضاً من الرخام، وكأنما لم تبق فيها قطرة من الدم. فتأملها قليلاً، لم يذكر أنه رآها بمثل هذا الطول والامتداد والبياض. لم يعرفها أبداً. إنها تكاد تكون غريبة عنه. ثم اجتاز العتبة وسألها في لهجة تفيض بالمرارة والحزن.

- ماذا فعلت؟

ودخل جيلوني بهدوء وصمت إلى الحجرة برفقة الطبيب وزوجته. ثم رفع يده ووضعها على كتف صديقه، عزاء له في محنته. ولكن بوتشي انسحب في حركة وحشية قائلاً:

- لا تقربني.

وخرج إلى ساحة البيت. وأقبل عليه أطفاله، وتجمعوا حوله يبكون. فانحنى عليهم وضمهم بين ذراعيه كما تضم الحزمة. قال:

- ماذا تفعلون هنا... أنتم مازلتم أحياء!

فقال جيلوني الذي كان واقفاً فوق عتبة الحجرة:

- لا تفكر في أولادك. إن زوجتي سوف تحسب أن لها اثني عشر طفلاً بدلاً من ستة. وسوف ترضع صغيرك وتعتني بك كما تعتني بي.

فرماه بوتشي، الذي كان ينحني على أطفاله بنظرة لامعة كأنها شفرة سكين. لقد بدا له أن شريكه يريد أن يدوسه بكرمه في هذه اللحظة التي سقط فيها تحت ظلم القدر. ودون أن يرى الميتة ويلقي عليها النظرة

الأخيرة، أبعدِ أطفاله عنه، وهرب، ذهب إلى الحقل، وامتد تحت شجرة خروب بعيدة، كأنه وحش أصيب بجرح مميت. لم يلق عليها نظرة وداع كأنما أرادت في ذلك اليوم أن تصيبه بالصغار والاحتقار والإعدام.

وأقام هناك في الحقل يومين، وفي مساء الليلة الثانية، ترامى إلى أذنه نداء صديقه يأتيه من بعيد، ثم أخذ يقترب قليلاً قليلاً في تلك الدروب الريفية، ثم سمع خطواته وخطوات أخرى ربما كانت خطوات الأطفال. فأمسك أنفاسه حتى ابتعدت الخطوات، وخفتت الأصوات، وحين اطمأن إلى أنه لم يكتشف رفع عينيه ونظر من خلال الشجر، فرأى القمر ثابتاً، وأحس أنه ينظر إليه، وشعر في ضميره بمزيد من العواطف المضطربة بين الدهشة والاحتقار. وفكر في أن يصعد إلى الدار. لا شك أن جثمان زوجته قد نقل الآن. إن شريكه كان يبحث عنه ليريه كيف تعلق الطفل الرضيع بثدي زوجته، وكيف تقوم بوظيفة الأم لبقية الأطفال اليتامى.

إنه إحسان.. ثم ينتهي كل شيء، بالعشاء في المساء، تحت ضوء المصباح، ثم ليلة طيبة يا صديقي نحن نذهب لننام. ثم يغلق الحجرة عليه، وعلى زوجته وجميع أفراد عائلته، بينما يبقى هو في الخارج وحده. بلا رفيق، وبأطفاله اليتامى. لا. يا إلهي هذه المتعة لن يتيحها لمنافسه القديم، وصعد عند الفجر إلى الدار. وكان في هيئة المجنون بنظراته الزائغة وشعره المنفوش. وأيقظ أطفاله، وأمر الكبار منهم أن يساعدوه على جمع لوازمهم، ووضعها على البغل. وحين ترامت هذه الحركة إلى صديقه، خرج من حجرته ووقف لحظة يتأمل رفيقه. ثم سأله:

- ماذا تفعل؟

وكان منحنياً يربط صرة الملابس، ثم استوى واقفاً، وغرس نظراته في عيني رفيقه قائلاً:

- إنني ذاهب.

- أين تذهب.. هل أنت مجنون؟

فلم يجب وواصل انحناءه، يربط الصرة.

- ولكن لماذا تذهب؟ إني أعرف الألم الذي تعانيه لفقد زوجتك.. إنه ألم لن يرفعه عنك أحد. ولكن يمكنك أن تجد هنا.. أنت وأطفالك..

فوقف مرة أخرى ووضع إصبعه على فم رفيقه قائلاً:

- اسكت.. إني ذاهب.

- ولكن لماذا؟

- من أجل لا شيء.. إنني ذاهب.. هكذا على قدمي.

- ودون أن نتحاسب.

- سوف نتحاسب فيما بعد.. ولكنني الآن ذاهب.

وحين وضع لوازمه فوق البغل والحمار -وهما من نصيبه- قال لشريكه:

- اذهب واحضر لي الطفل الصغير.

فضم يديه قائلاً:

- حقاً.. هل جننت؟ إنه يرضع امرأتي.. هل تريده أن يموت؟

- فليمت.. ينبغي أن أذهب.

فأسرح لإحضار الطفل، ثم قدمه إليه، وهو معرض عنه قائلاً:

- خذ.. لا أريد أن أراك بعد اليوم.

- أنت؟ لا تريد أن تراني؟.. وتصور ماذا يكون الأمر بالنسبة لي!

ودفع الحمار والبغل، وتوجه بأطفاله الخمسة، وفوق ذراعه الطفل الرضيع، وقد سالت على فمه الرطب قطرة من الحليب...

الطائِر المحشو قشاً

باستثناء الأب الذي مات في الخمسين بالتهاب في الرئة، فإن جميع أفراد العائلة، الأم والإخوة والأخوات والأخوال والخالات، ماتوا بمرض السل، في ريعان الشباب، الواحد تلو الآخر.

موكب رائع من النعوش.

لم يصمد لهذه المعركة إلا ماركو وهانيبال. وكان يبدو واضحاً أنهما أخذا على نفسيهما عهداً بأن لا يدعا لهذا المرض الذي أفنى أسرتهما، فرصة التغلب أو الانتصار عليهما.

كان كل واحد منهما يراقب الآخر مراقبة دقيقة بنفس حذرة متشددة. ويتابعان في دقة ونظام جميع تعليمات الأطباء. وينفذانها ويتقيدان بها. لا في طريقة استعمال الدواء، وأنواع الأكل، وأنواع التقوية المختلفة التي تؤخذ أقراصاً أو جرعات، بل حتى فيما يتعلق بالثيات التي ترتدى حسب الفصول، وحسب التغيرات البسيطة للطقس، وساعات النوم واليقظة، والجولات التي يجب القيام بها، والمتع الخفيفة الأخرى التي كان لها طعم العلاج الموصوف من الطبيب.

وكانا يؤملان وهما يلتزمان هذه الطريقة، أن يتفوقا على هذا المرض، ويدركا في صحة موفورة... أولاً.. ماركو، ثم هانيبال الحد الأعلى للعمر الذي بلغه جميع الأقارب، باستثناء الأب الذي مات بمرض آخر.

وحين بلغا هذه السن التي عملا من أجلها، خيل إليهما، أنهما قد كسبا معركة كبيرة. وكان من المحقق أن تزيد هذه الانتصارات والمكاسب، لو لم يركب هانيبال رأسه. فأخذ يخفف من القيود التي فرضها على نفسه. وبدأ يمعن تدريجياً في تجاوز تلك الحدود.

وقد حاول ماركو، بما لديه من سلطة عليه، بحكم أنه أكبر منه بعامين أو ثلاثة، أن يثنيه عن نيته، ويدعوه إلى التزام النظام الذي اتفقا عليه. ولكن هانيبال لم يهتم به. ومضى في طريقه. وكأنما استخف بالموت حين رآه يبعد عنه في السن الذي انتزع فيها جميع أفراد العائلة.

كانا يتشابهان في القامة القصيرة، والأنف الأفطس، والجبهة الضيقة، والعيون الحول، والشوارب الكثة. وعلى الرغم من أن هانيبال أصغر من شقيقه، إلا أنه أوثق كياناً وتركيباً. وكانت له بطن ظاهرة، يفخر بها. كما كان صدره عريضاً. وقد زينت له المقارنة بينه وبين شقيقه الهزيل النحيف الذي يستمتع بصحة طيبة أن يلقي نفسه إلى التجربة الجديدة التي يقدم عليها غير متردد.

وتخلى ماركو عن دعواته ولومه وتوبيخاته، بعد أن اطمأن إلى أنه قد أدّى واجب الإخوة كما يمليه عليه ضميره. ولزم موقف المتفرج، ودون أن يخاطر، وفي نيته أن يعرف أثر المخالفات التي يرتكبها هذا الأحمق، على صحته. فإذا لم يصبه أي أذى، ربما تسامح هو الآخر وأقبل على التجربة.

ما أعظم الرعب الذي استولى على نفسه، حين جاءه هانيبال في أحد الأيام وأخبره بأنه عاشق، وأنه صمم على الزواج.

يا له من غبي.. أيتزوج وذلك الخطر مسلط عليه.. أيتزوج؟ وبمن؟ بالموت؟ بحق الإله، إنها لجريمة أن تضع للعالم أولاداً تكتب لهم التعاسة

في الحياة ومن هي تلك المجنونة التي تقدم نفسها لمثل هذه الجريمة؟

وثار هانيبال وغضب، وأفهم أخاه، أنه لن يسمح له مطلقاً، أن يستعمل هذه التعابير في الحديث عن تلك التي ستغدو زوجته عما قريب. وقال إنه يفضل أن يفقدالحياة، إذا كان شرط الاحتفاظ بها ألا يعيشها وألا يستمتع بمباهجها. وماذا يهم إذا تأخر الموت أو تقدم قليلاً أو كثيراً؟ لقد ملَّ هذه الحياة، وينبغي أن يضع حداً لهذا الملل.

ولبث شقيقه الأكبر ينظر إليه في شفقة ورثاء وحنان. وهو يهز رأسه من حين إلى آخر.

يا له من أحمق.. يعيش.. لا يعيش. كأنما هذه هي المشكلة. ينبغي ألا نموت. لا خوفاً من الموت، ولكن لأن الموت ظلم وحشي فادح، يتمرد عليه جميع كيانه. لا من أجل نفسه فقط، ولكن من أجل جميع أقاربه الذين سقطوا وذهبوا ضحية له. إنه بعناده هذا، وثباته وقيامه على النظام، إنما يريد أن ينتقم.

وأحس أنه غضب واستشاط أكثر من اللزوم. فأسف على ذلك وندم، وخاف أن تمضي به الثورة حتى تكون خطراً على صحته، فسكت. وعاهد نفسه ألا يعود لمثل هذه الانفعالات المؤثرة على الصحة. إذا كان يريد أن يتزوج فليتزوج. هو حر. وليفعل ما يروق له. سوف يظل وحده، يحدق في وجه الموت. دون أن يجتذبه خداع الحياة أو مباهجها.

غير أنه لا بد من شروط واتفاقات واضحة. إذا كان يريد الاستمرار في الإقامة معه، فلا ضجة، ولا إزعاج ولا مضايقات. أما إذا أراد أن يتزوج فعليه أن يخرج. لأنه هو الأكبر، وهو عميد الأسرة والبيت من نصيبه هو. أما الباقي من الميراث فيقسم بالتساوي.. حتى أثاث الدار.

وله أن يحمل ما يريد، ولكن على مهل، وفي هدوء، وفي أدب وذوق. ودون أن يثير الغبار، لأنه يريد أن يحافظ على صحته، ويرعاها ويحميها.

ليأخذ كل شيء. هذه الخزانة، وذلك الصندوق، والمقعد، والمرآة، والمغسلة والستائر. أجل حتى الستائر. وكذلك المائدة ليستعملها جميع أطفاله. حتى الخزانة الزجاجية بما فيها من رياش ثمينة. حسبه أن يترك له حجرته، بمقاعدها وأرائكها المكسوة بالجلد الصناعي. تلك المقاعد التي يحبها. أما الرفوف الغاصة بالكتب فهو يريدها لنفسه.

- حتى هذه؟

سأله هانيبال ضاحكاً. وأشار إلى طائر محشو بالقش. غبرت عليه سنوات كثيرة. وهو ثابت فوق قاعدة خشبية. وقد بهت ريشه. فلم يعد أحد يستطيع أن يميزه، ولا أن يرده إلى نوعه من الطيور.

- حتى هذا الطائر أريده. بكل ذلك القش المحشو به.. ما الذي يضحكك؟ إنه تذكار عزيز للأسرة. دعه مكانه.

ولم يشأ أن يقول أنه يتفاءل بهذا الطائر الذي أحسنت الأسرة حفظه. وأن مظهر القدم الذي يلوح عليه يمنحه راحة وعزاء، كلما تأمل فيه.

وحين تزوج هانيبال لم يشاركه ماركو أفراح الزواج.

مرة واحدة. بطريق المصادفة، توجه إلى بيت العروس. ولكنه لم يوجه إليها كلمة تهنئة ولا تبريك. كانت زيارة باردة استغرقت خمس دقائق. وقد أقسم بعدها ألا يذهب لبيت شقيقه أبداً. لا بعد عودته من شهر العسل ولا في أية مناسبة أخرى. إنه كلما فكر في هذا الزواج دهمه ألم قاتل، وشعر برجفة تسري إلى ساقيه. ولم يكن لينتهي عجبه

واستغرابه من هذا المصير الذي اختاره شقيقه. وكان يردد، وهو يذرع الحجرة الفسيحة المفعمة بروائح الأدوية.

- يا له من خراب.. يا له من جنون.

يردد ذلك وعيناه تحدقان في الفراغ، وهو يلمس بيديه من حين إلى آخر، الأثاث الذي أبقاه له.

- يا له من خراب.. يا له من جنون.

كانا يعيشان في وئام وصفاء. وكانا يرعيان بعضهما. ويتناجيان. ويترافقان في طريق الحياة. والآن؟ إنه وحده في ذلك البيت القديم. وحده كالنفس المعذبة.

ولكن دع عنك هذه الأفكار. يجب ألا يداخلك اليأس. وينبغي أن تبعد نفسك عن التفكير في ذلك المخلوق الجامد. في ذلك المجنون الأحمق. إنه يعرف كيف يدبر أموره.

ثم يصفر صفيراً خافتاً، أو يدق بأصابعه على زجاج النافذة، أو يتأمل أشجار الحديقة التي جردها الخريف من أوراقها. فإذا رأى ذبابة ميتة على زجاج النافذة، ابتعد وقد امتلأت نفسه رعباً.

ومرت أشهر عديدة. وانقضى ما يقرب من عام على زواج أخيه.

كان ذلك في عيد الميلاد. حين أخذت تصل إلى أذنيه، وهو في البيت، أنغام موسيقية، وألحان وغناء جماعي تختلط فيه أصوات الرجال والنساء والأطفال. وكانوا كلهم قد تجمعوا لإيقاد المشاعل أمام أيقونة مقدسة.

وفي الساعة التي اعتاد أن يتوجه فيها إلى النوم. سمع جرس البيت يقرع بشدة. إنه هانيبال وزوجته للينا. أقبلا يزورانه. وقد امتلأت

جوانحهما بهجة وفرحة ومرحاً. حتى ظنهما قد أفرطا في الشراب.

إنها زيارة قصيرة للتهنئة بعيد الميلاد. وهما لا يريدانه أن يتأخر بسببهما عن موعد النوم. ألا يستطيع فتح نافذة صغيرة لتجديد الهواء ولو دقيقة واحدة؟

وطوال ذلك الوقت، أو طوال تلك الدقائق العشر، كانت للينا تقفز من مكان إلى آخر، ولا تتوقف عن الكلام، والسؤال والتعليق على كل ما تراه. وتستأذنه في أن يسمح بفتح النافذة، لتجديد الهواء، ولو دقيقة واحدة. وتقلب كل شيء. ولقد عجبت من ضخامة ذلك الطائر المحشو بالقش، وأعجبها ميزان الأدوية، وتساءلت عن الخادمة.

وظل ماركو ذاهلاً أمام هذه الحركات، وهذا النشاط الذي تبديه زوجة أخيه. حتى لكأنه فوجئ بعاصفة هوجاء هبت عليه، لا لتقتلع بيته الصامد، بل حتى روحه.

وحين غادرا البيت، لبث يفكر وهو يحك جبهته بكلتا يديه. ولم يستطع أن يخرج من تفكيره بقرار.

أهذا ممكن؟

لقد كان على يقين كامل، بأن شقيقه لا بد أن ينهار وتتحطم صحته، بعد أسبوع واحد من زواجه، وأنه سوف يتساقط قطعة قطعة. بينما هو أمامه الآن في صحة رائعة وحالة حسنة، والسعادة تملأ أعطافه.

إذاً، هل يفهم من ذلك أنه لا حاجة به هو الآخر إلى هذه الأدوية الخانقة التي ينبغي أن يستغني عنها، كما يستغني عن تلك الرقابة المخيفة التي يفرضها على نفسه؟ أيمكن أن يخرج على هذا الكابوس الذي يخنقه؟ ويرتمي في أحضان الحياة. ليعيش ويعيش. مثل ما فعل

شقيقه؟ ألم يذكر له شقيقه وهو يبتسم، أنه لم يعد يتقيد بقاعدة. ولا يسير وفق أية نصيحة طبية. لقد ألقى بكل شيء إلى الشيطان. الأدوية والأطباء.

ماذا لو جربت؟

وفكر في ذلك. وللمرة الأولى. توجه إلى زيارة شقيقه الذي استقبله في فرح زائد. وقد ظل ماركو ذاهلاً مندهشاً من حرارة الاستقبال، لحظات طويلة. وكان يغمض عينيه ويرد للينا كلما حاولت أن تطوق عنقه. يا لها من شيطانة محبوبة. إن للينا شيطانة لطيفة. متدفقة الحيوية، مفعمة بالحماسة. إنها هي الحياة.

وأرغمته إرغاماً على البقاء لتناول العشاء. وما أكثر ما أكل. وما أكثر ما شرب. ونهض منتشياً بالبهجة أكثر من نشوته بالخمر. ولكنه ما كاد يصل إلى البيت، حتى شعر بألم، وبضيق في الصدر وانقباض في المعدة، أرغمه على البقاء في الفراش بضعة أيام. وقد حاول هانيبال عبثاً أن يقنعه بأن هذا المرض إنما أصابه بسبب تردده. وتفكيره الطويل قبل الإقدام. وكان ينبغي عليه أن يقدم في شجاعة، وفي بهجة عظيمة، على هذه الفكرة.

ونظر إلى أخيه بعينين ذاهلتين وهو يردد:

- لن أفعل ذلك أبداً.. لن أعود لمثلها أبداً.

وكان يطيل التحديق إلى عيني أخيه، حتى أن هانيبال داخله الشك في معنى هذه النظرات الفاحصة. فسأله، وقد شحب وجهه، واحتضرت الابتسامة على شفتيه.

- ماذا ترى فيّ؟

يا له من شقي. إنه الموت. الموت. إنه يحمل دلالته في وجهه. وهي دلالة لا تخطئ. لقد رآها في ذلك الشحوب الذي عرا وجهه، فجأة. إن وجنتيه تلتهبان. إنهما شعلتا هذا الموت. يوقدهما حين توشك أن تنطفئ البهجة والفرحة في الحياة.

ومات هانيبال بعد ثلاثة أعوام من الزواج. وكانت الضربة القاضية في نظر ماركو. لقد توقع ذلك. وكان يعرف أن أخاه لا بد أن ينتهي هذه النهاية المؤلمة.

ولم يشأ أن يخاطر حتى بمصاحبة جثمانه إلى المقبرة. إنه يريد أن يوفر على نفسه، فضول الناس ونظراتهم التي تحمل في طياتها معاني العطف أو الحقد عليه. إنهم من ناحية يشاركونه الإحساس بالفجيعة ومن ناحية أخرى يدفعهم الفضول إلى التحديق إلى وجهه، وتسليط النظرات الفاحصة على ملامحه لاكتشاف علامات ذلك المرض الذي مات به جميع أقربائه، حتى هذا الأخير. أما هو فلن يموت. إنه وحده، من بين أسرته، سوف ينتصر على الموت. إنه الآن في الخامسة والأربعين. ويكفيه أن يبلغ الستين. ثم يموت. وهناك يكون للموت معنى آخر غير المعنى الذي كان لموت جميع أفراد الأسرة. ولا بأس حينئذ في أن يظفر الموت بمتعة القضاء عليه. فلا يهمه شيء في الحياة.

وضاعف العلاج والرقابة. وفي الوقت نفسه، حاول أن يبعد ذلك الذعر المتواصل الذي يؤلمه ويلاحقه كلما سعى إلى مراقبة نفسه. وقرر التظاهر بعدم التفكير في شيء. أجل إن بعض الكلمات تخرج من فمه، من حين إلى آخر. مثل كلمات الجو حار.. والطقس جميل. إنها كلمات كانت تسيل على لسانه دون أن يرغب فيها. إنه ينطق بها لكي يتأكد أن صوته لم يبح.

وكان يطوف بالحجرات الرحيبة الفارغة في بيته الضيق. وهو يهز خصلة من القطيفة ويصفر. ولم تستطع الخادمة التي تعمل في خدمة هذا البيت منذ أعوام، أن تزيح من ذهنها فكرة إعجاب السيد هانيبال بها. وفي رأيها أن امتناعه عن إبداء الإعجاب بها إنما كان بسبب الخجل. إنها تشعر بشبابها. وكلما رأته يدور في البيت تبتسم له وتسأله.

- هل تريد شيئاً يا سيدي؟

فينظر إليها من أعلى إلى أسفل، ثم يجيب في جفاء:

- لا أريد شيئاً.

فتقول:

- إني أعرف أنك تؤنبني لأنك تحبني.

فيصرخ في وجهها قائلاً:

- أنا لا أحب أحداً.. هل تفهمين؟ امسحي أنفك. إن الذي يتناول النشوق، ينبغي ألا يطلع الناس على بعض القطرات التي تنساب من أنفه.

ويدير لها ظهره. ثم يواصل الصفير، ويهز الخصلة، ويدور.

وفي أحد الأيام خطر لزوجة شقيقه خاطر شرير. فقررت أن تزوره. فما كاد يراها حتى صرخ فيها، وهو يضع كفيه على وجهه، لكي يتجنب رؤيتها وهي تبكي.

- أرجوك.. اذهبي. لا تخاطري مرة أخرى بالمجيء إليّ، من فضلك. هل تريدين موتي؟ أرجوك.. أستحلفك أن تذهبي. إنني لا أقدر أن أراك باكية.. لا أقدر.

لقد كانت هذه الزيارة في رأيه جناية كبرى. ماذا تظن هذه الأرملة؟

أتظنه لا يفكر في أخيه. إنه يفكر ويفكر ولكنه يتظاهر بعدم التفكير.. لأنه ينبغي ألا يفكر.

ولبث نهاره كله في أسوأ حال. وكذلك كانت ليلته التي استيقظ فيها، وأخذ يبكي بكاء طويلاً مستمراً. حاول أن يتظاهر بنسيانه في صباح اليوم التالي. كان مبتهجاً في صباح ذلك اليوم. وكان يصفر كأنه شحرور. ومن حين إلى آخر يردد: الجو حار.. يا له من طقس جميل.

وحين بدأ البياض يتسرب إلى شاربه الأسود كما تسرب إلى صدغيه، أحس بالسعادة تغمر نفسه. تلك علامة الانتصار على الموت. فقد مات أقاربه في شبابهم وكان مرضهم يقترن في ذهنه دائماً بهذه الفترة. وكلما بعد عنها أحس بالاطمئنان. إنه يرغب في أن يشيب ويصير عجوزاً. وهو يكره كل شيء ينسب إلى الشباب. يكره الحب والربيع، ويكره الربيع بصفة خاصة لأنه يعرف أن هذا الفصل هو أخطر الفصول على مرض الصدر.

وفي حنق أخرس كان ينظر إلى أشجار الحديقة وهي تخضر وتنبت البراعم.

في الربيع لا يخرج من البيت. وحين يفرغ من تناول طعام الغداء يظل جالساً أمام المائدة، وهو يلهو بأنغام الكؤوس. فإذا أسرعت إليه الخادمة كفراشة تسعى إلى النور. طردها في غلظة وقسوة.

يا لها من مسكينة. حقاً إن السيد القبيح لا يحبها. لقد تأكدت من ذلك حين مرضت مرضاً شديداً. لقد طردها لكي تموت في المستشفى. ولم يتألم إلا لأنه سيضطر إلى اختيار خادمة أخرى. لقد قضي عليه بأن يغير كثيرات في أعوام قليلة. وأخيراً لم تعجبه ولا خادمة. قرر أن يعيش وحده. وأن يقوم بكل شيء وحده. وبهذه الطريقة أضاف إلى عمره

سنتين. وحينئذ خفت وطأة الحصار الذي فرضه على نفسه. اطمأن وشعر بأنه قد بلغ الهدف من حياته. وهو الآن يستطيع أن يموت. أجل إنه مستعد للموت. إنه مرهق وقلق ومتضجر. ولم يعد يطلب شيئاً من الحياة. وأي معنى للحياة بعد أن بلغ الهدف الذي حرص عليه؟ إنها بدون ذلك الهدف إعياء وقلق وضجر.

وبدأ يعيش خارجاً على كل قاعدة. وينهض من فراشه قبل العادة. ويخرج في المساء ويغشى بعض المنتديات ويأكل كل شيء حتى أتلف معدته. وكان الناس يضايقونه بقولهم ونظراتهم التي تلاحقه، مهنئة بما يتمتع به من صحة طيبة.

وتضاعفت وطأة الضجر والقلق. وأخذ السأم يخنقه، حتى اقتنع في أحد الأيام بأنه بقي هناك شيء ينبغي أن يفعله. ولم يكن قادراً على تبين هذا الشيء. ولم يستطع أن يحدده. ولكنه شيء لا بد منه. ليتحرر من هذا الكابوس؛ ألم ينتصر؟ كلا.. إنه يشعر بأنه لم ينتصر بعد. لقد أكد له ذلك.. الطائر المحشو بالقش.

وأخذ يتأمل هذا الطائر ويقول:

- إنه قش.. قش.

ونزعه من قاعدته التي ثبت عليها. وأخذ سكيناً صغيراً. وبقر بطن الطائر وهو يقول:

- قش... إنه قش.

وتأمل في أركان الحجرة. فرأى المقاعد العتيقة المكسوة بالجلد الصناعي. وبالسكين الصغير نفسه أخذ يمزقها ويستخرج حشوها، وهو يردد بوجه كساه القلق والتضجر.

- قش.. قش.

ماذا يقصد بهذا؟

لقد ذهب إلى المكتب. وجلس أمامه وأخرج من أحد الأدراج مسدساً. وصوبه نحو صدغه. وهكذا فقط أمكنه الانتصار حقاً.

حين انتشر في البلد خبر انتحار ماركو لم يصدقه أحد. لما عرف به من حرص شديد على الحياة وإصرار على البقاء، ذلك الإصرار الذي صاحبه حتى بلغ المشيب. والذين شاهدوا الحجرة والأرائك والمقاعد الممزقة، لم يتوصلوا إلى فهم أسباب الانتحار. ولا سبب تمزيق المقاعد، واستخراج حشوها. واعتقد الجميع أنها جريمة. وأن هذه الأفعال إنما قام بها لص أو لصوص. وكانت أول من آمن بهذا الظن، السلطة النيابية التي بدأت بحثها وتحقيقاتها في الحال.

وبين الدلائل الكثيرة، كان ذلك الطائر المحشو بالقش يتصدر مكان الشرف. وكلف أحد علماء الطيور المشهورين، بتحديد الفصيلة التي ينتمي إليها هذا الطائر الذي كان يسعده أن ينير المحكمة.

في الصَّميم

حين علمت رفائيلا أن الطلبة سيعودون في صباح اليوم التالي إلى المستشفى، لمتابعة دروس الطب هرعت إلى المشرفة على القاعة، تطلب منها إدخالها إلى القاعة الكبرى حيث يتلقى الطلبة دروساً في أصول الكشف الطبي.

ونظرت إليها المشرفة نظرة شريرة، ثم قالت:

- تريدين عرض نفسك على الطلبة؟
- نعم... أرجوك.. أدخليني إلى القاعة.
- ألا تعرفين أنك تشبهين الحرباء؟
- إني أعرف ذلك. ولكن هذا غير مهم.. أدخليني.
- يا لها من وقاحة.. ما تظنينهم فاعلين بك؟
- مثل ما فعلوا بنانينا.. أليس كذلك؟

ونانينا هي زميلتها في المستشفى، تنام على السرير المجاور، وقد خرجت في اليوم السابق، وقبل أن تخرج، عرضت عليها ما فعلوه بجسدها أثناء الدرس. وكشفت لها الخطوط التي رسمت عليه والتي جعلته شبيهاً بالخارطة، إشارات فوق الرئة، والقلب، والكبد والطحال وقد رسمت هذه الإشارات بحبر ثابت لا يزول بسهولة.

لقد استعاد وجهها شيئاً من حيويته ونضارته. ولكنها لا تزال ضعيفة. فهي شعر وعينان. وعيناها جميلتان سوداوان تلمعان بنظرة حادة. وجسمها جسم صبية صغيرة يكاد لا يبدو بين ثنايا الأغطية.

كانت هناك صلة صداقة قديمة تربطها بالمشرفة وجميع الراهبات والممرضات. لقد دخلت هذا المستشفى مرتين في الماضي. كانت المرة الأولى من أجل.. آه.. يا لهن من فتيات مسكينات.. ما أسهل أن يغرر بهن، ثم تكون الضحية مخلوقاً بريئاً، ينتهي إلى ملجأ اللقطاء!

حقاً، إن رفائيلا تجرعت طويلاً مرارة تلك السقطة. وما كادت تضع وليدها حتى عادت بعد شهرين إلى المستشفى، وهي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة. وقد انقضى عليها الآن أكثر من شهر، وهي مقيمة في المستشفى تعالج فقر الدم. ولم يبق لها إلا بضعة أيام ثم تخرج من المستشفى بعد أن استعادت قوتها بفضل حقن الحديد.

كان جميع نزلاء ذلك الجناح يحبونها، ويعطفون عليها، ويعجبون بوداعتها الساحرة، وطيبتها وصبرها، وكرم أخلاقها، الذي يبدو في يأسها الصامت الكئيب، يأس لا يعبر عن نفسه بالدموع ولا بالحركات الطائشة.

كانت تبتسم، وهي تقول، بعد سقطتها الأولى.. إنه لم يبق لها شيء إلا الموت.. كانت ضحية قدر رهيب، تتساوى فيه مع الكثير من الفتيات المخدوعات. إلا أن هذا القدر الرهيب لم يغرس في نفسها إشفاقاً ولا خوفاً من ذلك المصير المظلم الذي ستنتهي إليه. إنها تعرف أن جميع المخدوعات من الفتيات يهددن بالانتحار. ولكنها لم تكن تصدقهن.

وعبثاً حاول الراهبات تهدئتها وإدخال الطمأنينة إلى نفسها وإعادة الإيمان إليها. كانت تفعل ما تفعله في كل وقت. تصغي إليهن في انتباه، وتبتسم وهي توافق على نصائحهن. غير أنه كان واضحاً، أن العقدة التي تقبض على قلبها لا يمكن أن تنحل وأن تتراخى لمجرد الإصغاء إلى تلك المواعظ.

لا يوجد شيء يدفعها إلى الإيمان بالحياة. فهي تعرف أنها كانت ضحية خداع دنيء. وأنها ذهبت ضحية لهذا الخداع، بسبب سذاجتها، وبفعل طبيعتها الملتهبة التي لم تستطع السيطرة عليها، والتي تعتبرها الآن سبب شقائها، أكثر مما تعتبر ذلك الشاب الذي استسلمت له، والذي لم يكن مقدراً لها أن تتزوج به في يوم من الأيام.

فهل تستسلم لقدرها؟ إنها لن تطيق ذلك، لن تقدر عليه. ربما كانت قصتها عادية في نظر الآخرين، وكان عذابها الأكبر أن تشاهد والدها يقتل غيلة، ثم سقوط جميع أحلامها وآمالها في الحياة سقطة حاطمة.

إنها الآن خياطة فقيرة، مخدوعة، مهملة كالكثيرات من أمثالها. ولكن يوماً سوف يأتي.. أجل إن الأخريات يقلن ذلك بالطريقة نفسها.. ولكن لا بد للظالم من يوم.. يا لهن من بائسات، إنهن يخدعن أنفسهن بهذا القول.. والخداع هو كل ما يتبقى للبائس لكي يخفف عنه بؤسه.. إلا أنها لم تكن تخدع نفسها. إنها لاتزال شابة. ومن المحقق أنها كانت تظفر بشهادة التعليم، لو لم يسقط والدها الذي كان يساعدها على إتمام الدراسة. لقد سقط قتيلاً بضربة غادرة في مدينة كالابريا. لم يكن هناك إنسان يحقد عليه. ولكن ذلك وقع في أثناء الانتخابات، عندما تصدى

له أحد المأجورين، من الحزب المعارض للبارون بارني الذي كان يعمل عنده سكرتيراً، يخصه بولائه وتحمسه.

وعندما ظفر البارون بمقعد النيابة. وعلم أن الفتاة قد أصبحت وحيدة، أراد أن يقوم بمأثرة كريمة أمام منتخبيه، فأعلن ضمها إلى أسرته.

وهكذا جاءت إلى روما في حالة غامضة. وكانوا يعاملونها كأي فرد من أفراد الأسرة. وعهد إليها بمهمة تربية الأطفال ورعاية الصغار، والقيام بوظيفة الوصيفة المرافقة للسيدة البارونة حرم السيد البارون.. وكان ذلك بلا مقابل..

كانت هي تعمل. وكان البارون يتقاضى الثناء على شهامته. ولكن هذا لم يكن شيئاً مهماً في ذلك الوقت. كانت تعمل بكل إخلاص حتى تنال رضى ذلك الرجل الذي يستضيفها. وكان في نفسها أمل خفي. هو أن تكون أعمالها المخلصة وخدماتها التي تقوم بها دون مقابل، وموت والدها في سبيل قضية البارون، كانت تأمل في أن تساعدها هذه الأعمال للتغلب على المعارضة التي قد يبديها البارون، إذا فاتحه ابنه الأكبر، بالحب الذي يحمله لها، كما عاهدها هو بذلك.

لقد كان ريكاردو على ثقة بأن والده سوف يستجيب، عن طيبة خاطر، إلى هذه الرغبة. ولكنه كان يعرف أنه في التاسعة عشرة، وأنه لايزال طالباً في المدرسة الثانوية، ولا يملك الجرأة على أن يفضي بهذه الرغبة إلى والديه، وهو يفضل الانتظار بضعة أعوام أخرى.

وانتظرت.. ولكن هل كان من الممكن أن تنتظره هناك؟ في البيت نفسه، وهو قريب منها؟ وبين الحيل الكثيرة، والوعود الخلابة.. أعماها الهوى فسقطت.

وعندما تعذر إخفاء الفضيحة طردت رافائيلا من البيت.. أجل. طردت دون شفقة ودون اعتبار لحقيقة وضعها البائس.

وكتب البارون إلى عمتها لتسرع بنقلها إلى كالابريا، واعداً بتخصيص مرتب شهري لها. ولكن العمة طلبت أن يستمهلها في روما حتى تضع حملها، وتتجنب مواجهة الفضيحة في ذلك البلد الصغير. وقبل البارون هذا الطلب بشرط ألا يعلم ابنه شيئاً عنها، وألا يشك في إقامتها خارج روما.

إلا أن رافائيلا رفضت العودة إلى كالابريا بعد أن وضعت طفلها. وهددها البارون بقطع المساعدة عنها.. وفعلاً قطعها بعد أن بلغه أنها حاولت الانتحار.

لقد سافر ريكاردو إلى فلورنسا.. وأنقذت هي بأعجوبة.. ثم تفرغت للعمل كخياطة، حتى تجد القوت لها ولعمتها.

ومر عام. وعاد ريكاردو إلى روما. ولكنها لم تحاول قط أن تراه. فإن السقطة الحاطمة التي أصيبت بها أحلامها جعلتها تصر على فكرة الانتحار البطيء. وفقدت العمة صبرها إزاء إصرار رافائيلا على فكرتها، فتركتها وعادت وحدها إلى كالابريا.

وفي أحد الأيام، أغمي عليها، في بيت الخياطة التي تعمل عندها، ونقلت من هناك إلى المستشفى وبقيت فيه تعالج فقر الدم. كانت تنام في سريرها، حين شاهدت في اليوم السابق طلبة الطب، وعرفت من بينهم ريكاردو الذي لم تره منذ عامين تقريباً. كانت تقف إلى جانبه طالبة شقراء جميلة يبدو من مظهرها أنها أجنبية. وقد تأكدت رافائيلا من حب هذه الطالبة له، اتضح لها ذلك من نظراتها الوالهة المعبرة، ومن

ابتساماتها، ومن نظراته.. لقد لبثت تتابعهما بنظرها حتى بلغا نهاية القاعة الكبرى. وحين غابا عنها ظلت تحدق بأعين مفتوحة ذاهلة، وهي متكئة على ذراعيها فوق السرير. وقد سخرت منها زميلتها المضطجعة على السرير المجاور، وسألتها..

- ماذا رأيت؟

- لا شيء.

وضحكت هي الأخرى، وارتمت فوق السرير، فقد كان قلبها يخفق، كأنما يحاول أن يطير من صدرها.

وأقبلت المشرفة تدعو، نانينا، وأمرتها بأن ترتدي لباسها، لأن الأستاذ ينتظرها في القاعة للشروع في الدرس. وتساءلت نانينا.

- وماذا سوف يفعلون بي؟

فأجابتها المشرفة:

- سوف يأكلونك؟ ماذا يفعلون بك، هذا دورك. وسيقع الدور على الأخريات، وعلى كل فأنت خارجة غداً..

وارتجفت رافائيلا خوفاً من أن يقع عليها الدور. يا لها من فجيعة. أتسقط هي وينتهي بها السقوط إلى هذا الهوان والإهمال؟ كيف تظهر أمامه هناك؟ إن مثل هذه السقطة لا توحي بالعطف ولا بالأسى، خاصة إذا زال الجمال عن صاحبتها المظلومة. إن زملاءه لا بد أن يهزؤوا به، إذا رأوها على هذا الهزال.. وسيتساءلون ويقولون: .. كيف.. هل وقعت هذه الحرباء؟

ليس هذا هو الانتقام الذي تريده.. إنها في الحقيقة لا تريد أن تنتقم.

وعندما عادت زميلتها وأخذت تقص عليها ما فعلوا بها في القاعة، وعرضت عليها الخطوط التي رسمت فوق جسدها، غيرت رافائيلا رأيها فجأة، وقررت أن تلتمس من المشرفة الموافقة على إدخالها إلى القاعة.

وها هو القلق يستبد بها الآن، وهي تتطلع بصبر نافذ منتظرة قدوم الطلبة.

وقدم الطلبة حوالي الساعة العاشرة، ومن بينهم ريكاردو الذي كان يقف إلى جانب الطالبة الأجنبية، يتبادلان النظرات والابتسامات.

وأسرعت تسأل المشرفة:

- هل أرتدي ملابسي؟

ثم جلست على حافة السرير عندما دخل الطلبة إلى القاعة، تنتظر في لهفة رد المشرفة على سؤالها.

- انتظري حتى يأمر الأستاذ.

ولكنها لم تنتظر أمر الأستاذ. بل أسرعت ترتدي ملابسها في خفة ونشاط.

كانت قد تجمّلت وتهيأت واندست تحت الأغطية. وحين دعتها المشرفة كان وجهها شاحباً شحوب الموتى، وكانت ترتجف بكل جسدها النحيل. ولكنها كانت تبتسم وكانت عيناها تلمعان بنظرة حادة. وكان شعرها ينحدر على كتفيها.

ودخلت القاعة دون أن يفطن إليها ريكاردو الذي كان يتحدث إلى فتاته. وأحست أنها ضائعة بين عدد كبير من الشباب. ولكنها ظلت تبحث عنه في لهفة حتى أنها لم تسمع نداء الطبيب وهو يدعوها قائلاً:

- هنا يا بنيتي.

والتفت ريكاردو على هذا النداء، فوقعت عيناه على رافائيلا التي كانت تحدق إليه في ذهول.

فشحب وجهه، واضطربت نظراته، ولم ينقذه من هذا الموقف إلا صراخ الأستاذ في الفتاة.

- تعالي هنا.

وأصغت إلى ضحكات الطلبة، تلك الضحكات، التي زادت في حيرتها وضياعها وارتباكها، وأبصرت ريكاردو ينسحب إلى زاوية القاعة، ويقف قرب النافذة، فنظرت حولها ثم ابتسمت ابتسامة عصبية وقالت:

- ماذا أفعل؟

وأمرها الطبيب أن تضطجع على السرير الذي يقف هو عند طرفه الآخر، ويتحلق حوله الطلبة. وأسرعت تلبي هذا الأمر، ولكنها ما كادت تحاول الصعود حتى تعذر عليها ذلك، وأخذت تضحك من جديد قائلة:

- لا أستطيع.. لا أستطيع.

وأعانها أحد الطلبة، فاعتلت السرير، وقبل أن تضطجع أخذت تتأمل الأستاذ الطبيب. كان رجلاً جميلاً، طويل القامة، حليقاً، يضع نظارات ذهبية الإطار. وقالت له وهي تشير إلى الطالبة الأجنبية.

- إنني ألتمس السماح بأن تقوم هذه الطالبة بالرسوم.

وانفجر الطلبة ضاحكين، وضحك حتى الأستاذ وسألها:

- لماذا؟ هل تخجلين من الرجال؟

- لا أخجل.. ولكنني سوف أحس بسعادة أكثر لو قامت هذه الفتاة بالتخطيط.

وألقت نظرة على النافذة التي تقع في أقصى الصالة حيث يقف ريكاردو مشيحاً عن الجميع.

وتابعت الفتاة الشقراء نظراتها دون إرادة. ولاحظت الاضطراب الفجائي الذي أصاب صديقها. وأدركت أنه انسحب عمداً، واستولى عليها الاضطراب هي الأخرى، غير أن الأستاذ ناداها قائلاً:

- تفضلي يا آنسة.. ينبغي أن نسعد المريضة.

وامتدت على السرير وهي تحدق إلى الطالبة التي رفعت القلم.. آه يا إلهي ما أجملها! إنها بيضاء ناعمة. عيناها زرقاوان.. حلوتان. حلوتان.. ها هي تنزع معطفها وتأخذ القلم الذي قدمه إليها الأستاذ، وتنحني عليها لتكشف عن صدرها، بيدين غير واثقتين.

وأغمضت رافائيلا عينيها، خجلاً من ذلك الصدر الهزيل، المعروض أمام أعين عدد كبير من الشباب. وشعرت بيد الفتاة تقع باردة على قلبها، وهي تقول بلهجة متعالية، بعد أن سحبت يدها:

- إنه يخفق كثيراً.

وسأل الأستاذ رافائيلا:

- منذ متى أنت في المستشفى؟

- منذ شهرين.. إني أكاد أشفى.

وطلب الأستاذ من الطالبة أن تتسمع أنفاسها، بعد أن قدم إليها السماعة.

وأحست ببرودة السماعة وهي على صدرها، وأصغت إلى الآنسة وهي تقول:

- تنفس عادي. خفقان زائد.

فأمرها الأستاذ بأن تبدأ في تخطيط الجسم. وحين شعرت المريضة بالوخزات الأولى من القلم، مالت برأسها، وضغطت على أسنانها، وحاولت أن تفتح عينيها، ولكن سرعان ما أغمضتهما، وهي تغالب نفسها كي تتماسك وتتجلد.

وكانت الطالبة تتوقف من حين إلى آخر عن التخطيط، لتقوم بإثبات إشارة بخنصرها المصبوغ بالحبر. كانت تتنفس بأنفها في جهد مؤلم، ولم تكن تدري مقدار الزمن الذي مضى عليها، وهي تقاسي هذا العذاب. إنها تدري أنه كان طوال الوقت يقف أمام النافذة. لماذا لا يدعوه الأستاذ؟ لماذا لا يدعوه لكي يرى موضع قلبها الذي ترسمه رفيقته الشقراء؟

وحين انتهت الطالبة من تخطيطاتها، حاولت رافائيلا أن ترى موضع قلبها ما حددته الفتاة برسومها، ولكنها لم تقدر على ذلك. ووجدت نفسها تنفر في بكاء متواصل، أغضب الدكتور، فأمر بإخراجها، طالباً من المشرفة أن تُدخل أخرى مكانها أقل هوساً وغباوة.

وتحملت رافائيلا في هدوء جميع تقريعات المشرفة، وعادت إلى سريرها، وأخذت تنتظر خروج الطلبة من القاعة.

هل بحث عنها وهو يجتاز القاعة؟ لا . إنه لم يفعل شيئاً من ذلك.. إنها لا تهمه ولا تشغله. إنه لم يرفع إليها حتى بصره، ولا يريد أن يراها أبداً. ولكن يكفي أنها نجحت في إفهامه حقيقة الحالة التي تعيش فيها، وما آلت إليه حياتها بسببه.

وبيديها المرتجفتين سحبت الغطاء، واندست تحته، وامتدت على السرير، وغطت وجهها حتى لكأنها ميتة.

ولبثت ثلاثة أيام في المستشفى، وهي تراقب رسم القلب، حتى لا يمحى من صدرها.

وحين خرجت من المستشفى، وقفت أمام مرآة صغيرة في حجرتها الفقيرة، وغرزت خنجراً صغيراً.. هناك.. في صميم الإشارة التي رسمتها غريمتها الشقراء.

الضحية

حتى سن الرابعة والعشرين، كان كرادو ترانزي، قد عرف بأنه شديد الكراهية للنساء، عنيف السخرية من الرجال الذين يصرعهم الحب. ولكنه ما كاد يتخرج، ويحصل على إجازة الطب، حتى دعي في حالة طارئة إلى معالجة مريضة.. وكان حينذاك يتحدث في صيدلية قريبة عن رحلة للصيد. فلم يكد يخرج من تلك الزيارة، حتى وقع هو الآخر صريع الهوى.

ما أكثر المزايا الفائقة، والخصال الرفيعة التي اكتشفها في تلك الفتاة الرائعة التي أقبلت تفتح له الباب. كان شعرها مهملاً مبدداً، في فوضوية محببة، وكان خصرها واهياً، غير مشدود بحزام، كانت غارقة في دموعها. لقد أدرك هو هذه المزايا، منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها. فلبث يتطلع إليها في دهشة، وينظر إلى فمها الجميل، متابعاً الكلمات التي تتزاحم، شارحة، ومتحدثة عن العمة التي وجدت في فراشها منذ ربع ساعة فاقدة وعيها.

وحين دخل حجرة المريضة، رأى قرب سريرها شاباً تأكد لديه أنه ابنها، كما كان يقف بجوار السرير رجل وامرأة، تيقن أنهما والدا الفتاة التي كانت تخفف ألم الشاب، بمداعبة شعره، في الوقت الذي كان

الطبيب يصف الداء، وكأنما أحس الطبيب غيرة من هذا المنظر، وأحنقه أن يستغرق الشاب في البكاء قرب رأس والدته المريضة، فأمره بالخروج إلى حيث يجد مكاناً فسيحاً ينثر فيه دموعه.. هواء.. هواء.. شيئاً من الهواء حول السرير.

وماتت المريضة بعد ثلاثة أيام، وخلال هذه الأيام الثلاثة استطاع كرادو أن يعرف أشياء كثيرة، عرف أن الفتاة تدعى ايبا، وأنها ابنة أستاذ العلوم الطبيعية بإحدى الكليات. وأن الفقيدة كانت قريبة لزوجته. ضمها إليه هي وابنها بعد أن ترملت منذ عدة أعوام. وعرف أن الشاب يدعى ماركو، وأنه يعمل موظفاً صغيراً في الجمارك، وأنه قدطلب يد قريبته التي رفضته في أسف بالغ، معترفة في لطف بأنه يستحيل عليها أن تتزوجه، لأنها منذ طفولتها الباكرة التي تقاسماها معاً، كانت دائماً تنظر إليه كأخ، ولن تستطيع أن تحبه، أو تعامله على غير هذه العاطفة.

وحين عرف هذه الحقائق لم يتمهل، ولم يبطئ، وقرر أن يقدم على خطبة الفتاة معتمداً في ذلك على مسابقة ستجري بعد أشهر لوظائف أطباء مساعدين في المستشفى الرئيسي بالمدينة. وكان واثقاً من النجاح في هذه المسابقة، فهو إذاً قادر على الزواج بما لديه من مال، وبما يستطيع توفيره من مهنة الطب.

واستولت الدهشة على الأستاذ، والد الفتاة، من هذه العجلة، ومن غرابة أطوار هذا الشاب الطبيب، فتردد، وطلب الإمهال بحجة مصاب الأسرة الذي لم يكن قد مضى عليه وقت طويل. ولكن كرادو، الذي كان يرى في هذا المصاب خطراً كبيراً عليه، تصلب وطلب أن يجاب بالرفض

أو القبول، فهو يخشى أن يتحول الحب الأخوي الذي تشعر به الفتاة نحو قريبها، إلى حب جارف تحت تأثير الرحمة. خاصة حين تعلم أنه يتيم، وأنه في حاجة إلى التعزية. وكانت نتيجة الموقف المتصلب الذي اتخذه الدكتور قبول الفتاة الزواج منه. وتم العرس بعد فترة قصيرة.

وكان طيشاً، وكانت حماقة غرامية، لم تدم سوى عام واحد. فقد ماتت الزوجة عقب الوضع، وفي اليوم نفسه الذي وقعت فيه الكارثة، فرّ الطبيب، كأنه مجنون، واختفى دون أن يحس أي رغبة في رؤية المولودة التي جرّت عليه هذه المصيبة بميلادها. وقد فهم بعد ذلك أنه التقى زميلاً له كان يهم بالسفر كطبيب عامل على عابرة محيط، فتنازل له عن هذه الوظيفة ثم أقام في أمريكا دون أن يخلف أثراً يدل عليه. أما الطفلة التي ماتت أمها، وتخلى عنها أبوها، فقد نشأت في رعاية جدها، وجدتها، وقد سمياها باسم أمها. وكان يبدو لهما أن ابنتهما قد عادت إلى الحياة، في تلك الطفلة التي كانت محفوفة بين أحضانهما بالرعاية حتى إذا كبرت كانت تحيط بها العناية الحافلة بالقلق وخفقات القلوب. وأخذت الطفلة تنمو، وكلما كبرت بدأت ملامحها تعبِّر عن الشبه العميق بينها وبين أمها الفقيدة. وأعادت إلى الأذهان ذكرى طفولتها اللطيفة. طفولة الفقيدة. الحركات. والبسمات. والألعاب الأولى.. كانت تعيد كل ذلك بين دهشة عجوزين يعتقدان أنهما يشاركان في بعث خارق للعادة.

وأثارت الطفلة خيال ماركو، الذي كان يرى أن الأيام تزيدها تشابهاً بأمها، التي كان يريدها لنفسه. وأخذ يحس بين الحين والآخر بإحساسات غريبة، وبعودة عجيبة، لكل الأشياء التي كان يحبها، والتي لاتزال حية في نفسه، تعيدها إلى ذهنه، نظرة من نظرات هذه الطفلة، أو ابتسامة

عذبة، أو كلمة تعبِّر عن نزوة من نزواتها الصغيرة. ولم تكن تعيد إلى نفسه، ذكريات طفولته التي قضاها مع طفلة تشبه صورة هذه الصغيرة فحسب، بل أخذت تعيد إليه العواطف والأحاسيس نفسها التي كانت تعيش فيها تلك الذكريات وتحيا عليها. هكذا كانت حياة هذه الصغيرة، إنها كأمها حين كانت صغيرة لا تستريح إلا للعب معه، وتريد -دون أن تدرك- أن تعيد معه جميع الألعاب التي كان يقوم بها مع أمها حين كانت صغيرة. وكان هو يعيد تلك الألعاب.

كان إذا عاد من الدائرة، يعمد إلى الاختفاء خلف مدخل الحجرة المظلمة، حيث توجد خزانتان قديمتان، وكانت الرائحة التي تفوح في ذلك المكان الخالي من النور والهواء، تمثل له تنفس تلك الطفلة البعيدة.

كان يصيح، مقلداً الديك، بذلك الصوت الذي كان له أيام الطفولة.. كوكو.. كوكو.. ويظل ينتظر أن تكتشفه. (تلك) التي تعيش في صورة هذه الطفلة، تكتشفه خلف المدخل بعد أن يتسلل من الباب في قلق وحيرة، وما يكاد يلمحها قريباً منه، حتى يمسك أنفاسه، ثم يترك ذلك المخبأ فجأة، هارباً منها، متجنباً أن تقبض عليه، وكان يدور حول المائدة أو يلوذ بالمقاعد، أو يتسلل من تحت المائدة، يفعل كل ذلك حتى لا تقبض عليه الطفلة التي كان يلهيها اللعب ويكسبها مظهراً من الشراسة. ولكن الآن. من أين تمسك به؟ إنها تمسكه من شاربه الذي لم ينبت حينذاك، أو تصيب نظارته التي لم تكن له في الماضي، ومثل هذا التأمل في نفسه وفي هذا الزمن السريع كان يصيبه بالغم والحزن. وكثيراً ما كانت الجدة تفاجئه، جالساً على الأرض، فتسأله عما يفعل، فيجيبها في ابتسامة باهتة: لا شيء.. ألعب مع (ايبا). وبين ذكرياته العديدة

كـان أخلد الأيام وأحيـاها في ذهنه ذلك اليـوم أو تلك السـاعـة التي استشعر فيها طعم القبلة الأولى، حين اختطفها من قريبته. لقد أحس طعمها وأحس حرارة الحب الجديد الذي يخالف كل حب عرفه من قبل، لقد ألهبته تلك القبلة، وهو ينتزعها من تلك الشفاه البريئة، حتى لكأن ناراً مقدسة أخذت تسري في عروقه. كانت في الثانية عشرة وكان هو في الخامسة عشرة، وكان ذلك اليوم من أيام الربيع وفي الساعات الأولى من الصباح الجميل، وقد فطنت هي إلى أنه أحس في تلك القبلة، طعماً جديداً فغضبت، وطلبت منه ألا يعود إلى تقبيلها، بتلك الطريقة. ولكن هذه الطفلة لا تفهم شيئاً، ولن تفهم شيئاً من ذلك، رغم أنها بلغت السن التي كانت فيه أمها كل شيء في حياته. وهي لذلك تهرع إلى استقباله، حال عودته من عمله اليومي، لتخاصره بذراعيها، وتغمره بقبلات فيها حرارة الطفولة وطيشها.

وينطوي هو على نفسه، ويغمض عينيه، ويصر على أسنانه، تحت تأثير ذلك الهوى، حتى يتخيل، بكل قوته، أن لهذه الشفاه الوردية الندية البريئة ما كان لتلك من تأثير يسري في أعصابه كالنار. إنها تمثل له شفاه تلك الفقيدة -ألا تقبلني؟ ما أغباك؟ ما بك؟

هكذا كانت تسأله، بعد أن تقبل وجهه، ثم تضحك، لماذا أنت قبيح هكذا، لماذا لا تقبلني؟ وكان يهرب ويهرع إلى المرآة يتأمل وجهه، ويأخذ في البكاء. إلا أن موت الأستاذ جد الفتاة، قد انتزع من ماركو، في عنف، أحلامه، ومن تلك النشوة التي يعيش فيها. ذلك لأن الأستاذ المدرس لم يدخل سلك التدريس إلا منذ وقت قصير، فهو لم يتم سنوات تقاعده، فأصابت زوجته من خدمته بعض آلاف الليرات، حوالي ثمانية

رصدت باسم الحفيدة ولم يبق سوى ماركو معيناً وحيداً للأسرة، وكان مسروراً بذلك من جهة، ولكنه من جهة أخرى كان يتعذب، ويتألم ألماً عميقاً، ويخشى أن تنظر إليه هذه الفتاة، نظرتها إلى إنسان غريب، أو رئيس العائلة، أو تعتبره أباً لها. وقد لاحظت العجوز عليه شيئاً من الذهول والمظاهر العجيبة، والحزن الفجائي، كما راعها هزاله، وانحراف هيئته إلى القبح، وظنت أنه عاشق، وأن موت الأستاذ قضى على كل أمل له، في أن يتزوج، لأنه مدفوع بعد موته بأن يرد لحفيدته، ما قام به الأستاذ نحوه، من عطف ورعاية في صغره. ولكن الخوف كان يغزو ماركو كلما شاهد جمال ايبا يتفتح كما تتفتح الزهرة. كان يخشى أن يتقدم آخر، وينتزعها منه، كما كانت حجتهم حينذاك الأخوّة، أما الآن فإن حجتهم ربما كانت الأبوّة. ولم يطل انتظار ذلك اليوم إذ فاجأته الجدة بخبر كانت تعتقد أنه سيكون باعثاً لسروره. فقد استلمت في ذلك الصباح رسالة من شاب يمر بالشارع كل يوم، إنه جميل كالملاك، أبيض البشرة ذو شعر طويل، إنه رسام، سيسافر إلى روما ليعمل هناك. ولم يستطع أن يتابع هذا الحديث واندفع في غضب يقول: آه.. هذا إلى روما، وذاك إلى أمريكا. ألا تكفي ضحية واحدة؟ اثنتان؟ أتريدون أن تلقوا بمخلوقتين إلى أي عابر سبيل؟... كان يقول «أتريدون» وكأنه يخاطب حتى الأستاذ الفقيد كي يثيره فيذعن للرجاء هذه المرة، ولكنه لم يستطع أن يغالب نفسه، واختلط في قلبه حبه الأول بحب هذه الفتاة الصغيرة، التي كانت بالنسبة إليه، ذكرى ذلك الحب الذي عاشه مرتين، وأفضى للعجوز بكل عواطفه، فدهشت وسعت إلى تهدئته، ذاكرة بأنها لم تكن تنتظر أن يقع في حب هذه الصغيرة. نعم، إن المبرر ربما كان

موجوداً، ولكن من العسير جداً، أن تقتنع به الفتاة التي لا تدرك شيئاً. أيقول: «أيتها العزيزة. أنت تعتقدين أنك عشت للجميع طوال هذه الأعوام، ولكنك في الحقيقة لم تعيشي إلا لكي تجددي في قلبي العواطف التي كنت أحملها لأمك».

إن الجدة لسعيدة حقاً حين تأتمنه عليها، إنها سعيدة، ولكن ايبا؟. ووعدته بالمعونة، ولكن في غير عجلة، يجب أولاً أن تعمد إلى أن تنزع من قلب الفتاة ذلك الحب الذي تحمله للرسام الشاب. ذاكرة لها أنه بحكم السن وحكم المهنة ولأسباب أخرى، لا يدع الإنسان يطمئن إليه.. ثم.. من يدري إلى أية نتيجة ستنتهي بعد ذلك؟

وكانت شهور من العذاب واليأس، بالنسبة لماركو، وكان يفكر في أن العجوز لم تستطع أن تكاشف الفتاة أو تحادثها في الموضوع. وتؤكد له العجوز أنها لم تحادثها في شيء يتصل به حتى بمجرد الإشارة، وأنه لا بد من الزمن حتى يهدأ في نفس الفتاة ما كانت تشعر به نحو ذلك الرسام الذي سافر إلى روما. أنتظر؟ وإلى متى؟

كان يرى أنه كلما مرّ الزمن ازدادت جذور ذلك الغرام تأصلاً في قلبها، كما يزداد حنينها إليه. ومن يدري؟ فقد تكون الجدة عاجزة ولا تملك القدرة على أن تفاتحها في هذا الحديث، مسكينة، إن هذا السر الذي أودعتها إياه ليرهقها وهي العجوز ويزيد من ذبولها. ولم تجد الجرأة على مفاتحتها بشيء إلا قبل أن تموت بلحظات، حين نادتها إلى فراشها وسألتها عما إذا كانت تفهم حقيقة الحالة التي ستنتهي إليها فيما بعد، وحيدة في البيت، فتاة مع رجل، ليس والدها ولا شقيقها، يكاد أن يكون شاباً هو الآخر، وليس له أي التزام نحوها، ما تكون هي بالنسبة

إليه، ابنة شقيقة جدتها. وهي بالنسبة إليه، ابنة رجل هبّ كإعصار على البيت فهدمه، إنها شجرة بلا جذور، الأم ميتة، والأب هارب. لم يبق لها من ملجأ إذاً سوى ماركو الذي ضحى من أجلهم جميعاً، فيجب أن يكافأ على هذه التضحيات، إنه طيب ويحبها، وهو سيكون لها أباً وزوجاً في الوقت نفسه، فإذا كانت تريد الاطمئنان لجدتها والراحة لها في موتها، فلتقبل الزواج منه، وليكن ردها بالإيجاب.

ولكن الدهشة والألم والفزع والخجل، كلها تجمعت لتحاصر الفتاة على أثر هذه المكاشفة التي لم تكن تحسب لها حساباً، وتعلقت بعنق جدتها، وانفجرت في بكاء متواصل، راجية ألا تتركها، ألا تموت، بل يجب ألا تموت؛ وأمسكت بها كأنها تريد أن تبعد عنها الموت، إنها تؤثر أن تموت هي، على أن تقبل هذه الفكرة. إنها لم تكن تفكر في والدها البعيد، ولم تحس نحوه بأية عاطفة، ولم تحمل له ألماً، ولا أسفاً، ولا تطلعاً، فهو بالنسبة إليها غير موجود، ولم يكن موجوداً.. ولكنه بدأ يظهر للوجود في نفسها في اليوم الذي ماتت فيه الجدة، وحين عادت من المقبرة في صحبة ماركو. كانت تسير معه، ولكنها كانت غائبة عنه، واستطاعت أن تعرف فيه شعوراً لم تستطع هي أن تتجاوب معه. وتملكها حقد وحشي عنيف على والدها الذي قذف بها إلى هذا العالم، وأهملها دون أن يراها، فما كاد يمنحها الحياة حتى حرمها معنى الوجود، لأن أمها ماتت أثناء وضعها، ولم يكن لها في هذا الموت ذنب، وكانت رؤية هذه الطفلة اليتيمة تثير فزعه وحقده، ولم يستطع مولدها أن يولد فيه الشعور بالتبعة المضاعفة أو أن يحرك في قلبه رحمة.. لقد هرب.. اختفى فزعاً، متخلياً عن كل مسؤولياته نحوها، نحو هذه الحياة التي

منحها إياها، وألقى بها إلى الشيخين المسكينين اللذين اختطف منهما ابنتهما، وترك لهما طفلة دون أن يكون عليهما واجب رعايتها وتربيتها.

كانت تجهل أن والدها قد نهب من ماركو شيئاً عزيزاً عليه، كانت تجهل أنه ألقى هذه الطفلة عليه بعد أن انتزع منه حبه لأمها..

أين هو والدها؟ ألا يزال حياً؟ ألا يفكر أنه بعد هذه الأعوام الطويلة ربما مات عنها جداها اللذان ترك لهما عبء رعايتها؟ كيف، ألا يفكر فيما حدث ويحدث لها؟ إنها وحيدة محتاجة إلى المساعدة، ولكن ربما كانت له أسرة أخرى هناك. وأولاد آخرون، شغله التفكير فيهم، عن التفكير في هذه البعيدة عنه. إنهم قريبون منه، ينعمون بعطفه ورعايته وحنانه. لقد أخمد في نفسه، كل تأنيب للضمير، حين أهمل التفكير في هذه الفتاة البعيدة، وها هي الآن يرعاها آخر.. ويريد مقابل هذه الرعاية، أن تدفع له، ما يقضي على وجودها كله، حياتها كلها. لأن والدها قد ترك له أمر العنايه بها.. وتحت تأثير هذه الأفكار العنيفة، والعواطف الصارخة، والحزن القاتل، والقلق الذي تحكم في نفسها، من أجل الاطمئنان على مستقبلها، أصيبت بمرض خطير، ألزمها الفراش، وكاد يقضي على حياتها.

وقد قام في نفسها صراع عنيف، لا هوادة فيه، بين رغبتها في الموت، وبين حب ماركو لها، ذلك الحب الذي كان ماثلاً في عنايته بها، وإشفاقه عليها، وفي استعداده دائماً للتضحية بكل شيء من أجل بقائها، ومن أجل التغلب على رغبتها في الموت. وأخيراً انتصر حب ماركو، وتحت وطأة الآلام المبرحة، ورخاوة النقاهة، قبلت أن تتزوجه، اعترافاً بالجميل، وشفقة عليه. وحين تماثلت للشفاء أحست أنها امرأة

كاملة، وأخذت تتأمل قوامها المنتعش، وجسدها الذابل الذي حكم عليه، بأن يظل إلى الأبد يجهل بهجة الحب وفرحته.

ولم تستطع أن تتخلى عن الفكرة التي تهتف في نفسها، بأن قبحه، وهزاله، وكبر سنه أشياء لا قيمة لها بالنسبة لجمالها، وأن الجزاء الذي ناله، إنما هو في الحقيقة رياء واستغلال. وأن العبادة التي يخصها بها لهي أشبه بعباد البخيل لكنزه الثمين.

وكان ماركو يجهد نفسه في العمل سعياً وراء تحسين أحواله المادية، فاشترك بعد زواجه بقليل في امتحان لاختيار ضباط للجمارك فنجح، وتقرر أن يسافر إلى روما في دورة تدريبية تكميلية في المعهد العالي للتجارة. وكان يأمل في أن يتمكن، بعد عامين، من الإقامة نهائياً في روما بوزارة المالية. وحين كانت تهم بإخلاء المنزل تمهيداً للسفر اكتشفت حزمة من الرسائل في صندوق لجدتها، كانت رسائل ذلك الرسام الشاب الذي سافر إلى روما منذ عامين. وكانت الجدة قد أخفتها وكأنما كانت تدخرها ليوم تطلع فيه ماركو عليها إذا لم يقتنع بوجوب التخلي عن فكرته في الزواج من ايبا.

وكان لهذا الاكتشاف تأثير عنيف على نفسها، فأحست بأن قلبها ينفطر وأحشاءها تتقطع. وقد تألبت على نفسها عوامل الغضب والاشمئزاز، وأثارت فيها عواطف محبوسة، وقد بدا لها ذلك واضحاً من خلال يديها الغائصتين في شعرها وعينيها المحدقتين في وحشية إلى ذلك الصندوق. كيف كانت الجدة تجسر على التأكد، بأن ذلك الفتى، ما كاد يصل روما حتى أهملها ونسيها؟ وهذه رسائله المطوية أكبر دليل على بطلان ذلك القول؟ إنه لم ينسها، إنها رسائل مفعمة بالعواطف

رسائل صارخة، باكية، متوسلة، ومع ذلك فقد صدقت جدتها. وظن فيها الشاب كل ما ظنت فيه من شر. إنه يصفها في رسالته الأخيرة بأنها غير جديرة بحبه، وأنها متعجرفة وكاذبة ولا قلب لها.

يا للفضيحة! يا للفضيحة! لقد اتفقت الجدة مع ماركو واقترفا بالاشتراك هذه الخيانة البشعة. ولكن ألم يكن من واجبها أن تدفع الثمن؟ إن التضحية بنفسها لا تكفي، وإنما يجب أن تدفع حبها ثمناً للرعاية والتربية التي وفرت لها.. آه يا إلهي ما أفظع ذلك!!

ولكنها سوف تنتقم في روما وسوف تبحث عن ذلك العشيق بأية طريقة، سوف تنتقم، ولو أدى ذلك إلى ضياعها. وفي روما، وبعد ثلاثة أشهر، في مساء شتوي، طرق الباب عجوز ناحل ذو لحية كثة، إنه الدكتور كرادو. كان واقفاً ينتظر أن يفتح له الباب. وكان رأسه منحنياً وحاجباه مقطبين وعيناه تعبران عن قلق مضن. وكانت أظافره تغوص في راحته.. وحين أقبلت الخادمة لتفتح الباب كانت رؤية البيت الذي يوشك أن يدخله، تحبس أنفاسه.. وتساءل: السنيور ماركو.. موجود؟ فتأملته الخادمة جيداً.. ثم قالت في تردد:

- لا أدري إذا كان السيد يستطيع أن يستقبلك الآن. إنه في حالة لا تسمح له بذلك.

- والسيدة؟

- حتى السيدة.. إنها... لا أدري. انتظر.. سوف أستأذن سيدي.

وتركته أمام المدخل دون أن تدعوه إلى اجتياز العتبة. ثم عادت لتقول له أن سيدها لا يستطيع أن يستقبله لأنه مريض، والسيدة هي الأخرى مريضة. فقال إنني طبيب، وأستطيع أن أعالج الاثنين.. ودخل.

فاعترضت الخادمة: ولكن سيدي...

- قولي لسيدك إن الزائر هو الدكتور كرادو.. اذهبي.

وكان ماركو مرتمياً منذ الليلة الماضية على إحدى الأرائك في الحجرة المخصصة للمكتب والاستقبال. أنفق الليل بكامله هكذا دون أن ينهض حتى للغداء في منتصف النهار، ولم يقبل أخيراً، وبعد إلحاح الخادمة، سوى فنجان من القهوة ممزوج بشيء من الليمون، ولكنه ما كاد يسمع اسم الدكتور حتى بهت.. وتباطأ في النهوض. وكان كلما نهض عاد إلى الجلوس من شدة الإعياء الذي يعانيه، فأعانته الخادمة، حتى استطاع في النهاية الوقوف على قدميه، ثم توجه إلى حجرة الاستقبال. فهتف عند رؤية الدكتور: كرادو؟! ولبثا لحظة طويلة يحدق كل منهما إلى الآخر كأنما يريدان استعراض الزمن الماضي منذ آخر لقاء، وكأنما كانا في تلك اللحظات يحاولان أن يملآ الفراغ الذي يسيطر عليهما، بذكرى الماضي، حتى يدركا مقدار التغيير الذي طرأ عليهما. وكان ماركو يعتقد أنه قد استطاع أن يقرأ في ملامح الدكتور كل ما يريده من هذا اللقاء، ألا يفكر الدكتور في أن زواجه من ابنته إنما هو انتصار عليه وانتقام منه لأنه هو قد انتزع منه أمها؟ ألا يملؤه الحقد والفزع لمجرد هذه الفكرة؟ لقد أحس أنه يغيب عن الوجود، يغوص، ولكنه وجد نفسه بين ذراعي الدكتور، وقد طوقه في إشفاق ثم سمعه يقول: أنت أصبحت هكذا؟ إنك مريض حقاً.. ما بك.. إنك تحترق... محرور.

وشعر براحة خففت آلامه تخفيفاً عذباً لم يكن يتوقعه ولا كان يأمل فيه، وأخذ يبكي ويصرخ... بينما كان الدكتور والخادمة يساعدانه ويقودانه إلى حجرته.

وهتف ماركو: لقد أرسلك الله.. لقد أرسلك الله. وكان الدكتور يساعده على الجلوس مشيراً إلى الكرسي ثم سأل:

- ما بك؟ حدّق.. حدق إلى وجهي بعيداً.. إنني قادم من بالرمو، لقد نزلت بجنوى وأسرعت إلى بالرمو. كنت أسأل وأستخبر عنكم.. أتزوجت ابنتي؟ أين هي.. أينها؟.. وكان ماركو مطرقاً، مخفياً وجهه بين كفيه، فهتف في غضب.

- كان يجب ألا أفعل ذلك.

- كان يجب ألا تفعل ذلك. هكذا كان رد الطبيب وكان رداً سريعاً وبصوت غريب ينم ظاهره على الألم والأسف واللوم ولكنه كان مبطناً بالغضب والحقد..

- كيف استطعت أن تفعل ذلك؟

- تستطيع أن تأخذها الآن... تستطيع أن تأخذها... وكان ماركو يصرخ دون أن يرفع يديه عن وجهه.. تستطيع أن تأخذها... لتذهب.. لتذهب..

ونظر الدكتور حوله ثم تساءل.

- لماذا؟ وأين هي؟

- إنها هناك.. قد أقفلت الحجرة على نفسها.. انتظر انتظر.. والتفت إلى الخادمة قائلاً:

- اذهبي وأخبري سيدتك. ثم أدخل يده في جيبه، وأخرج منها محفظة بالية واستل منها رسالة قدمها إلى الدكتور طالباً منه أن يقرأها.

- ماذا؟

اقرأ، إنها من عشيقها.. فقبض الدكتور على الرسالة قبضة شديدة

وتوجه إلى المقعد الذي يجلس فيه ماركو وكان يزمجر في غضب كالوحش المجروح:

- ولكن أنت!

وصرخ ماركو.. أنا؟ وفي قوة من الغضب والتمرد ألقى في وجه الدكتور، منافسه القديم، كل الآلام التي جرها عليه، وتحملها في صبر، وكل مظاهر الإحسان الذي قدمه، وقوبل بعد ذلك بهذه الخيانة. وأقبلت الخادمة تعلن استعداد سيدتها لاستقبال والدها.

وهتف الدكتور: ابنتي!!

وكانت هي واقفة أمام باب الحجرة التي أغلقتها على نفسها. واستقبلته بشعرها المبدد الفوضوي وخصرها الواهي وهي غارقة في دموعها. كما استقبلته أمها في ذلك الصباح الربيعي، عندما كان طبيباً ناشئاً. إنها ابنته ولكنها تستقبله، كما تستقبل أي غريب. لقد كان واضحاً في نظراتها الحاقدة، أنها لو لم تكن في تلك الحالة لما رضيت أن تستقبله، ولا أن تراه.. لقد عرف فيها أمها ولم يستطع أن يفهم كيف لم تعرفه، وهي تحمل عيني أمها..

- ألا تعانقينني.. آه يا ابنتي.. دعيني أقبل شعرك على الأقل... أنت على حق.. ولكن المصائب إنما جرها موت أمك.

- ومن الذي دفع ذلك!

قالت ذلك على الفور ونظرت إليه في برود.

- لست وحدك.. لست وحدك.. إنك لا تعرفين شيئاً. لقد أذنبت في حقك.. ولكني لا أعتقد ذلك؛ إنني حين أراك أفهم كل شيء. ونظرت إلى وجه والدها بعد هذه الكلمات وقد ارتسمت عليه علائم الدهشة والفزع. ثم أصغت إليه وهو يهمس بصوت خفيض:

- إنني أفهم لماذا تزوجك.. إنك لا تعرفين ولن تعرفي شيئاً.
ولكنها أدركت كل شيء، وأصبحت القصة واضحة في ذهنها بعد هذه الكلمات فسألته في همس:

- هل أحب أمي؟

- أجل.. أجل.

وأحس كلاهما غضباً عنيفاً، وشعر الأب بمثل ما يشعر به المخدوع الذي يستغل غيره غيبته ويخونه مع زوجته. وتملكها هي اشمئزاز من هذه الفعلة التي ذهبت ضحية لها. وتراجعا إلى الحجرة، وأقفلا الباب، وتحادثا طويلاً، وأفصح لها عن كل الآلام التي عاناها، طوال الفترة التي قضاها، هائماً على وجهه، ينهشه اليأس والحزن. لقد كان التفكير فيها في البداية شيئاً بغيضاً إلى نفسه، لأنه لم يستطع أن يفصله عن حادث وفاة والدتها. كان عمق الجرح يزيده ألماً ويحيله وحشاً طاغياً. وحين بدأ يحس شيئاً من العطف والحمة نحوها، نحو طفلته المتروكة، كان تأنيب الضمير بعيداً منه، لأنه كان واثقاً من رعاية جدتها، ولكنه كان يفكر، أنه بعد هذه الأعوام الطويلة يجب أن يسعى إليها بثروته على الأقل حتى يكفر عن ذلك الإهمال... وعاد إليها غنياً..

- ولكنك جئت متأخراً..

- نعم لقد جئت متأخراً..

وأخذت هي تشرح له الخيانة التي لم ترتكبها، وإنما ارتكبها ماركو وجدتها.. وكان والدها ممسكاً بالرسالة التي سلمها له ماركو. وسألته.. هل قرأتها؟ فأجاب:

- لا لم أقرأها.. فقالت: وأنا أيضاً لم أقرأها، يجب أن يكون هنا الدليل، على أنه لا يملك أي وجه للوم، إنني لم أخدعه، ولم أحبه، ولم

أفعل شيئاً، سوى أن أبرز هواي لهذا الشاب الذي أحبني.. وأخذت تحدثه عن حبها الساذج حين كانت تعتقد أنها حرة التصرف في قلبها، وعن تلك الرسائل التي أخفتها الجدة، واكتشافها، حين كانوا يهمون بالسفر إلى روما. وبينما كانا مستغرقين في حديثهما أقبلت الخادمة وطرقت الباب ثم أخبرتهما بأن سيدها مريض جداً، ويبدو أنه فقد القدرة على التنفس. وأسرع الدكتور ثم تساءل عما إذا كانوا قد استدعوا طبيباً آخر قبل ذلك. فأجابت الخادمة بالنفي.. ونقل المريض إلى فراشه بمساعدة الخادمة، وكان يهذي من شدة الحمى، فجرده من ثيابه، وأخذ يفحصه، ويتسمع خفقات قلبه طويلاً، ثم رئتيه، ثم ضرب ضربات خفيفة على صدره. أما ماركو فكان يعول ويصرخ في فراشه ويردد كلمات مفككة، وبعد أن انتهى الطبيب من الفحص أشار على الخادمة بأن تمدده في رفق على الفراش ثم تغطيه. وأخذ الدكتور يتمشى في الحجرة، أليس القدر، هو الذي هيأ له هذه الفرصة، منذ اللحظة الأولى لوصوله، حتى يستخدم مهارته الطبية؟ وأحس برجفة في ظهره، ومر بكفيه المرتجفتين خلال شعره ثم عض على إصبعه، ووقف يحدق إلى الفراغ، ثم وقعت عيناه على الخادمة ثم المريض. وأخيراً جلس قرب منضدة صغيرة، وضغط بيديه على رأسه. وتساءلت الخادمة: هل هو في خطر؟ وحدق فيها كأنه لا يفهم ما تقول ثم أجاب: إنه في خطر، ولكن لا علاج له الآن، اذهبي، وعند الحاجة أدعوك. ولما أصبح وحده في الحجرة نهض وأخذ يتمشى متجنباً رؤية المريض.

لقد اعتاد منذ أعوام بعيدة، أن يتحدث إلى نفسه، أحاديث مرعبة. وكان يؤمن أن نهاية هذه الأحاديث، لا يمكن أن يضعها إلا عمل متطرف

يقدم عليه.. هو الانتحار. ولكنه يشعر في نفسه باحتقار هذا العمل، كما يحس في نفسه بتلك الطاقات الحيوية المتفجرة في أعماقه وهي تصده عن الإقدام على عمل تأباه عليه إرادة الحياة. كان يتخيل الراحة التي يجدها الآخرون بعد موته، والحياة التي يخلقها لهم. ولكن العمل الذي ينوي أن يقوم به الآن غير موجه إلى نفسه، والحياة التي تبقى للآخرين لم تعد تتمثل له مجرد وراثة فرص. إن الآخرين هنا ليسوا غرباء. إنه يتصور ابنته والحياة التي ستكون لها بعد إنجازه لهذه الفكرة التي تستبد به. لو كان هذا العمل موجهاً ضد نفسه، لما تردد لحظة واحدة، ولكن التصرف في حياة الآخرين، وعن طريق الغدر، يثير نفسه اشمئزازاً لا يقهر.

وطوال الليل، ظل يتخبط في تلك اليقظة المخيفة، في حجرة المريض، ويحاول أن يعمق تصميمه الذي كان يراه ضرورياً ولا بد منه.

لقد ربى الأخرون ابنته، ورعاها الآخرون، وهي تعيش الآن من أجل الآخرين. وهو لم يفعل شيئاً من أجلها فيجب أن يفعل هذا.. وليس له غير هذا الطريق. لقد أحضر لها الثروة ولكن ما جدواها وقد ارتبطت بهذا العجوز بعد أن ضحت بحبها؟ ولكي تكون هذه الثروة ذات قيمة في نظرها، ولكي تكون مدينة حقاً بحياتها لولدها، يجب عليه أن يقتلع ويزيل ما تحس به من واجب نحو الآخرين، وأن يدفع الثمن الذي دفعته هي حين ضحت بنفسها. ويجب ألا يتردد ما دامت الفرصة مهيأة والقدر يساعد على ذلك. يجب أن يزيل هذا الذي قام به نحو ابنته، بما كان يجب أن يقوم به هو، ينحي هذا الذي يريد أن يخلفه وأن يتزوج الأم في صورة ابنتها. إنها في هذه الحالة التي يحررها فيها من الروابط التي

شدتها إلى الآخرين في غيبته سوف تعترف بأبوته ويتيح لها هو فرصة الحرية والثروة والحياة.

وقفز الشك إلى ذهن ايبا، وشعرت بأنه مقدم على أمر خطير حين شاهدته في صباح اليوم التالي يعاني اضطراباً في معالجة المريض، وكانت القرائن قائمة في حديثها معه في مساء اليوم السابق، ولكنها لم تجزم بشيء إلا حين اتضح لها الأمر بعد أن أفصحت عيناه اللتان رفعهما عن المريض، ورماها بنظرة كانت معبرة عن كل شيء. كان يتحسس الأنفاس الأخيرة للمريض وكانت هي واقفة قرب السرير مضطربة مندهشة، وقد قرأت في تلك النظرة دعوة إلى إطراح الخوف من هذا العمل الذي أقدم عليه، ثم ضمها إلى صدره وهمس خلال شعرها: أنت حرة.. ولك أن تعيشي الآن.

ولكنها كانت تشعر أنها لن تعيش بعد أن علمت بفعل والدها، وأخفت رأسها في صدره حتى لا تلمح الضحية الممددة في الفراش..

لقاء في الصيف

من هو «روندوني»، ومن هي «روندينلا»؟.. في الحقيقة، لست أدري كما لا يدري أحد من سكان تلك البلدة الجبلية، حيث يأتيان كل صيف، للإقامة هناك ثلاثة أشهر في ذلك العش السعيد.

تقسم الفتاة التي تعمل بمكتب البريد، أنها لم تستطع خلال أعوام كثيرة، أن تستخرج صوتاً بشرياً، يضم الحروف التي يتكون منها لقبه ولقبها، في الرسائل القليلة التي يتلقيانها. وحتى لو استطاعت الآنسة موظفة البريد أن تستخرج الألقاب وتستكملها، فما عساها تفعل بعد ذلك؟..

أعتقد، أنه من الأحسن أن تظل الأمور هكذا.. ومن الأنسب أن ندعوهما كما يدعوهما جميع سكان البلدة الجبلية.. روندوني وروندينلا.

روندوني وروندينلا، لا لأنهما يعودان كل عام، مع الصيف، إلى هذا العش العتيق، دون أن نعرف المكان الذي قدما منه. ولا لأنهما يتجولان، بل ربما كان من الأليق أن نقول: يحلقان في غير هدوء، من الصباح إلى المساء، طوال الزمن الذي تستغرقه إقامتهما هناك. ولكن لسبب آخر لعلّه أقل شاعرية.

ربما لم يكن أحد من سكان البلدة، يفكر في أن يطلق عليهما تلك التسمية، لو لم يأتِ هذا السيد الغريب، في العام الأول، وقد ارتدى

معطفاً طويلاً أسود، تتطاير أذياله فوق بنطلون أبيض، ولو لم يستقر اختياره -وهو يبحث عن منزل منعزل للاصطياف- على الفيلا الصغيرة، التي يملكها الطبيب عميد البلدة، وهي صغيرة جداً كأنها عش حسون، تقع في قمة الجبل بين أشجار الكستناء.

كانت تلك الفيلا صغيرة جداً. أما هو فقد كان عملاقاً بنظاراته الذهبية، ولحيته السوداء التي غزت وجنتيه حتى أسفل عينيه، دون أن تخلع عليه طابعاً قاسياً كئيباً؛ إذ كانت تنبعث من شخصيته القوية، مودّة صريحة باسمة.

وكان يبدو، برأسه الشامخ، وصدره الهرقلي، متهيئاً دائماً لأن يلقي بنفسه، في اندفاعة طفولية، إلى أي نداء بعيد وخفي.. لا يفهمه إلا هو، إما إلى قمة الجبل، أو إلى أغوار الوادي. أحياناً يترامى من هذه الجبهة، وأحياناً من الجهة الأخرى. وكان يعود مجهوداً، متقطع الأنفاس، يتصبب عرقاً، وقد حمل أصدافاً حجرية في قبضتيه، أو زهرة في فمه، كأنما كانت هذه الأصداف أو تلك الزهرة، هي التي دعته فجأة من أميال وأميال بعيدة، إلى أعلى الجبل، أو أسفل الوادي.

وكيف لا يدعونه روندوني وهم يرونه يتجول مرتدياً المعطف الأسود فوق البنطلون الأبيض؟!..

وفي العام الأول، وصلت روندينلا بعده بخمسة عشر يوماً تقريباً. بعد أن عثر على ذلك العش، وقام بإعداده، هناك، بين أشجار الكستناء. وصلت فجأة، دون أن يعرف عنها شيئاً، وقد تعبت كثيراً في إفهام الناس أنها تبحث عن ذلك السيد الغريب، وأنها ترغب في أن تُرشد إلى بيته.

وفي كل عام: كانت روندينلا تصل متأخرة بيوم أو يومين. وكانت دائماً تصل فجأة. سنة واحدة، وصلت قبله بيوم، مما يظهر بوضوح أن ليس هناك أي اتفاق سابق، وأن هناك حائلاً خطيراً يحول دون تبادل الأخبار بينهما. وكما يظهر من أختام البريد، فقد كانا يقطنان بلدتين مختلفتين، من موطن واحد.

ومنذ البداية، قام الشك، في أنها متزوجة. تتاح لها الحرية، ثلاثة أشهر من كل عام، فتأتي للبحث عن العشيق، الذي لا تستطيع أن تخبره حتى بموعد وصولها. ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذه المعوقات وهذا التشديد في الرقابة عليها، وبين فرصة الحرية الكاملة التي تستمتع بها في إيطاليا خلال أشهر الصيف الثلاثة؟!..

ربما قال الأطباء لزوجها: إنها في حاجة إلى الشمس، فسمح لها الزوج بهذه الفرصة السنوية، جاهلاً أن روندينلا كانت تذهب إلى إيطاليا من أجل شيء آخر، أهم من الشمس، هو المعالجة الغرامية.

كانت صغيرة الجسم، رقيقة، كأنها صيغت من النسيم. عينان زرقاوان صافيتان وديعتان، ذاهلتان، تظللهما أهداب طويلة، في ذلك الوجه الناعم الدقيق.

وكان يبدو أن النفخة كافية لأن تطوّح بها بعيداً. وأنه ما تكاد تمسكها حتى تنكسر. وأن الإنسان ليتملكه العجب حين يتصورها بين ذراعي ذلك الرجل العملاق.

ولكن إلى ذراعي ذلك الرجل العملاق، الذي ينتظرها في قلق، في تلك الفيلا العالية، وهو يرتجف كالوحش، كانت تهرع كل عام، وهي الصغيرة اللطيفة، لكي تلقي بنفسها في أحضانه، سعيدة، مطمئنة، دون

أن يداخلها الخوف من أن تتحطم، بل من أن ينالها أي ضرر. كانت تعرف كل حلاوة تلك القوة العاتية، وكل خفة تلك الحيوية الواثقة العنيدة. وكانت تضيع في استسلامها إليه.

وفي كل عام، كان وصول روندينلا في نظر البلدة، يوم عيد. هكذا على الأقل كانت تظن روندينلا.

وبالتأكيد، كان العيد في أعماقها النفسية، ومن الطبيعي، أن تراه ينسحب على الأشياء الخارجية. بلى.. وكيف لا ؟!.

إن تلك البيوت العتيقة التي كساها الزمن مسحة من الكآبة، كانت تفتح نوافذها عند وصولها، وكانت تضحك مياه الينابيع. أما الطيور فتبدو مجنونة من البهجة.

يقيناً، إن روندينلا كانت تفهم لغة العصافير، أكثر من لغة سكان البلدة. بل هي لا تفهمهم على الإطلاق. أما لغة العصافير فقد كانت تفهمها.. وتبتسم مطمئنة، وتلتفت هنا وهناك، كلما ترامت إليها زقزقة العصافير التي تقفز فوق غصون الأشجار العالية ممتدة على حافة الطريق الصاعدة نحو القرية الجبلية.

كانت العربة المحملة بالحقائب تسير ببطء. ولم يستطع السائق أن يمسك نفسه عن الالتفات إليها من حين إلى الآخر، ليبتسم لروندينلا الصغيرة، التي تعود إلى عشها كعادتها كل عام، ويشير إليها بيديه: إن صاحبها موجود.. روندوني موجود.. هناك، منذ ثلاثة أيام. موجود.

وكانت روندينلا ترفع عينيها إلى الجبل البعيد، وتحاول أن تكتشف، عند قمته، تلك الفيلا الوردية الصغيرة، من خلال الزرقة الضبابية التي كانت تخيم على غابات الكستناء، المحجوبة عن الشمس.

ولكنها لم تكتشفها.. ها هو القصر العتيق الذي يهيمن على البلدة، وها هو أدنى منه، ملجأ العجزة من الشحاذين، قريباً من المقبرة. فكأنهم بجوارهم هذا في حجرة انتظار.. انتظار الموت الذي يستقبلهم بين أحضانه.

وفي أسفل القرية، التي تشرف على الطريق المنعرج، كانت الغابة الصغيرة من أشجار الصفصاف العظيمة، تمنح روندينلا، كلما عبرت بها، إحساساً بالبرودة والذهول، ولكنه لا يلبث أن يزول، فما تكاد تجتاز هذه الغابة الصغيرة حتى تكتشف الفيلا.

كيف كانا يعيشان هناك؟.. لا يعلم ذلك أحد. ولكن من السهل أن نتخيل: خادمة عجوز تأتي للتنظيف كل صباح، حتى يطيران عن ذلك العش ويحلقان، كأنهما محمولان على بهجة نشوانة، هنا وهناك، في غير إعياء. فوق الجبل، أو في أعماق الوادي، وفي الريف وفي القرى القريبة. وهناك من يقول إنه قد شاهد روندوني، في بعض الأحيان يحمل روندينلا بين ذراعيه كأنها طفلة صغيرة.

وجميع سكان البلدة يبتسمون سعداء برؤية العاشقين اللذين يمران بهم، في بهجة غامرة، قاصدين المطعم لتناول الغداء، بعد أن نالهما الإعياء من الجولات الطويلة. لقد اعتاد الجميع على رؤيتهما. وكانوا يشعرون أن متعة، أو شيئاً جذاباً، سينقص البلد، إذا لم يعد روندوني وروندينلا إلى العش، في بعض فصول الصيف. والطبيب لا يفكر في تأجير الفيلا إلى آخرين، إذ أصبح واثقاً أنهما لن يتخلفا، بعد هذه الأعوام الطويلة.

وفي نهاية سبتمبر.. كانت هي الأولى التي تغادر البلدة، ثم يلحق بها هو بعد يومين أو ثلاثة أيام.. أما في الأيام التي تسبق السفر، فلا يغادران العش لحظة واحدة... ويعرف أنهما يتهيآن لانفصال تام يدوم سنة كاملة، فهما يتعانقان طويلاً قبل الافتراق.

أيمكن أن نراهما في المستقبل؟.. أيمكنهما، وهي الصغيرة اللطيفة، أن تقاوم برد تلك الأشهر الطويلة بعيدة عن نار هذا الحب، بلا مساندة من قوته العظيمة؟.. ربما تموت، خلال الشتاء، وربما يعود في الصيف القادم إلى العش العتيق، وينتظرها في غير طائل..

وكلما جاء الصيف، أقبل «روندوني» على البلدة، ولبث ينتظر في لهفة، ويرقب وصول الحبيبة من يوم إلى آخر. وتصل في اليوم الثالث. ولكنها من عام إلى عام تزداد نحولاً وشحوباً، بعينيها الذاهلتين، الوديعتين.. حتى جاء الصيف السابع.

كلا. إنها لم تتخلف. جاءت متأخرة. ولكنه تخلف هو. وكانت خيبة عظمى لجميع سكان البلدة.

كيف؟!.. ألا يأتي؟ ألم يأت؟ هل يأتي فيما بعد؟... كان الطبيب يهز كتفيه، وقد حاصره الناس بهذه الأسئلة. ما الذي يمكنه أن يعرفه؟.. إنه متألم هو أيضاً، لأن تفتقد البلدة ذلك المشهد البهيج.. مشهدالعاشقين «روندوني» و«روندينلا».. ولكنه كان متضايقاً أيضاً بسبب الفيلا التي ظلت شاغرة.

- لا بد وأنه وقع شيء.
- هل مات؟...
- أو ربما ماتت هي؟...
- أو أن الزوج قد اكتشف...

ويتأمل الجميع، في ألم، تلك الفيلا الوردية، العش المهجور، في قمة الجبل، بين أشجار الكستناء.

ومضى يونيو، وانقضى يوليو، وأوشك أن يمضي أغسطس، عندما انتشر فجأة، خبر في البلدة.

- لقد وصلا. لقد وصلا..

- إنهما معاً. «روندوني».. و«روندينلا»..

- إنهما معاً.. الاثنان.

وهرع الطبيب، وهرع كل الجالسين في الصيدلية، ورواد المقهى في الميدان، ولكنها كانت خيبة جديدة، أعظم من الأولى.

كانت هي «روندينلا» ولم يكن إلى جوارها، في تلك العربة البطيئة «روندوني» كان هناك رجل، أبيض البشرة، مربع الوجه، هادئ، صلب، ربما كان زوجها. بل لا يمكن أن يكون إلا زوجها. إن الشرعية متجسدة فيه. ويبدو أن كل نظرة من نظرات عينيه البيضاوين، خلف النظارة، تهتف بالشرعية. وما كاد يهبط من العربة حتى تقدم نحو الطبيب العميد، ورجاه باللغة الفرنسية، أن يمكنه من الحصول على نقالة، لكي تنقل المقعدة المسكينة إلى فيلا، تقع -كما قيل له- في موضع..

- نعم. نعم. أعرفها جيداً. إنها لي..

- أرجوك يا سيدي، لقد قيل لي، وأكرر، إنها تقع في موقع مرتفع لا تصعد إليه العربة.

وكانت عينا روندينلا تفصح بوضوح، أنها تموت من جراء معاشرتها لهذا الرجل الموزون المحترم، الذي يحسن الكلام الدقيق.. إنه هو الذي يميتني.. باحترامه.. بدقته (بلطفه) ولكن أرجوكم، ألا تنزعجوا. إذا أمكنني أن أحصل على نعمة الموت هنا. انتقموا لي منه بالضحك المتعالي. إني لم أعد أقدر على الضحك إلا بعيني. ألا ترون كيف أصبحت روندينلا؟.. بعد التحليق. سيكون عليها أن تذهب إلى تلك الفيلا، محمولة على نقالة.

أما عيون الناس الذين أحاطوا بها حول العربة فقد كانت تسأل:

- أين روندوني؟.. أين صاحبك روندوني؟.. لماذا لم يأت؟.. لم يأت لأنك على هذه الحالة؟.. أم أنت على هذه الحالة لأنه مات؟.

ربما كانت عينا روندينلا تفهمان تلك الأسئلة. ولكن الشفاه لا تقدر على الإجابة.. وتغمض الحائرة عينيها على ألم مطوي في الضلوع..

وحين تغمض عينيها كانت تبدو كأنها ميتة. بالتأكيد. لقد حدث شيء ما. ولكن ما هو هذا الشيء، لا يدري أحد. الظنون كثيرة، وفي الإمكان اختراعها بسهولة، أما اليقين الثابت.. فإن روندينلا قد جاءت لتموت وحدها هناك. أما روندوني فلم يعرف عنه شيء.

الإيمَان

في تلك الحجرة الصغيرة، المتواضعة، حجرة القسيس، المغمورة بالنور والسكينة، بقرميدها الفالنسي العتيق الذي بهت بريقه في كثير من المواضع. وقد ترامى عليه في هدوء ندي، مربع ذهبي من أشعة الشمس المتسربة من النافذة. كما ارتسمت عليه ظلال الستائر الشفافة، والقفص الأخضر الذي يتدلى في الشرفة الصغيرة بعصفوره الكناري الذي يقفز داخله. وشاعت فيها رائحة خبز خرج لتوه من الفرن، تصاعدت من الحوش، لتبعث الدفء وتمتزج بالأبخرة الرطبة في الكنيسة الصغيرة القريبة، وبالروائح الحادة لبعض النباتات العطرية التي دست بين طيات الغسيل في التخت القديم.

كان يبدو أنه لن يقع أي شيء في تلك الحجرة الصغيرة.. فضوء الشمس ثابت، والسكينة ثابتة، ومنظر العشب النابت بين الحصى في ذلك الحوش الصغير المقابل للنافذة، ثابت.. وكذلك أوراق التبن المتساقطة من الماعون القائم تحت ظلة من القرميد الأحمر في أحد الأركان، والحصى الصغير الزاحف من الشاطئ الصخري.

وفي داخل الحجرة، انتشرت حول التخت، هنا وهناك، مقاعد صغيرة، عتيقة، نظيفة، مطلية باللون الأسود، وقد رسم صليب فضي

على مساندها الخلفية أضفى عليها جواً رهبانياً عتيقاً. وكأنما اطمأنت تلك المقاعد إلى مكانها الذي أحسنت فيه رعايتها، وأصبحت فيه بمنجى من كل شيء فلم يمسها أحد. فهي تتأمل في استمتاع ذلك السرير الحديدي المتواضع الذي ينام فوقه القسيس، وقد نصب عند رأسه، على الجدار الأبيض، صليب أسود، ثبت عليه تمثال نحيل مصغر مصنوع من العاج. وفوق التخت، وضع تمثال آخر من الشمع للمسيح الطفل، في مهد مبطن بحرير سماوي اللون. وقد حجز الباب بستار رقيق شفاف، من اللون نفسه.. وكأنه أراد أن يستفيد من ذلك السكون المغمور بنور الشمس، ليستغرق في نومه الوردي، واضعاً يده تحت خده الطري السمين.. يحيط به جو تلك الروائح الممتزجة من البخور والعطر والخبز المنزلي الساخن.. وفوق الأريكة، عند أقدام السرير، كان أيضاً ينام «دون بيترو» وقد مال في إعياء على مسند الأريكة برأسه الأصلع الذي يشبه جلد النعجة، غير أن نومه يختلف عن نوم المسيح الطفل.. إنه ينام بفم مفتوح.. نوم عجوز مرهق مريض. وتبدو أجفانه الرهيفة كأنها فقدت القدرة على الإغماض فوق الحدقتين المتألمتين الغائمتين.. أما وجهه الأصفر، الحاد، ذو التجاعيد، فقد اكتسى خلسة، في نومه ذاك، تعبيراً شريراً وقحاً.. فكأن الجسد أراد في تلك الغفلة، أن ينتقم من الروح التي استنفدته واستعبدته أعواماً طويلة بتلك الإرادة الزاهدة.. فهو بذلك الاستسلام الكريه، وبذلك الخيط من اللعاب الذي ينساب من تلك الشفة المتهدلة يريد أن يظهر أنه لم يعد يقوى، ويكاد يصور شقاءه الجسدي بشكل فاضح.

ودخل دون انجيلينو إلى الحجرة، في اندفاع، ثم سرعان ما توقف وأخذ يتقدم على أطراف أصابعه، وأمضى حوالي عشر دقائق، صامتاً،

يتأمل العجوز النائم، وفي نفسه لوعة تتزايد مع قلقه لتتحول إلى غيظ مكتوم، لم يستطع معه، إلا أن يفتح يديه ثم يضمهما في قبضة عنيفة، تكاد تغوص لها أظافره في راحتيه.. لكم تمنى أن يصرخ ليوقظ ذلك القسيس النائم..

- دون بيترو.. لقد قررت.. قررت أن أعتزل.

ولكنه جهد في أن يمسك أنفاسه، خوفاً من أن يستيقظ ذلك العجوز القسيس، فيفاجأ به أمامه، بتلك اللوعة الغاضبة، التي سيستشفها حتماً من عينيه، ومن وجهه الحانق. ونازعته نفسه إلى أن يوجه ضربة إلى ذلك القفص المتدلي، تقذفه خارج النافذة.. فقد كان في خوفه من يقظة العجوز، تثير أعصابه تلك الحركة التي تحدثها مخالب العصفور فوق قاعدة القفص المعدنية.

وفي اليوم السابق، كان قد أمضى أكثر من أربع ساعات، وهو يذرع تلك الغرفة الصغيرة مضطرباً، يرتجف ويتضور ويتلوى، كأنما يريد أن ينفصل عن الثوب الرهباني، أو يدفعه عن الاتصال بجسده الثائر.. وكان وهو يحرك رجليه تحت ذلك الثوب، يبدو كأنه يريد أن يركله.. لقد ناقش «دون بيترو» نقاشاً حاداً، حول تصميمه على التخلي عن الرهبانية.. ليس لأنه فقد الإيمان، لكنه أصبح مقتنعاً عن إخلاص، بأنه قد اكتسب إيماناً جديداً، عن طريق التأمل والدراسات.. إيماناً أكثر حياة، وأكثر حرية، وهو من أجله، لم يعد قادراً على قبول المسلمات والارتباطات وتحملها، وكبح الشهوات، وغير ذلك مما كانت تفرضه عليه عقيدته القديمة.

لقد كانت المناقشة من جانبه تصطبغ بالحدة والعنف.. ولم يكن ذلك ناشئاً عن الأجوبة التي يرد بها على دون بيترو، وإنما بسبب الاحتقار

المتزايد الذي يشعر به نحو نفسه، لتلك الحاجة القوية، القاهرة، التي أرغمته على أن يتوجه بأسرار نفسه المعذبة إلى ذلك القسيس العجوز، معلمه الأول، ثم كاهن اعترافاته منذ أعوام عديدة، رغم يقينه بعدم قدرته على فهم آلامه ويأسه ولوعته.

وترك له دون بيترو فرصة الإفضاء بما في نفسه، وهو يغمض عينيه من حين إلى آخر، ويومئ بابتسامة خفيفة ساخرة، لم تعد تصلح لها شفتاه، ويغمغم في تسامح وفي غير استخفاف:

- باطل.. باطل.

إيمان آخر؟.. وأي إيمان!.. إذا لم يكن هناك غير واحد؟ أكثر حياة؟ أكثر حرية؟ ها هنا بالذات يكمن الباطل.. سوف يفطن إلى ذلك عندما تخمد فورة الشباب، وينطفئ ذلك اللهب الشيطاني، ويفتر الدم في العروق، وتخبو تلك النار في عينيه الجريئتين.. وحين يشيب الشعر، ويصلع الرأس، ويزول عنه هذا الجمال وهذه الحيوية. الخلاصة، عامله كطفل، طفل طيب لن يقدم بالتأكيد، على ارتكاب هذه الفضيحة التي يهدد بها.. واضعاً في تقديره الحزن الذي سيجره على أمه العجوز التي قدمت من أجله كثيراً من التضحيات.

حقاً.. لقد أحس «دون أنجيلينو» بالدموع تحاصر عينيه، عندما طاف بذهنه ذكر أمه.. ولكنه من أجل أمه، من أجلها بالذات، قد انتهى إلى هذا القرار، حتى لا يخدعها، حتى لا يحس فيما بعد، بذلك التمزق النفساني، عندما يراها تحترمه كقديس صغير. يا للقسوة!.. يا له من مشهد قاس.. مشهد ذلك العجوز النائم.. إن في ذلك الجسد الذي استنفده التقشف، دلالة واضحة على الحقائق الجديدة التي تكشفت له!..

وانفتح في تلك اللحظة، باب الحجرة الصغيرة، ودخلت العجوز أخت القسيس دون بيترو. كانت ضئيلة الجسم، شاحبة، متجلببة بالسواد، فوق رأسها منديل صوفي أسود.. كانت أكثر انحناء وارتعاشاً من أخيها.. وقد خيل إليه في حالته تلك، أنها أمه، استدعتها دموعه، ودخلت عليه ضئيلة الجسم، شاحبة اللون، متجلببة بالسواد، مثل هذه المرأة.. ورفع عينيه يتأملها في دهشة دون أن يفهم الإشارة التي كانت تسأله بها.

- ماذا يفعل؟.. أهو نائم؟.

وهز دون انجيلينو رأسه إيجاباً، غير أن العجور فتح عينيه الواهنتين، وقد فغر فاه، ورفع رأسه عن مسند الأريكة:

- آه.. أنت.. انجيلينو. ماذا بك؟

واقتربت منه أخته، ومالت على الأريكة، وهمست في أذنه ببعض الكلمات، فنهض وأقبل نحو دون أنجيلينو، ثم وضع يده فوق كتفه، وسأله:

- أيمكن أن تسدي لي فضلاً يا بني؟.. لقد وصلت من الريف عجوز فقيرة وهي تسأل عني. تراني لا أكاد أنهض على قدمي. هلا ذهبت إليها بدلاً مني؟ إنها في غرفة الملابس الكهنوتية.. يمكنك أن تنزل من هنا، عن طريق السلم الصغير. اذهب. اذهب. فقد كنت دائماً ابني البار.. ليباركك الله.

وذهب دون انجيلينو دون أن يقول شيئاً، ولعلّه لم يفهم جيداً ما طلب منه.وفي السلم الصغير. المظلم الضيق. توقف وأسند رأسه إلى يده. ثم نزل ويده تلامس الجدار. وهو يبكي كالطفل بكاء خانقاً، يلهب عينيه، يكاد يمتزج فيه التعبير عن الاحتقار والغضب والإشفاق.. وحين

بلغ حجرة الملابس، أحس فجأة، كأنه يتخفف من كل شيء. وبدت له الحجرة شيئاً آخر، كأنما يراها للمرة الأولى. باردة. بائسة. منيرة. وحين رأى العجوز جالسة تنتظر، لم يستطع أن يفهم الغرض من انتظارها. وبدت له كأنها غير حقيقية.

كانت فلاحة، هرمة، متقوسة، قذرة، وأجفانها دامية، مقلوبة بشكل مرعب. ذقنها المدببة تقفز حتى تلامس أنفها عند المضغ. كانت تحمل ديكين في يدها، وفي اليد الأخرى ثلاث ليرات فضية، من يدري، منذ متى حفظت!.. وعلى الأرض، أمام قدميها اللتين انتعلتا حذاء رجالياً ضخماً، خُرْج مليء باللوز.

ورمقها دون انجيلينو في استهانة.

- ماذا تريدين؟

وجهدت العجوز في أن تتبينه، ثم غمغمت بعض الكلمات بلسانها المرتبك داخل فمها المتهدم..

- ماذا تقولين؟ إني لا أسمعك، أتسمين العمة كروتشة؟..

نعم إنها العمة كروتشة، العمة كروتشة.. ودون بيترو يعرفها تماماً. العمة كروتشة سكوما. التي مات عنها زوجها منذ أعوام، غارقاً في نهر نارو. لقد جاءت مشياً على القدمين، تحمل ذلك الخرج فوق كتفيها، من سهل كاناتللو، وقطعت أكثر من سبعة أميال بتلك الهدية، المكنونة، وخرج اللوز، وثلاث ليرات فضية، أجر الصلاة، التي يستعطف بها دون بيترو القديس كالوجيرو قديس جميع المكارم، الذي شفى ابنها من مرض مميت. وما كاد يشفى ذلك الابن حتى سافر إلى أمريكا.. ووعدها بأن يكتب إليها، وأن يبعث إليها كل شهر بما يمسك أودها. وها قد مضت

ستة عشر شهراً دون أن يصلها خبر عنه. ولم تعد تعلم إذا كان حياً أم فارق الحياة.. ليتها تعلم أنه حيّ، فذلك قد يعزيها، يمنحها الصبر، حتى ولو لم يبعث بشيء، ولو بسطر في رسالة.. لقد قالوا لها في الريف، أن مرجع ذلك إلى عدم تمسكها بالنذر الذي نذرته للقديس كالوجيرو إذ شفي ولدها. لا بد أن يكون ذلك صحيحاً، وهي تقرّ وتعترف به. إنها لم تستطع أن تفي بالنذر -كما يعرف دون بيترو- لأنها قد تجردت من كل شيء بسبب مرض ابنها. ولم يبق لها سوى عينيها تذرفان الدموع الدامية، نعم، الدموع الدامية. ثم ذهب الابن، وظلت هي العجوز الفقيرة، دون مساعدة من أحد، وكيف يمكنها أن تدخر ذلك المبلغ من الليرات الثلاث، وتلك الهدية، إذا كانت لا تكسب في اليوم الواحد إلا ما يحفظها من الموت جوعاً؟ لقد تطلب الأمر ستة عشر شهراً. وبأي عناء!.. إن الله وحده هو الذي يعلم. والآن، ها هما الديكان، والليرات الثلاث، وهدية اللوز، وسوف يتعطف بالرضا القديس كالوجيرو الرحيم. وبعد قليل -بلا شك- سيصلها من أمريكا خبر يفيد بأن ابنها حيّ ويرزق كثيراً.

وحين كانت العجوز تقص هذه الأشياء. كان دون انجيلينو يذرع الغرفة وهو يوجه إلى هنا وهناك، نظرات وحشية. ويفتح قبضتيه ثم يضمهما في غيظ. فقد كان ينازعه شعور في أن يمسك بتلك العجوز من كتفيها، وأن يهزها في عنف، صارخاً في وجهها:

- أهذا إيمانك؟!..

ولكن. كلا.. هناك آخرون من زملائه القساوسة، أجدر أن يمسك بهم من أكتافهم، وأن يهزهم هزات عنيفة. زملاؤه القساوسة الذين يشدون

كثيراً من البسطاء، إلى تلك المهانة التي يتاجرون فيها. آه.. يا رباه.. كيف.. يتقاضون ثلاث ليرات من تلك العجوز، ويتقبلون تلك الهدية، من أجل صلاة؟. وصرخ فيها ثائراً مرتجفاً:

- ارجعي بذلك الخرج. وانصرفي.

فنظرت إليه في دهشة.

- أقول لك.. يمكنك أن تنصرفي.

ثم أضاف قائلاً، وقد تزايد غضبه:

- القديس كالوجيرو ليس في حاجة إلى ديوك، ولا إلى اللوز والتين الجاف، إذا كان ابنك سيكتب إليك، فتأكدي أنه سيكتب، أما عن الصلاة، فأخبرك أن دون بيترو مريض وانصرفي. انصرفي.

وأذهلتها تلك الكلمات الثائرة. فتساءلت:

- ماذا تقول؟ ألم تفهم أن هذا نذر؟!.. نذر.

كانت هذه العبارات الثابتة الواثقة، تحمل في طياتها شيئاً من الدهشة والاستغراب. من قلة فهمه.

فلم يستطع دون انجيلينو إلا أن يركز انتباهه عليها. وتذكر أنه موجود هناك بدلاً من دون بيترو. فأمسك نفسه، وسيطر عليها، وحاول بكلمات أقل حدة أن يقنع تلك العجوز باسترداد الديكين واللوز. أما عن الصلاة فإنها، إذا كانت مصرة عليها، فسوف يؤديها هو بدلاً من دون بيترو على شرط أن تحتفظ بالليرات الثلاث.

وعادت تتفحصه في دهشة، وهي تردد..

- كيف؟.. ما تقول؟... وأي معنى للنذر إذاً؟.. أي قيمة له إذا لم أقدم ما وعدت به؟ ولكن معذرة. من الذي أخاطبه؟ ألست أخاطب

قسيساً؟ ولماذا يعاملني بهذه الطريقة؟!.. أم أنه يظن أنني لا أهب من كل قلبي ما وعدت به القديس «كالوجيرو» صاحب الكرامات؟.. آه.. يا رباه. أم لأنني قصصت عليك ما كابدته في سبيل جمع هذا النذر؟.

وحين فرغت من كلامها. انهمرت عيناها الملتهبتان بالدمع. وأخذت تبكي بكاء يائساً. وأثار ذلك البكاء عواطف دون انجيلينو وملأه إحساساً بالندم وتأنيب الضمير، وغلبه شعور مفاجئ بالاحترام والخجل من تلك العجوز التي تبكي أمامه إيمانها الذي أهين. فاقترب منها، وطمأنها، وأفهمها أنه لم يفكر فيما ساورها من الظنون. وأنه لا ضير في أن تترك، هناك، هديتها، وحتى الليرات الثلاث، وأنه سيدخل حالاً إلى الكنيسة لأداء الصلاة المطلوبة.

ونادى المشرف على الحجرة. وحين أخذ المشرف يساعده على ارتداء الحلل الكهنوتية، فكر في أنه سيجد الطريقة التي يعيد بها إلى العجوز الليرات الثلاث والديكين، وخرج اللوز، بعد الفراغ من الصلاة. ولكن. هذا الفضل لكي تكون له قيمة مقبولة لدى تلك العجوز المسكينة، ألا يحتاج إلى شيء لم يعد يشعر بأنه يملكه؟. وأي فضل سيكون لهذه الصلاة، إذا كانت كل تلك المتاعب والتضحيات، التي تحملتها العجوز المسكينة من أجل الوفاء بنذرها، من أجل صدقة ثلاث ليرات؟..

وبعد أن ارتدى دون انجيلينو البدلة الكهنوتية، وأمسك في يده الكأس توقف لحظة قصيرة، عند عتبة الحجرة، حائراً ملتاعاً، متأملاً الكنيسة الصغيرة المهجورة، مفكراً فيما إذا كان يليق به أن يرتقي الهيكل، وقد سجدت العجوز حتى لامست جبهتها الأرض. وأحس أن صدره كله ينشرح بنفس جديد، وأن رعشة جديدة تسري في كيانه.

آه. لماذا كان حتى الآن، يتصور الإيمان شيئاً جميلاً، ومشعاً كالشمس؟.. ما هو الإيمان. ها هو. في بؤس ذلك الألم الراكع، في الشقاء المرير لذلك الخوف الساجد.

وارتقى دون انجيلينو الهيكل كأنه مدفوع بقوة خفية، وقد تحرك وجده القديم، فارتعشت يداه، وخفقت روحه، كالمرة الأولى التي اقترب فيها من الهيكل.

ومن أجل ذلك الإيمان، صلى بعينين مغمضتين، نافذاً إلى روح تلك العجوز، كأنها معبد مظلم ضيق، يتقد فيه ذلك الإيمان، ودعا إله ذلك المعبد. أياً كان. وكيفما كان. وهو الخير الفرد أن ينزل عزاء فريداً لذلك الشقاء.

وحين انتهت الصلاة. احتفظ بالهدية، والليرات الثلاث، حتى لا يقلل بهذا الفضل الصغير، من الفضل الكبير لذلك الإيمان.

السّاعي إلى حتفه

في الطريق إلى المقبرة

عربة من الدرجة الأولى، تجرها خيول مسرجة مزخرفة. ويقودها حوذي مع مرافقيه، بالشعور المستعارة، لن يستأجرها أقاربه من أجله. أما من الدرجة الثانية، فذلك شيء معقول.. على الأقل حفظاً للمظهر أمام أعين الناس. خمسمئة ليرة، سعر التسعيرة.. أما التابوت فسوف يكسى، ولن يتركوه عارياً. سواء كان من زان، أو شربين، أو خشب، كل ذلك حفظاً للمظاهر أمام أعين الناس.. وغطاء من القطيفة الحمراء، حتى من نوع رديء، بمقابض وحواشٍ ذهبية.. سيكلفهم على أقل تقدير أربعمئة ليرة.. ثم منحة لا بأس بها لمن يقوم بتغسيله وتكفينه.. (يا لها من خدمة رائعة).. ثم مصاريف الشمع الذي يوقد عند أركان السرير، ومنحة للحاملين الذين يقومون بنقله على أكتافهم حتى العربة، ثم من العربة إلى القبر.. ثمن إكليل من الزهور.. واحد على الأقل.. بحق الإله.. أما فرقة البلدية فيمكن الاستغناء عنها.. ثم عدد من الشمعات يحطها أطفال الميتم الذين يعيشون من هذا العمل.. أي من الخمسين ليرة التي تعطى لهم لمرافقة جميع موتى المدينة، ولعل هناك بعض النفقات الصغيرة غير المتوقعة.

كل هذا يستطيع «ماتيو سناجر» أن يوفره على أقاربه، حين يمشي على قدميه ليقتل نفسه بطريقة اقتصادية، في المقبرة، أمام مدافن أسرته. وهكذا بنفقات قليلة، وبعد حضور النيابة، يمكنهم أن يقذفوا به داخل المدفن دون أن يقوموا حتى بكنسه، وينزلوه هناك، حيث يستريح منذ زمن والده وأمه وزوجته الأولى وطفلاه..

إنه ليبدو أن الموتى يعتقدون بأن الأمر العسير حقاً، هو فقدان الحياة، وأن كل شيء ينتهي بنهايتها.. وهذا بالنسبة لهم، حق لا شك فيه.. ولكنهم لا يفكرون في ذلك الارتباك الفظيع الذي يسببه الجسد المتصلب، الممدود فوق السرير لمدة يوم أو يومين، ولا في متاعب ونفقات الأحياء الذين يبكونهم، ويفكرون في التخلص منهم.. وحين يعرف كم يكلف مثل هذا التخلص، في حالة كحالته: أي حين يموت في صحة جيدة، فإن السادة الراغبين في الموت، يمكنهم القيام بخطوتين نحو المقبرة، ويتوجهون إلى الراحة في هدوء، من تلقاء أنفسهم.

إن ماتيو سناجرا لم يعد يفكر في شيء غير هذا.. وفجأة بدت له الحياة، خالية من كل معنى، حتى أنه تقريباً، لم يعد يذكر بدقة ماذا فعل في الحياة.. أجل. هو أيضاً ارتكب جميع الحماقات التي ترتكب عادةً دون أن ينتبه، وفي خفة، وبسهولة كبيرة.. أجل. لقد كان محظوظاً إلى حد ما قبل ثلاثة أعوام.. لم يتعذر عليه شيء قط.. ولم يتوقف لحظة واحدة حائراً متردداً في أن يفعل، أو لا يفعل هذا الشيء. أن يسلك أو لا يسلك هذا الطريق.. لقد ألقى نفسه في ثقة إلى جميع المغامرات. وسلك جميع الطرق، وتقدم دائماً إلى الأمام، وتغلب على عقبات ربما عجز الآخرون عن التغلب عليها.. حتى ثلاثة أعوام خلت..

إذ انطفأ فجأة، دون أن يعرف كيف ولماذا انطفأ ذلك الحماس الذي سانده ودفعه إلى الأمام سعيداً واثقاً من نفسه.. انهارت تلك الثقة، وانهارت معها جميع المشاريع التي دعمها وأقامها بفن وبطرق لم يعد يفهمها هو نفسه. وهكذا بين يوم وآخر، تغير كل شيء، وأظلم في عينيه مظهر الناس والأشياء. ووجد نفسه فجأة تجاه ذات أخرى لا يعرفها مطلقاً، في عالم يكتشفه بذلك الذهول الذي يعتري أولئك الذين يعيشون وسط ضجيج الآلات، حين تتوقف فجأة، ويسود السكون.. ثم رأى أن الخراب الذي أصابه، لم يكن وقفاً عليه وحده، ولكنه أصاب والده، وأخاه، وزوجته الثانية، الذين أودعون رأس مال كبير.. غير أن صهره وحماه، قد يتألمان لهذا الإفلاس، ولكنهما قادران على النهوض من جديد.. أما هو فهلاكه تام.. لقد اختفى في بيته، مسحوقاً بشعوره بعجزه عن إصلاح النكبة التي حلت به كالصاعقة فغيرت مجرى حياته، أكثر من شعوره بوطأة الكارثة ذاتها.. أيتحرك؟ ولماذا؟.. لماذا يخرج من البيت؟.. عبث كل عمل.. كل خطوة.. عبث حتى الكلام.. ولاذ بالصمت منزوياً في أحد أركان البيت، متأملاً ثورة زوجته الباكية اليائسة، كأنه مجنون.. كله لحية وشعر مسترسل، إلى أن جاءه صهره غاضباً، ودفعه إلى الخروج دفعاً، بعد أن أرغمه بالقوة على حلاقة شعره.

هناك شيء يعمله ويكسبه عشر ليرات في اليوم.. يعمل مراسلاً لبنك زراعي صغير، افتتح حديثاً.. ماذا يفعل بجلوسه، هناك على المقعد؟.. لتخرج.. لتخرج.. ألم تكفك النكبة التي أصابتك حتى الآن؟!.. يريد أن يعيش هو، وزوجته، وأطفاله، على أكتاف ضحاياه.. لتخرج.

وها هو قد خرج من البيت منذ أيام، يعمل لحساب ذلك البنك الزراعي الصغير.. ولم يعد يعرفه أحد.. أذلك هو ماتيو سناجرا ؟.. في الحقيقة، لم يعد يعرف حتى نفسه!.. وأخيراً، في ذلك الصباح حين قابل أحد أصدقائه القدامى.. صديق عزيز، من أصدقاء الأيام السعيدة هو الذي بين له الحالة التي انتهى إليها.

من يكون هو؟.. لا أحد!.. لا لأنه فقد جميع ما يملك، ولا لأنه انتهى إلى تلك الحالة البائسة المثيرة، بثوبه الباهت، وقبعته البالية، وحذائه البائد.. لا. في الحقيقة، لم يعد أحداً.. إنه لم يعد فيه شيء سوى المظهر، وحتى المظهر تغير، ولم يعرف.. مظهر ماتيو سناجرا الذي كان له منذ ثلاثة أعوام خلت.. وفي المظهر الذي خرج به منذ قليل من البيت، لم يشعر بنفسه، ولم يعرفه الناس.. وإذاً!.. من يكون؟.. إنه آخر لم يعش بعد.. وينبغي له أن يتعلم كيف يعيش.. إذا لم يكن بد من حياة جديدة، بائسة، مضجرة، بعشر ليرات في اليوم.. أو تراها تستحق ما يبذله من عناء؟.. إن ماتيو سناجرا.. ماتيو الحقيقي مات.. مات تماماً منذ ثلاثة أعوام، صرحت بذلك في قسوة ساذجة، عينا ذلك الصديق الذي التقى به مصادفة، في ذلك الصباح.. لقد عاد هذا الصديق إلى البلدة بعد غيبة ستة أعوام، وكان يجهل كل شيء عن الكارثة التي حلت به، ولم يعرفه حين مر به في الطريق.

- ماتيو.. كيف؟!.. هل أنت ماتيو سناجرا ؟..

- يقولون..

- ولكن. كيف حصل هذا ؟..

ولبث ذلك الصديق يتأمله، وفي عينيه تعبير عن الذهول، والعطف، والاشمئزاز، فرأى نفسه ميتاً في هذين العينين.. ميتاً تماماً.. ليس فيه

ذرة من تلك الحياة التي كان يعيشها ماتيو سناجرا. وحين لم يجد ذلك الصديق كلمة ولا لفتة، ولا بسمة يوجهها إلى ذلك الشبح، أعرض عنه، وأدار له كتفيه، وتملكه حينذاك انطباع غريب، بأن جميع الأشياء قد خلت فجأة من معانيها، وبأن الحياة عبث باطل.. ولكن.. هذه الفكرة، هل وردت على ذهنه في هذا الوقت؟. كلا. والله.. هكذا منذ ثلاثة أعوام.. لقد مات منذ ثلاثة أعوام.. منذ ثلاثة أعوام، وهو لايزال هناك يمشي على قدمين... يمشي، ويتنفس، وينظر!.. ولكن. كيف؟.. إذا لم يعد شيئاً؟.. إذا لم يعد أحداً؟.. بذلك الثوب الذي مضت عليه ثلاثة أعوام، وبذلك الحذاء في قدميه منذ ثلاثة أعوام.. ألا يخجل من نفسه؟.. ميت يمشي على قدمين.. فليعد الكلب إلى جحره.. إلى المقبرة.. إن الأقارب، سوف يدبرون أمر الأرملة واليتيمين، إذا زال شبح هذا الميت من منتصف الطريق. ودس ماتيو سناجرا في جيب حزامه، المسدس، صديقه المخلص الذي يصحبه منذ أعوام.. وها هو الآن في الطريق التي تؤدي إلى المقبرة.. حقاً إنه لشيء مضحك، ومتعة عجيبة.. ميت.. يذهب بنفسه، وعلى قدميه، وعلى مهل، وبكل راحة واطمئنان، لملاقاة مصيره.. إن ماتيو يعرف تماماً أنه ميت.. ميت قديم.. بل ميت منذ ثلاثة أعوام، أتيح له هذا الوقت كله، لكي يفرغ من كل أسف على الحياة الضائعة. والآن إنه خفيف.. خفيف كالريشة.. لقد وجد نفسه، وعرف نوعه، وأصبح متحرراً من جميع القيود، مجرداً من كل المتاعب.. خالياً من كل ثقل. فالقبعة بالية، والثوب باهت، والحذاء بائد، ومظهر بلاهة يمنحه العزاء، يتوجه إلى المقبرة، لكي يستريح في اطمئنان.. وها هي الطريق التي تقود إلى المقبرة، يمر بها كميت للمرة الأخيرة، دون أمل

في العودة، تتمثل له في وضع جديد، ببهجة التخلص الذي لا يوجد حقاً إلا خارج الحياة، فيما وراء الحياة.

إن الموتى يعبرون الطريق، في عربات، وفي توابيت ممدودة، ولكنه يمشي، ويتنفس، ويمكنه أن يلتفت هنا وهناك، ويتأمل الأشياء المحيطة به، وينظر بعينين جديدتين إلى الأشياء التي لم تعد موجودة من أجله، والتي فقدت معناها في نظره.. الأشجار. آه انظر.. هل كانت هكذا هذه الأشجار؟.. كانت هكذا، وتلك الجبال هناك.. لماذا؟.. تلك الجبال الزرقاء، وفوقها تلك السحابة البيضاء.. السحاب.. يا له من شيء عجيب. وهناك البحر.. هل كان هكذا لك البحر؟.. إن للهواء نكهة جديدة تتسرب إلى رئتيه، وعذوبة طرية على شفتيه، وفي خياشيمه الهواء.. آه، يا لها من عذوبة.. إنه يتنفسه.. إنه يشربه الآن كما لم يشربه في يوم من أيام حياته.. كما لم يشربه أحد في الحياة.. إنه هواء ولا كالهواء.. إنه لا يستنشقه لكي يعيش.. إن هذه العذوبة التي لا تنفذ، لا يمكن أن ينالها الموتى الآخرون الذين يمرن بهذه الطريق في عربة، ممدودين في ظلام التابوت.. حتى الأحياء لا يمكنهم أن ينالوها، الأحياء الذين يعرفون أن يستمتعوا بها بعد الموت.. مرة واحدة وإلى الأبد.. حية خالدة، حاضرة، مرتعشة.. إن الطريق لا يزال طويلاً غير أنه يمكنه أن يتوقف هنا.. وفي الخلود، إنه يمشي، ويتنفس في نشوة مقدسة مجهولة من قبل الأحياء.

حصاة في الطريق.. انحنى ماتيو ورازها في يده.. حصاة؟ هل كانت هكذا الحصاة؟.. أجل. ها هي قطعة صغيرة من صخرة.. قطعة من

أرض حـيـة.. من هذه الأرض الحـيـة.. قطعـة من الوجـود.. ها هي في جيبه، وستصحبه إلى القبر.. وتلك الزهرة الصغيرة.. أجل. حتى هذه الزهرة الصغيرة، سوف تثبت هنا، في عروة سترته.. ذلك الميت الذي يذهب بنفسه هادئاً، سعيداً، على قدميه، إلى قبره، كأنه ذاهب إلى حفلة والزهرة في عروته.. ها هو يدخل المقبرة.. بعد خطوات قليلة سيكون الميت في بيته.. بلا دموع.. إنه يأتي بنفسه، وبخطوات رشيقة، والزهرة في عروته.. إنه لمنظر جميل.. منظر هذه الصنوبرات التي تحرس مدخل المقبرة.. إنه بيت متواضع، يقع فوق هضبة، بين أشجار الزيتون.. هناك مئات المدافن ليس لها أي مظهر فني.. الإقامة في مثل هذه المقبرة، يحسد عليها الأموات، بعيدة عن البلدة، لا يغشاها الأحياء، إلا قليلاً. دخل ماتيو سناجرا وحيا الحارس العجوز الجالس إلى يمين المدخل، شاله الصوفي فوق كتفيه، وقبعته مائلة على أنفه.

- إيه بنيوكو!

ولكن بنيوكو كان نائماً.. ووقف ماتو يتأمل نوم ذلك الحس الوحيد بين عدد كبير من الأموات -وبصفته ميتاً- أحس بحنق وسخط على هذا العجوز الذي يهمل واجبات الحراسة.

نوم فوقها، ونوم تحتها.. إنه لنوم كثير.. ينبغي أن يوقظ بنيوكو ويقول له:

- ها أنا.. إنني من أتباعك.. لقد جئت وحدي على قدمي، ولكي أوفر على أقاربي، بعض النقود.. ولكن. أهذه هي العناية التي نستحقها منك؟..

دعك من هذا الهراء.. إن بنيوكو لمسكين.. ما حاجة الأموات إلى الحراسة؟ وما الذي يتبقى للعجوز إذا تفقد بعض الخمائل، وأوقد هنا وهناك بعض المصابيح التي لا تنير سبيل أحد.. وكنس بعض الأوراق الذابلة المتساقطة من الشجر؟.. إن طنين الذباب، وحفيف أشجار الزيتون، فوق تلك الهضبة، تغريه بالنوم.. إنه هو الآخر ينتظر الموت.. وهو في انتظاره ينام بصفة مؤقتة فوق الأموات المتعددين الذين ينامون بصفة دائمة تحت الأرض.. ربما يستيقظ بعد قليل، حين يسمع طلقة المسدس.. وربما لا يستيقظ.. إن المسدس صغير، وهو يغط في نوم عميق.. بعد قليل في المساء.. سوف يقوم بجولة تفقدية أخيرة، فيبصر جثته السوداء في إحدى الطرق..

- ما هذا ؟!.

لا شيء يا بنيوكو.. شخص يبتغي الإقامة تحت الأرض.. نادهم.. نادهم يهيئون له فراشاً هناك، في أحسن مكان، ودون اعتبارات كثيرة.. لقد جاء بنفسه لكي يوفر على أقاربه بعض النفقات، ولكي يستمتع بالوصول إلى بيته في صحة جيدة، وبعينين مفتوحتين، وفي وعي تام.. لتترك تلك الحصاة في جيبه.. تلك الحصاة التي جفت من طول مكوثها تحت الشمس.. ولتدع له هذه الزهرة في عروته.. إنها أمنيته الأخيرة كميت.. لقد قطفها بنفسه وقدمها إلى نفسه عوضاً عن جميع الأكاليل التي لن يهديها إليه أقاربه وأصدقاؤه. إنه هناك. لا يزال فوق الأرض.. ولكن كأنه جاء من تحت الأرض، بعد ثلاثة أعوام، ليرضي فضوله برؤيته تأثير هذه المدافن، فوق الهضبة، بين الخمائل والمسارب.. وهذه الصلبان السوداء، وهذه الأكاليل الحديدية في جناح الفقراء..

حقاً إنه لتأثير عجيب.

ودخل مـاتيـو سناجرا صـامـتـاً هادئاً دون أن ينبس بكلمـة.. دون أن يوقظ بنيوكو.. ولكن لا يزال في الوقت متسع للنوم.. فليتجول في طرق المقبرة، حتى المساء.. منتظراً -بصفته ميتاً- منظر طلوع القمر.. ثم بعد ذلك.. ليلة طيبة.

الأفكار الثلاثة للحدباء الصغيرة

ظلت حتى عامها التاسع، تتمتع بهيكل طبيعي، فقد ولدت ميلاداً طبيعاً، ونمت نمواً طبيعياً. وحين بلغت التاسعة، فكأنما أخرج القدر قبضته الغليظة الخفية من الظلام، وأنزلها على رأسها قائلاً: إلى هنا.. ومن هناك، فجأة توقفت عن النمو، وظهر على ظهرها نتوء، وظلت مشدودة إلى الأرض لا تزيد قامتها على متر.

وأدرك الأطباء في الحال، مستعينين بعلمهم وبكل ما لديهم من خبرة، بأنها لن تنمو أكثر مما نمت، وأصدروا أحكامهم في كلمات علمية مختصرة. ولكن كيف السبيل إلى إقناع ساقيها وصدرها بالتوقف عن النمو!.. فصدرها لم يتوقف عن النمو منذ اليوم الذي ولدت فيه، وتحركت إرادة النمو في ساقيها دون الاهتمام بأي تعليل أو تفسير. ولما كان من المتعذر أن تنمو طولاً تحت وطأة تلك الضربة الماحقة، فقد نمت عرضاً.. فالساقان عوجاوان، أما نصفها الأعلى فقد احدودب من الخلف وبرز من الأمام، كل ذلك لكي ينمو!..

ألا ينشأ كثير من الشجر وقد علقت به العقد والنتوءات، أو بأغصان كسيحة؟.. إن ذلك يحدث غالباً ولكن مع هذا الفارق، إن الشجرة ليس لها عيون تبصر بها، ولا قلب تحس به، ولا عقل تفكر به..

إن الشجر الكسيح لا تسخر منه، ولا تهزأ به الأشجار الطويلة، ولا تتحاشاه نظرات الناس خوفاً من العين الشريرة، ولا يهرب عنه الطير. أما هي فمسكينة.. يهرب منها الصغار والكبار. ثم إن الشجرة لا تقع في الحب ولا تعرفه، إنها تزهر في مايو، تلقائياً وطبيعياً رغم كساحها، وتثمر في الخريف.

إنها شيء أسيء إخراجه، ولا يمكن إصلاحه بأي وجه من الوجوه. فالذي يكتب رسالة ثم لا تروقه يمزقها، ويعيد كتابتها من جديد.. ولكن الحياة لا يمكن أن تمزقها مرة واحدة ثم تبدأها من جديد.. هذه مشيئة الله.

وتجد نفسها في بعض الأحيان، تنصرف عن الإيمان بالله حين تتأمل ما يحيط بها من واقع أليم، ولكنها كانت تؤمن به، وهي تؤمن بالذات لأنها ترى ذلك الواقع المؤلم.. أي تفسير أحسن من هذا الذي يقنعها بأن العذاب الذي عاشته طوال حياتها، وتقبلته في براءة ودون ذنب، لا بد أن يزول في لحظة خاطفة، ثم تجد نفسها مستقيمة القامة، رشيقة الخطو، سريعة، سامقة، وقد زال جميع ذلك العناء.. إنه لواضح أن الله، لغاية لا تعرفها، أراد لها هذا المصير، وينبغي أن تتظاهر بالإيمان، وإلا فإنها ستكون يائسة. وهي حين تفسره بهذه الطريقة ربما رأت في ألمها العظيم، خيراً عظيماً وجليلاً، وهناك في السماء.. أي ملاك جميل ستكون كلمنتينا ؟!.

وها هي تبتسم في بعض الأحيان للناس الذين يتطلعون إليها في الشارع، كأنما تريد أن تقول لهم: «لا تضحكوا مني.. ألا ترون أني أسبقكم إلى الضحك؟! إنني لم أصنع نفسي، لقد أراد الله ذلك، فلا

تتضايقوا، كما لن أتضايق أنا أيضاً، لأن الله إذا أراد هذا، فإني متيقنة أنه يدخر لي جزاء في المستقبل..» وعلى كل حال، فإن الساقين لا تظهران تحت الثياب، إن الله وحده هو الذي يعلم ما تكابده من آلام عندما تمشي بتينك الساقين.. ومع ذلك كانت تبتسم!..

وزاد في ألمها ذلك المجهود الذي تبذله حتى تتجنب نظرات الناس، ولا تبدو بمظهر المتمايلة المترنحة. كان من المستحيل أن تمر دون أن يلاحظها أحد، ولكنها كانت تسير بخطوات خفيفة، سريعة، في احتشام، وهي تبتسم.. ولم يكن طريقها يخلو من بعضهم يواجهها بقسوة، ويلاحظها بوجه يكتسي بمسحة من الأسف، ولكنه لا يلبث أن يعود إليها من ناحية أخرى كأنه يرغب في فهم ما تصنع بتينك الساقين عندما تمشي.. ولا تفلح ابتسامتها المعتادة، أن ترد تلك النظرات الفضولية أو تخجلها.. فتخجل هي، ويتضرج وجهها، وتطرق حياء حتى تكاد تفقد توازنها وسيطرتها على نفسها، فتوشك على الوقوع والتدحرج على الأرض، وحينئذ يزداد حنقها وغضبها، فترفع ثيابها، وتصرخ في وجه الفضولي القاسي:

- ها.. انظر. ودعني الآن أمشي في سلام.

لم يعرفها أحد في هذا الحي حتى الآن. غيّرت كلمنتينا مسكنها منذ أسابيع قليلة. كان الجميع يعرفونها في ذلك الحي الذي كانت تسكنه سابقاً، ولم يعد يضجرها أحد هناك، سيكون هذا مصيرها هنا في هذا الحي.. بعد قليل، ولكن لا بد من الصبر.. إنها سعيدة جداً بالبيت الجديد، الذي يقع في ميدان هادئ نظيف. وهي تعمل من الصباح إلى المساء، بلطف ومهارة في صنع أجهزة العرسان والمواليد.

أما أختها (كان لكلمنتينا أخت تسمى لاورتا، تصغرها بخمس سنوات، وهي مستقيمة القامة، رشيقة وجميلة جداً، شقراء، تعمل صانعة أزياء في أحد المتاجر. تخرج من الثامنة صباحاً فلا تعود إلا في السابعة مساء). لقد تناوبتا وظيفة الأم.. قامت به كلمنتينا أولاً، وتقوم بها الآن لاورتا، رغم أنها أصغر سناً. ولكن ماذا تفعل، إذا كانت كلمنتينا قد ظلت، بفعل الكارثة التي حلت بها، كأنها طفلة في العاشرة؟.. لقد اكتسبت لاورتا خبرة عظيمة من الحياة.. ترى ماذا يكون مصيرها، لو لم تكن إلى جانبها؟..

وكانت كلمنتينا تصغي إلى أختها، وهي فاغرة الفم، مندهشة، ذاهلة، هاتفة: بحق المسيح، يا لها من أشياء غريبة، هذه التي تتحدثين عنها. وهي تعرف الآن، أنها بساقيها المشوهتين، لا يمكنها أن تدخل ذلك العالم الغريب الذي تدخله أختها. إنها لا تحسدها، ولكن تحس بخوف غامض، يمتزج بلوعة وأسف على نفسها.. فبين يوم وآخر، ستنغمس أختها في ذلك العالم الذي خلق لها، كيف يكون حال كلمنتينا المسكينة حينذاك؟.

لقد أكدت أختها وأقسمت أنها لن تتركها، ولن تتخلى عنها أبداً، ولو تزوجت.

وكلمنتينا تفكر الآن في زوج أختها المقبل ترى من يكون؟.. وكيف يتعارفان؟.. ربما يتلاقيان في الشارع، نظرة، ثم ملاحقة، وقفة مناجاة في إحدى الأمسيات.. ترى بماذا يتناجيان؟.. إنها لشيء سخيف هذه المغازلة. وبعينين والهتين كانت تجلس أمام منضدة قرب النافذة، تسبح في خيالاتها. لا تجد القدرة على مباشرة عملها المركب على جهاز التطريز، وتنظر خارج النافذة.. ما هذا الذي ترى؟!.

إنه شاب!.. شاب جميل وأشقر، ذو شعر مسترسل طويل، ولحية كلحية الرهبان، يطل من نافذة البيت المقابل، معتمداً بذراعيه على حافة النافذة، واضعاً رأسه بين يديه.

أهذا ممكن؟!. إن نظرات الشاب مصوبة إليها في حدة عجيبة!.. يا إلهي ما أشد شحوبه!.. لا بد أن يكون مريضاً.. إن كلمنتينا تراه الآن للمرة الأولى، في تلك النافذة، وها هو يتابع النظر إليها، وتضطرب كلمنتينا، فترسل زفرة تشعرها بالراحة والانتعاش. وكانت أول فكرة طافت بذهنها هي هذه:

- إنه لا ينظر إلي.

لو كانت أختها لاورتا في البيت، لكان من المحتمل أن تفكر أن هذا الشاب إنما ينظر إليها، ولكن لاورتا لا تمكث مطلقاً في البيت أثناء النهار. ربما كانت في نافذة البيت الصغير المجاور فتاة جميلة يبادلها الغرام.. ولكن نظراته تدل على أنه ينظر إليها!.. إليها هي بالذات.. إن هذا مستحيل!.. ماذا!.. لقد أشار إليها الشاب بيده كأنما يحييها، هل التحية إليها؟!.. لا. لا.. لا بد أن تكون فتاة أخرى تطل من نافذة أخرى.

وأطلت كلمنتينا من النافذة، بعد أن صعدت الكرسي الذي صنع خصيصاً لها، ودون أن تشعر، نظرت إلى النافذة المجاورة، ثم النافذة الأخرى، ثم نظرت تحت نافذتها حيث الدور السفلي، ثم إلى نافذة الدور العلوي. ليس هناك أحد في جميع هذه النوافذ!...

وفي استحياء، نظرت إلى الشاب نظرة خاطفة، فأذهلها أن يشير إليها من جديد.

هذه المرة، لا يمكن أن تشك، في أنه يشير إليها بالذات. وهربت كلمنتينا من النافذة، وهربت من الحجرة بقلب خافق. ما أغباها!.. لا بد أن يكون هناك خطأ، ذلك مؤكد.. إن ذلك الشاب لا بد أن يكون ضعيف البصر، ربما توهمها لاورتا.. أجل. ربما لاحق لاورتا في الطريق، وعرف أنها تسكن هنا، في البيت المواجه.. إنه لا يمكن أن يكون ضعيف البصر إذاً، بل هو أعمى تماماً، ومع ذلك لا يضع نظارات على عينيه، حقاً. إن كلمنتينا ليست قبيحة الوجه، إنها تشبه أختها قليلاً، ولكن القوام؟.. ذلك هو مصابها.. من يدري، ربما توهمها في مجلسها ذاك، فوق الوسادة على الكرسي، وأمام جهاز التطريز، فخدعه بصره، وظن أنه يرى لاورتا منصرفة إلى العمل.

وفي مساء اليوم نفسه، سألت أختها، التي أسقط في يدها وتساءلت:

- أي شاب؟!..

- إنه هناك.. أمامنا.. ألم تنتبهي إليه؟!..

- أنا؟.. كلا. من يكون؟..

ووصفته كلمنتينا بدقة متناهية، وصرحت لاورتا بأنها لا تعرفه، ولم تعرف عنه شيئاً، ولم تقابله قط، ولم تره من بعيد أو قريب.

وتجددت الحكاية في اليوم التالي.. هو هناك في الوضع نفسه وقد أسند ذراعيه إلى النافذة، ورأسه الجميل بين يديه، وكان ينظر إليها بالنظرات الملحة العجيبة نفسها، التي كان ينظر بها في اليوم السابق. ولم تعد كلمنتينا تشك في أن ذلك الشاب، الذي يبدو حزيناً ملتاعاً، إنما يريد أن يبهج نفسه بالسخرية والاستهزاء بها. ولكن لماذا يفعل

ذلك؟.. إنها منكوبة مسكينة، لا تستطيع أن تأخذ هذه السخرية المرة مأخذ الجد، ولا تستطيع أن تخدع نفسها بهذا الحب الذي يحاول أن يملأ به قلبها، وإذاً؟.. إنه يعيد الإشارة نفسها التي قام بها أمس. يحييها بيده، ويحني رأسه أكثر من مرة، كأنما يريد أن يقول: (إليك.. أجل. إليك).. ثم يخفي وجهه بين يديه، في ألم واضح.

إن كلمنتينا، لم تعد تقدر على البقاء هناك قرب النافذة، وهبطت من كرسيها، خافقة القلب، كأنها حيوان صغير محاصر، وتوجهت إلى نافذة الحجرة المجاورة، ترقب الشاب في خلسة، من خلف الستائر المسدولة فوق النوافذ، رأته يبتعد عن النافذة، ولا ينظر إلى الخارج، ولكنه بقلق يلتفت من حين إلى آخر نحو نافذتها ليرى ما إذا كانت قد عادت.. إنه ينتظرها!

ماذا تفترض كلمنتينا؟..

لقد طافت بذهنها هذه الفكرة الثانية:

- إنه لا يرى جيداً هيئتي وتكويني..

وفكرت في هذا التخلص: أن تدنو من المنضدة القريبة من النافذة ثم تأخذ قطعة قماش، ثم تصعد فوق المنضدة، ولو بمشقة، ثم تقف على قدميها، متظاهرة بتنظيف زجاج النافذة.. وهكذا يمكنه أن يتبينها تماماً ويرى هيئتها، ويتركها في سلام.

ولكن كلمنتينا كادت تسقط إلى الشارع، وتهوي من النافذة، حين فطنت إلى أن الشاب قد أبصرها في ذلك الوضع، فوقف وأخذ يشير إشارات غاضبة، معبرة عن خوفه عليها، مشيراً إليها أن تنزل.. لتنزلي.. ويضم يديه إلى صدره، في هيئة رجاء، ثم يضع رأسه بين يديه، صارخاً فيها.. أجل. إنه يصرخ الآن.

ونزلت كلمنتينا من فوق المنضدة، بأسرع ما يمكن، ونظرت إليه بعينين ذاهلتين، وهي ترتجف. ونظر إليها بعينين جاحظتين ثم مد يده نحوها، وبعث إليها بقبلاته.

- إنه مجنون..

هكذا فكرت كلمنتينا، وهي تضم يديها في أسف.

- مجنون.. يا إلهي إنه مجنون.

وأكدت ذلك أختها لاورتا حين عادت في المساء.. فقد أثارت أسئلة أختها كلمنتينا فضولها، فتحرت عن ذلك الشاب، وتعقبت أخباره، فقيل لها أنه قد جن منذ عام تقريباً، حين ماتت خطيبته التي كانت تسكن هناك.. حيث تسكن الآن لاورتا وكلمنتينا.. وقبل أن تموت تلك الخطيبة كانت قد بترت ساقها الأولى، ثم الثانية، بسبب مرض خبيث.

وهذا هو السبب الذي ملأ عيني كلمنتينا بالدموع حين أصغت إلى أختها، وهي تقص تلك الحكاية.. ترى.. أكانت تبكي نفسها؟.. أم تبكي ذلك الشاب؟.. ثم ابتسمت شاحبة، وقالت لأختها لاورتا، في صوت مرتجف:

- أتدرين؟.. لقد تصورت أنه كان ينظر إليّ.

إلى الفأس

كانت الكارثة التي حلت بالعجوز سيرولي منذ شهر، وقد أسلمته إلى الذهول والأرق، فلم يغمض له جفن طوال ليالٍ عديدة، وفي تلك الليلة، وعلى صوت تدفق المطر الغزير، أفاق من صدمته وقال لزوجته التي كانت مؤرقة متضايقة مثله:

- غداً إن شاء الله سنعزق الأرض.

وما أن أطل الفجر حتى كان أبناؤه الثلاثة الذين امتصتهم الملاريا، وأذبلت كيانهم، وأصابت وجوههم بالشحوب والاصفرار، يعزقون الأرض، في صف واحد. صحبة فلاحين يعملون بأجر يومي. ومن حين إلى آخر، كان أحدهم يتوقف، ويعتدل بقامته، مجففاً عرقه، ماسحاً عينيه بالمنديل القطني الخشن. فيهتف به الفلاحان الأجيران:

- تشجع.. إنه ليس شيئاً قاتلاً على كل حال.

فيهز رأسه، ثم يتفل في كفيه الخشنتين المورمتين. ويواصل العزق.

وبين الأشجار الكثيفة، الملتفة هناك، عند الساحل، كانت تتردد من حين إلى آخر آهة موجعة، غاضبة. فقد كان العجوز سيرولي الذي لا تزال به بقية من قوة وعافية يراقب من هناك. ويصاحب جهوده وجهود أبنائه، المضنية، بتلك الآهة المريرة.

أما الريف، الذي غزته الملاريا خلال أشهر الصيف، فقد كان يبدو منتعشاً بهطول تلك الأمطار الغزيرة، في الليلة السالفة، وقد فاض وادي دراجو وجرى في تدفق بهيج بعد أشهر طويلة من الجفاف.

منذ أكثر من أربعين عاماً والعجوز سيرولي يقوم بفلاحة أراضي سانتانا بالمشاركة. وقد تعاقبت عليه فصول عديدة في هذا المكان، واستطاع هو وزوجته أن ينتصرا على المرض المنتشر في هذه المنطقة. وأن يتمتعا بحصانة ضده. وإذا قدر الله، وبمرور الأيام. فسوف ينعم أبناؤهما الذين يتعذبون الآن بمثل هذه الحصانة التي ترد إليهم العافية والسلامة لقد مات لهما ثلاثة أطفال. ولدان وبنت. كما ماتت زوجة الابن الأكبر، وخلفت طفلة عمرها ست سنوات يخشى ألا تكون قادرة على مقاومة هذا المرض.

لقد اعتاد سيرولي أن يرد في خشوع، مغمض العينين:

- إن الله هو الذي يملك كل شيء. إذا أرادها فليأخذها، لقد اختار لنا هذا المكان. وفي هذا المكان ينبغي أن نتعب ونكافح ونتعذب.

لقد كان قوي الإيمان إلى هذا الحد. وكان يستسلم في إذعان وبكل طواعية، لكل مقاومة قاسية، ويتقبلها على أنها مشيئة إلهية. وما كان لشيء أن يهده أو يحطمه إلا إذا كان في ثقل هذه الكارثة التي حلت به.

لقد كان في حاجة إلى سواعد تساعده في خدمته. ومع ذلك فقد قرر أن يهب أحد أبنائه. إنه أمل يحمله جميع الفلاحين في نفوسهم، أن يخرج من صلبهم ابن قسيس. ولقد استطاع أن يحقق هذا الأمل، غير مدفوع بطموح سوى أن يحتسبه أجراً عند الله. وبمجهود جبار كان يبذله في التقتير على نفسه، وحرمانها من كل شيء استطاع أن يقوم بتعليم

ابنه في المعهد الديني بالمدينة القريبة. وكان عزاؤه الأكبر أن يراه قسيساً. وأن يحضر أولى صلواته.

إن ذكرى تلك الصلاة التي حضرها، لا تمحى من نفس هذا العجوز، لأنه شعر بالوجود الإلهي في ذلك الوقت. وكان يتمثل دائماً صورة ابنه بثيابه الرهبانية الزاهية المزركشة يتحرك في بطء أمام الهيكل المقدس، شاحباً، مرتجفاً، يضم ذراعيه إلى صدره، ثم يفتحهما، ثم يلتفت إلى الحاضرين، مردداً الكلمات المقدسة.

إن سر الصلاة لم يبد له قط بمثل هذه الأبهة والفخامة والجلال. وكان يتابعه بنفس هائمة منطلقة من حواسها، مرتجفاً، محاصراً بغصة لذيذة. وأصغى إلى زوجته التي تبكي بجواره، وهي عجوزه القديسة التي أبكته هو الآخر، ودون أن يشعر وجد نفسه يسجد حتى لامست جبهته الأرض، حين رن الناقوس، في لحظة الصعود السامي.

ومنذ ذلك اليوم، شعر -وهو العجوز المسن- الذي جرب الحياة وخبرها، إنه طفل أمام ابنه القسيس.

لقد مضت حياته كلها في غمرة من البؤس، ومتاعب كثيرة، ولكنها كانت نظيفة ناصعة غير ملطخة. وما قيمتها أمام صفاء ذلك الابن القريب من الله وطهارة قلبه؟

وأخذ يتحدث عنه كما يتحدث عن قديس. ويصغي إليه فاغر الفم، والسعادة تملأ نفسه، حين يأتي لزيارته في مكتبه حيث عين مدرساً بفضل ما أبداه من حماسة ونبوغ.

أما الأبناء الآخرون الذين كتبت عليهم متاعب الحياة الريفية، والتعرض للموت، فلم يحسدوا أخاهم على هذا المصير، بل كانوا

يفتخرون به ويعتبرونه مفخرة الأسرة. وحين يمرضون كان يريحهم تفكيرهم بأن هناك أخاهم يصلي من أجلهم.

ولقد نزل خبر تلطخه بفاحشة مع أطفال الميتم الذين أودعوا لرعايته، نزول الصاعقة على ذلك البيت الريفي الذي يقطنه ذلك العجوز. أما الأم فلم تستطع، لبراءتها وسذاجتها، أن تكوّن فكرة عن الجريمة التي ارتكبها ابنها، ولذلك ظلت ذاهلة، مندهشة، لا تكاد تصدق ما تسمعه أذناها.

- جيوفاني؟ ما هذا الذي تقوله؟

وتوجه سيرولي إلى المدينة، ليحصل على أخبار أكثر دقة وأمانة، وفي نفسه أمل خفي أن يكون الأمر مجرد كذبة مختلقة. وقصد عدداً كبيراً من معارفه. فاضطربوا جميعاً عند رؤيته واحتقروه وأجابوه في غلظة وقسوة، وبعضهم تجنب حتى رؤيته. وقصد لوبرانو صاحب الأرض التي يفلحها، وكان رجلاً متلاعباً مكاراً، يعمل مستشاراً في البلدية وهو صديق الجميع، وبصفة خاصة الأسقف والعميد، فاستقبله أسوأ استقبال وصرخ فيه:

- حالك حسنة الآن؟ تريده قسيساً؟ من عازق أرض إلى قسيس؟ هل أنت سعيد الآن؟ ها أنت ذا تجني ثمرة تطلعك إلى الصعود بأي ثمن. دون استعداد ودون المعرفة اللازمة. ثم هدأ، ووعده بأن يعمل كل ما في وسعه لخنق تلك الفضيحة تمجيداً للإنسانية، فلتفهم أنني أفعل ذلك بحكم الاحترام الذي يجب علينا جميعاً نحو الدين المقدس، لتفهم أني لا أفعل ذلك من أجل ذلك الخنزير أو من أجلك.

وعاد العجوز المسكين إلى الريف كأنه كلب مضروب. لقد تحقق الآن من جريمة ابنه، الذي اختفى وهرب من المدينة حتى يتجنب غضبة الناس.

ولم يعد العجوز تحت وطأة الشعور بالخجل والخزي من هذا العمل الدنيء يحس بالأمن ولم يجسر على رفع عينيه إلى وجه أحد.

كان هناك متسلقاً إحدى الأشجار حيث يستطيع أن يعمل ويبكي لوعته دون أن يلحظه أحد. ولكنه لم يبك لم يذرف دمعة واحدة، منذ ذلك اليوم. كان يعتبر حياته وحياة زوجته مفعمة بتقوى الله وخشيته. ولم يستطع أن يفهم كيف ولد منهما ذلك المسخ. وكيف استطاع، طوال أعوام عديدة، أن يخدعه حتى ظنه قديساً. فصمم على أن يهبه إلى الله. ومن أجله ضحى بأولاده الآخرين الطيبين الوديعين المخلصين. أولاده الذين يعزقون الأرض هناك، يا لهم من أبناء مساكين إنهم لم يشفوا تماماً من حماهم الأخيرة. إن الله الذي أهانه بهذه الفعلة لا يمكن أن يغفر له أبداً. إن لعنة الله ستحل دائماً على بيته. إن العدالة البشرية سوف تقتص من ذلك البائس الطريد. وسوف تكتشفه وتخرجه في النهاية من مخبئه الذي ذهب يواري فيه فضيحته الشائنة، ولسوف يموت العجوز وزوجته من هذه الوصمة.

بينما كان غارقاً في هذه التأملات المؤلمة، بلغه صوت ابنه الأكبر يناديه: با.. اقدم. لقد وصل.

فشعر العجور برجفة تسري إلى كيانه، وأمسك بأحد أغصان الشجرة حتى لا يفقد توازنه -لقد وصل جيوفاني وماذا يريد منه؟ وكيف استطاع أن يجسر فيضع قدمه في بيت والده؟ ويرفع بصره إلى أمه؟

وصرخ صرخة حانقة، وهز في انفعال غصن الشجرة:

- أسرع. قل له ليذهب في الحال. لا أريده في بيتي.. لا أريد..

فنظر ابنه الأكبر إلى بقية إخوته يستشيرهم في الأمر، ثم توجه نحو البيت الريفي، حيث وجد ابنة أخيه مبتهجة بعودة عمها القسيس.

وفي فناء الدار، وجد أحد الفلاحين جالساً على مصطبة، قرب الباب. وكان واضحاً أن القسيس قد وصل معه.

- أين والدك؟

تساءل ذلك الرجل، رافعاً رأسه وفي يده غصن كان يعبث به، وينبش به بعض الأعشاب النابتة بين الحصى.

- لا يريد أن يراه. ولا يريده في البيت. ولقد جئت لكي أبلغه ذلك.

- تمهل. وعد إلى والدك وقل له إني أريد أن أتحدث إليه باسم السيد لوبرونو. اذهب.

ففتح كارمين ذراعيه وعاد من حيث أتى. ونادى الفلاح الطفلة الصغيرة التي كانت تنظر في ذهول وعجب، ولم تستطع أن تفهم هذا السر الذي يجعلهم يمتنعون عن الترحيب بعمها القسيس. كيف لا يكون هناك احتفال كبير؟ وضمها إليه بين ركبتيه، وهمس في بسمة حزينة انطبعت تحت شاربه الكثيف.

- امكثي هنا. لا تدخلي أيتها العزيزة الصغيرة. إنك صغيرة حتى أنت ولا أحد يضمن..

ثم عاد كارميني مع أخويه، وطلب من المبعوث أن يدخل الحجرة الأرضية الفسيحة الرطبة، في إحدى جوانبها معلف الحيوانات، وحمار ينتزع في صبر حصته من التبن. وفي الجانب المقابل سرير حديدي كبير غير متوازن فوق أرض الحجرة المفروشة بالحصى. كان ينام عليه الإخوة الثلاثة بالتناوب، فكان بعضهم يلتزم بالحراسة في الحقل. أما بقية الحجرة فقد كان مشغولاً بالأدوات الزراعية.

وسلم خشبي يقود إلى حجرة المنشر حيث ينام العجوز وزوجته والطفلة اليتيمة.

كان القسيس جالساً على السرير، واضعاً رأسه بين ذراعيه. وكانت أمه ترمقه بعينين ذاهلتين، وتبكي في غير توقف، في صمت، كأنما تريد أن تذيب في تلك الدموع قلبها وكل ما تبقى لها في الحياة.

وحين شعر القسيس بدخولهم، رفع رأسه، ورمقهم بنظرة شزراء. ثم أخفى رأسه بين ذراعيه. وكان إخوته الثلاثة يتأملون وجهه المتغير الشاحب ولحيته الخشنة، وينظرون إليه نظرة يختلط فيها التعبير عن الرحمة بالاحتقار. لاحظوا ثوبه ممزقاً في أكثر من موضع وقد ضاع من حذائه أحد الخيوط الفضية.

وحين أبصرت العجوز أبناءها الثلاثة انفجرت في البكاء وغطت وجهها بيديها.

- اسكتي يا أماه.

قال ذلك ابنها الأكبر كارميني في صوت أجش. وجلس فوق الصندوق قرب السرير مع بقية إخوته، هادئين صامتين، وقد علاهم جميعاً شحوب. كانوا يغطون رؤوسهم بالنوع نفسه من القبعات السوداء، ويجلسون في صف واحد الجلسة نفسها، وهم في الهيئة نفسها.

وأخيراً ظهر العجوز في فناء الدار، يمشي منحني الرأس، ينظر إلى الأرض ويضع على رأسه قبعة شبيهة بقبعات أولاده، ولكنها مخضرة اللون كثيرة الثقوب. كان شعره نامياً ولحيته مهملة أكثر من شهر.

ونهض مبعوث لوبرونو. وأبعد عنه الطفلة وهو يهتف:

- لتفرح يا سيرولي.. لتفرح.. أقول لك.. لقد سوي كل شيء.

وحدق إليه ملياً بعينين جمدهما الألم دون أن ينبس بكلمة، كأنه لم يفهم ولم يعِ.

ولكن هذا المبعوث كان رجلاً مرحاً فوضع يده فوق كتفه، في مظهر الحماية وهو يكرر:

- لقد سوي كل شيء.. وأصلح..

حين يمنحنا الحظ أسياداً يحبوننا بفضل إخلاصنا، فإن مثل هذه الأشياء تكون عبثاً يمكن إصلاحه ببساطة.

إنها أفعال صبيان، على كل حال. هل أنا واضح؟

لقد سوي الأمر دون أن تترتب عليه أية نتائج. ومع ذلك فلم أرد لهذه الصغيرة أن تدخل هناك.

فارتجف العجوز متسائلاً:

ماذا تقصد بقولك هذا؟

فرفع الرسول يده عن كتف العجوز، ووضعها في يده الأخرى خلف ظهره وأبرز صدره، ورفع رأسه، ونظر إلى العجوز من أعلى ونفخ في تضجر:

- ها آنا ذا. إن السيد، احتراماً للزي الذي يرتديه ابنك في غير جدارة ولا استحقاق، وشفقة عليك، فعل كثيراً وتحدث كثيراً حتى أقنع أقارب أولئك الأطفال بالعدول عن القضية. والكشف الطبي في صالحهم. ويمكن الآن أن يعود ابنك إلى اشيرالي.

ولكن العجوز رفع رأسه بعد أن كان يصغي إليه:

- إلى اشيرالي؟

- أجل يا سيدي.. لقد اتفق أسقفنا مع الأسقف هناك.

فسأل من جديد:

- اتفقا.. اتفقا حول أي موضوع.

- حول سوء التصرف.. أنا معهم بحق الإله؟ أعني أنهم سيغضون البصر، ولن يثار الموضوع مطلقاً.

فضم العجوز قبضة يده وشحب، ثم غمغم:

- هل يفعل الأسقف هذا.

- هذا وأكثر. سوف يمكث ابنك هناك عاماً أو عامين تكفيراً عن سيئته، حتى ينسى الناس الحادث ولا يثيرون الحديث عنه. ثم يعود ويستعيد مكانته. اطمئن.

فصرخ فيه وهو يشير بيديه إلى البيت:

- هو؟ يعود ليلمس بيديه القذرتين تلك المقدسات؟

فهز كتفيه مازحاً:

- إذا غفر الأسقف.

- إذا غفر الأسقف فلن أغفر أنا.. تعال وانظر.

أجاب ذلك في سرعة، حانقاً، وهو يطلم صدره المجوف بيده المشوهة.

دخل الحجرة الأرضية، وهرع إلى السرير الذي كان يجلس عليه القسيس، فأمسك به من إحدى ذراعيه وجذبه بعنف:

- اذهب إلى هناك أيها الخنزير، وانزع هذه الملابس.

وفي وسط الحجرة وقف القسيس بثوبه الممزق. وكان يخفي وجهه بين ذراعيه المرفوعتين. وكانت أمه وإخوته جالسين يتأملونه في دهشة. ثم انتهره العجوز من جديد قائلاً:

- اذهب واخلع هذه الملابس. ودفعه دفعاً إلى السلم الخشبي ثم التفت إلى زوجته الباكية، وطلب منها أن تسكت فخنقت بكاءها فجأة وأحنت رأسها أكثر من مرة، دلالة على الطاعة.

كانت المرة الأولى التي يحدثها زوجها فيها بهذه الطريقة، وبهذا الصوت المرتفع.

ولكن المبعوث سخر منه قائلاً:

– لماذا تفعل كل هذا أيها العجوز الغبي، طالما أصلح كل شيء؟.

فصرخ فيه، وتقدم نحوه قائلاً:

– اسكت. وانقل ما رأيت إلى الأسقف.

وصعد جيوفاني في هدوء، السلم الخشبي، وهناك نزع ثوب القسيس، ولبث في ملابسه الداخلية جالساً قرب سرير والده. وأخفى وجهه وكان والده يتأمله جيداً، ثم أمره قائلاً:

– مزق هذا الرباط الفضي من حذائك.

فانحنى مطيعاً، فاقترب منه والده ورأى القبعة فوق رأسه فنزعها مع نتفة من الشعر. فنهض غاضباً، ولكن العجوز رفع يده وأشار إلى السلم.

– انزل.. انزل وانظر.. هناك فأس فخذها. إنها لنعمة أنعم بها عليك ولست بها جديراً. إن إخوتك يعملون، وأنت لا يمكن أن تكون هكذا قريباً منهم دون عمل. إن مجهودك سيلعنه الله.

وحين بقي وحده أخذ ملابس الرهبنة ومسحها وطواها وقبلها ثم الرباط الفضي فقبله والقبعة الصغيرة. ثم توجه إلى الصندوق القديم، الذي يبدو كأنه تابوت حيث حفظت ثياب أبنائه الثلاثة الذين ماتوا، وحفظ هناك هذه الثياب.. ثياب ابنه القسيس الذي مات.

وأغلق الصندوق، ثم جلس وأخفى وجهه بين يديه، وأخذ يبكي بكاء مريراً.

غريب مات في الفندق

مئة وخمسون غرفة موزعة على ثلاثة أدوار وفي أشد مراكز المدينة ازدحاماً ثلاثة صفوف من النوافذ المتشابهة بشبابيكها وزجاجها ومصاريعها الرمادية مغلقة ومفتوحة ومواربة ومتقاربة.

الواجهة قبيحة وغير واعدة. ولكنها لو لم تكن كذلك لما درى المرء أي أثر ستخلفه في نفس من يشاهدها من الخارج، هذه المئة والخمسون علبة، واحدة فوق الأخرى بقاطنيها الذين يتحركون داخلها.

أما الفندق فهو لائق ومريح جداً. مصاعد. عدد وافر من الخدم المؤدبين النشطين. أسرّة ممتازة. معاملة حسنة في الأكل. وفرة في وسائل المواصلات. ربما تضايق بعض القادمين من غلاء الأسعار، إلا أنهم يقرون في النهاية أنه إذا كانت هناك فنادق أخرى تكلفهم مبالغ أقل، فهي لا ترقى إلى مستوى هذا الفندق. فضلاً عن أنه ليس من اليسير الحصول على ميزة السكنى والإقامة في قلب المدينة.

وهكذا فإنه في وسع صاحب الفندق ألا يهتم بهذه الاحتجاجات حول غلاء الأسعار، وفي إمكانه أن يرد على المحتجين، أن اذهبوا إلى أي مكان تريدون. فالفندق عامر دائماً بالنزلاء. وهم كثيرون. يتوافدون كل يوم مع وصول الباخرة كل صباح. أو مع وصول القطارات خلال اليوم.

وفي الحقيقة إن هناك كثيراً من الرواد الذين يقصدون أماكن أخرى. لا عن رغبة في ذلك، ولكن نظراً لعدم وجود أماكن في هذا الفندق.

أغلب النزلاء من التجار ورجال الأعمال وسكان الضواحي الذين يأتون إلى المدينة لإنجاز بعض القضايا، أو لخصومات قضائية، أو للاستشارات الطبية.

ثم إن هناك نزلاء عابرين لا يقيمون أكثر من يوم واحد أو يومين. وما أكثر الذين يصلون في المساء ليغادروا الفندق في صباح اليوم التالي.

حقائب كثيرة، وصناديق قليلة. وحركة عظيمة، متواصلة من الذهاب والقدوم. تبدأ من الرابعة صباحاً فلا تنتهي إلا عند منتصف الليل. حتى ليكاد المدير أن يفقد صوابه. في لحظة يمتلئ الفندق، ولكن لا تمضي لحظات حتى تشغر فيه ثلاث أو أربع غرف. ويتردد الإعلان بسفر ساكن الغرفة رقم ١٥ من الدور الأول. ورقم ٣٢ من الدور الثاني. ورقم ٢ ورقم ٢٠ ورقم ٤٥ من الدور الثالث في الوقت الذي أرجئ فيه منذ قليل إيواء اثنين من الوافدين. ومن السهل بالنسبة لمن يتأخر قدومه أن يجد أحسن حجرات الدور الأول خالية. أما الذي تقدم عن هذا الموعد في الوصول فقد تحتم عليه أن يرضى بالحجرة رقم ٥١ في الدور الثالث. (عدد الحجرات خمسون في كل دور، غير أن كل دور يحمل رقم ٥١ نظراً لاستبعاد رقم ١٧ في جميع الأدوار، إذ يقفز الرقم من ١٦ إلى ١٨، وهكذا فإن الذي يستأجر الغرفة رقم ١٨ يستطيع أن يسكنها مطمئناً إلى أن الكارثة لن تحل به).

وبين النزلاء فئة من الزبائن القدماء الذين ألفوا المكان وأصبحوا ينادون الخدم بأسمائهم وفي أنفسهم إحساس بالرضا بالامتياز على

الآخرين الذين لا يعرفونهم إلا من أرقام حجراتهم التي يشغلونها في الفندق. كما أن هناك فئات مختلفة من النزلاء، لا سكن لها، وبعضهم من الرحالين الذي يجوبون مختلف الأقطار وحقائبهم في أيديهم. إنهم طراز من الناس الواثقين في أنفسهم الذين يستريحون إلى أي مكان يحلون فيه ويتلاءمون مع جميع الأوضاع.

وتبدو على الجميع مظاهر القلق كما يحيط بهم جو من الذهول والاستغراب. فهم ليسوا غائبين عن بلدانهم ومساكنهم ولكنهم غائبون عن أنفسهم أيضاً. بعيدون عن عاداتهم المألوفة ومظاهر الأشياء المعتادة التي يلمسون فيها كل يوم الحقيقة العادية المسكينة لوجودهم في الحياة. إنهم لا يجدون أنفسهم بل إنهم لا يكادون يعرفونها، إذ يحسون كأن كل شيء قد توقف في نفوسهم وتعلق بفراغ لا يعرفون السبيل إلى ملئه ولا يأمنون معه أن تفاجئهم من لحظة إلى أخرى مظاهر لأشياء مجهولة أو أن تنبعث في نفوسهم أفكار ورغبات جديدة من لا شيء أو أن يدفعهم فضولهم الغريب إلى أن يشاهدوا ويلمسوا حقيقة غريبة مختلفة، لا فيما حولهم فقط بل في ذواتهم أيضاً.

ويعجل بإيقاظهم في ساعة مبكرة، ضجيج الفندق والشوارع التي تقع حوله فيندفعون في عجلة كبيرة إلى إنجاز أعماله وقضاء لوازمهم. ولكنهم غالباً ما يجدون الأبواب مغلقة في مثل تلك الساعة، فالمحامي لا ينزل إلى مكتبه إلا بعد ساعة والطبيب لا يستقبل إلا عند الساعة التاسعة والنصف. وبعد إنجاز هذه الأعمال يعودون إلى الفندق في ذهول وسأم وإعياء، ويندسون في حجراتهم وقد تمكن من نفوسهم وجثم عليها ذلك الضيق الذي يسبق ساعات السفر بالقطار. فهم يتجولون

ويتضجرون ويتأملون الفراش الذي لم يعد يغريهم بالاستلقاء عليه. والمقاعد والأرائك التي لم تعد تدعوهم إلى الجلوس. ما أعجب هذا الفراش وما أغرب شكل هذه الأريكة. وتلك المرآة هناك. ما أشد الرعب الذي تثيره في النفس. ويتذكرون فجأة بعض الأشياء التي نسوا شراءها: آلة حلاقة، ماسكات جوارب للزوجة، طوق للكلب، ويقرعون الجرس لكي يسألوا الخدم عناوين ومعلومات:

- أريد طوقاً مع وسام من نوع معين أنقش عليه الاسم..
- اسم الكلب؟
- كلا.. اسمي وعنوان البيت..

ما أكثر ما يستمع الخدم، من أصناف هذا الحديث. إن الحياة كلها بجميع أشكالها وألوانها تمر من هناك. الحياة التي لا تعرف الاستقرار والتي تحركها الأحداث الكثيرة وتدفعها الحاجات العديدة. توجد مثلاً في الغرفة رقم ١٢ من الدور الثاني عجوز مسكينة تود أن تستفهم من الجميع إذا كانت الرحلة في البحر متعبة أم غير متعبة. إنها سوف تتوجه إلى أمريكا. ولم تسبق لها تجربة السفر من قبل. لقد وصلت مساء أمس متعبة متهالكة يسندها ابنها من جانب وابنتها من الجانب الآخر.

وكان من عادة صاحب الفندق أن يحرص، عند الساعة السادسة من مساء كل اثنين على أن تعرف الإدارة على وجه التحديد عدد الحجرات التي يمكن التصرف فيها. ففي هذا المساء بالذات تصل الباخرة من جنوا وعلى ظهرها المسافرون إلى أمريكا، كما يصل في الوقت نفسه قطار غاص بالمسافرين.

وقد تقدم مساء الأمس إلى الإدارة أكثر من خمسة عشر قادماً. ولكنهم لم يستطيعوا أن يسكنوا منهم إلا أربعة أشخاص في حجرتين. هذه

العجوز المسكينة مع ابنها وابنتها، في الحجرة رقم ١٢ من الدور الثاني، وسيد آخر قدم بباخرة جنوا وخصصت له الحجرة المجاورة رقم ١٣.

وفي المكتب سجل المدير ما يلي:

السيد برسكو جيوفاني مع أمه وأخته. قادم من فكتوريا.

السيد فوناردي روزاريو. قادم من نيويورك.

لقد أحست هذه العجوز المسكينة بالألم عندما افترقت عن أسرة تعرفت عليها أثناء الرحلة في القطار، وهي مكونة أيضاً من ثلاثة أشخاص، وقد حصلت منها على عنوان الفندق فتزايد ألمها عندما علمت بأنه كان من الممكن أن تقيم هذه الأسرة في الغرفة رقم ١٣ لو لم يسبقها بدقيقة واحدة ذلك السيد فوناردي، المتعهد القادم من نيويورك.

وكاد ابنها، وهو يشاهد أمه تتعلق بعنق رفيقتها في الرحلة، باكية حزينة، أن يهم بمفاتحة ذلك السيد فوناري ملتمساً منه أن يتخلى عن غرفته لهذه الأسرة. خاطبة باللغة الإنجليزية. إذ كان هذا الشاب متأمركاً عاد من الولايات المتحدة بصحبة أخته منذ أربعين يوماً تقريباً، بسبب الكارثة التي حلت بهم مؤخراً بوفاة شقيقهم الذي كان يعول هذه العجوز المسكينة، فما أكثر ما تألمت وما أكثر ما بكت طوال رحلتها في القطار. لقد كانت الرحلة الأولى في عمرها الذي يبلغ سبعة وستين عاماً. لقد شعرت بالألم يمزق نفسها وهي تنفصل عن البيت الذي ولدت فيه وشاهد شيخوختها وتبتعد عن القبر الذي ضم رفات ابنها العزيز عليها، وعن الذكريات الجميلة في هذه القرية التي ولدت فيها. وترى نفسها أنها توشك أن تغادر صقلية إلى الأبد فلا تملك إلا أن تتعلق وتتشبث بكل شيء، حتى بتلك السيدة التي رافقتها في رحلتها الأولى بالقطار، آه لو رضي السيد فوناردي.

ولكن السيد فوناردي لم يرض أن يتخلى عن حجرته وهز رأسه بالرفض. بعد أن أصغى إلى رجاء الشاب الذي كان يخاطبه باللغة الإنجليزية. لقد رفضه بشكل حاسم كأي أمريكاني أصيل. وقد قطب حاجبيه في ذلك الوجه الغليظ الشاحب وهرع إلى المصعد يريد الغرفة رقم ١٣ من الدور الثاني.

أما رفيقا العجوز فلم يستطيعا إقناعها باستعمال المصعد. فأي تركيب ميكانيكي كان يبث في نفسها الرعب والفزع. فكيف وهي تفكر الآن في اجتياز المحيط وقطع البحار كي تصل إلى نيويورك في أمريكا؟ وقد نصحها ابناها بالاعتصام بالهدوء والركون إلى الاطمئنان مؤكدين لها أنها لن تتعرض لأي سوء في البحر، ولن تتألم. ولا تفتأ تسأل الجميع كل خمس دقائق، إذا كان حقاً السفر بالبحر غير متعب.

ولكي يتخلص منها الخدم والحمالون، اتفقوا هذا الصباح، على أن ينصحوها بمراجعة السيد الذي يسكن في الحجرة المجاورة الذي وصل منذ قليل في الباخرة القادمة من جنوا، عائداً من أمريكا. فهو بعد أن أنفق عدة أيام في عرض البحار وقطع المحيط، أقدر من غيره ويمكنه أن يخبرها إذا كان المرء يتعذب أو لا يتعذب فوق البحر.

وها هي ذي الآن منذ الفجر بعد أن خرج ابنها. وابنتها لسحب الأمتعة من المحطة ولشراء بعض اللوازم الأخرى، منذ الفجر. والعجوز المسكينة تفتح الباب من حين إلى آخر وتطل برأسها في خجل، لترى باب الحجرة المجاورة، وتسأل السيد الذي قطع المحيط، إذا كانت الرحلة في البحر مرهقة أم لا..

وقداستطاعت أن تتبين على خيوط الضوء الشاحب الذي كان ينساب من نافذة كبيرة تقع في أقصى الممشى المعتم، صفين من الأحذية،

على جانبي الممر، ومن هنا وهناك. زوجان أمام كل باب. ولكنها لم تلبث إلا قليلاً حتى رأت هذه الأزواج تقل، وفاجأت عدداً من الأيدي التي كانت تمتد من داخل الحجرات لتسحب الأحذية من أمامها، حتى اختفت جميع الأحذية. إلا هذا الحذاء الذي يقع أمام حجرة السيد الذي قطع المحيط، والذي تتطلع إلى أن تعرف منه إذا كانت الرحلة بالبحر مرهقة أم لا..

وأعلنت الساعة التاسعة.

انقضت التاسعة والتاسعة والنصف ثم العاشرة، وذانك الزوجان لا يزالان مكانهما. وحدهما هناك. إنهما الزوجان الوحيدان اللذان بقيا في المشى. خلف ذلك الباب المجاور، الذي لا يزال مغلقاً.

ما أكثر الضجيج الذي تعالى في ذلك المشى، وما أكثر الناس الذين عبروا به، من خدم وحمالين. لقد خرج تقريباً جميع النزلاء وغادروا حجراتهم، كما عاد بعضهم إليها. وقد تتابع رنين الأجراس من حين إلى آخر، ولم يتوقف لحظة واحدة صرير المصعد، الذي يتنقل صعوداً وهبوطاً بين مختلف الأدوار، حاملاً القادمين والرائحين، وذلك السيد لم يستيقظ بعد. لقد أوشكت الساعة أن تبلغ الحادية عشرة، ولا يزال ذلك الحذاء في مكانه، أمام الباب.. في مكانه هناك.

ولم تستطع العجوز أن تغلب نفسها وتقاوم رغبة التطلع، فما كاد يمر بها أحد الخدم حتى أوقفته وأشارت إلى الحذاء، متسائلة:

- كيف؟ ألا يزال صاحبه نائماً حتى الآن؟

فردّ عليها الخادم وهو يهز كتفيه:

- يبدو أنه مرهق.. لقد كانت رحلته طويلة.

وتركها الخادم، ولكن العجوز قامت بحركة تعبر عن استيائها وسحبت رأسها من الباب، ولم يمض إلا وقت قليل حتى عادت تطل من جديد وتعيد النظر في دهشة غريبة إلى ذلك الحذاء.

لا بد أن تكون رحلة هذا السيد طويلة حقاً، ولا بد أن هذين الزوجين من الأحذية قد قطعا مسافات ومسافات طويلة، إنهما باليان ضخمان باهتان وقد تآكلت أطرافهما الخلفية والأمامية، وتراخت جوانبهما وتهدلت حافتاهما العليا. من يدري ما تعرضتا له من متاعب وكم بذلتا من جهد، وكم عانتا من مشاق وكم قطعتا من طرق؟.

وكادت العجوز تهمّ بأن تقرع الباب بأطراف أصابعها، ولكنها كانت تعود إلى غرفتها، وتترقب عودة ولديها اللذين تأخرا عن العودة إلى الفندق. ويتزايد قلقها. أتراهما ذهبا لتحقيق ما وعدا به، من التأكد من البحر، والنظر فيما إذا كان هادئاً أم لا؟

ولكن ما جدوى رؤية البحر من الساحل، والتأكد من هدوئه؟ إن البحر البعيد، البحر الذي لا ينتهي، هو المحيط. يقولون إنه هادئ، ولكن من الذي يصدق هذ الكلام؟ إنه هو فقط، هذا السيد الذي يقطن في الحجرة المجاورة، هو الذي يستطيع أن يؤكد لها وحده ويطلعها على الحقيقة. وترهف السمع. وتضع أذنها على الجدار، على أمل أن تتحسس شيئاً من الحركة في الحجرة، ولكن لا شيء سوى الصمت. لقد كاد ينتصف النهار. أمن الممكن أن يظل نائماً حتى هذا الوقت؟

وها هو ذا جرس الغداء يدق وتفتح جميع الأبواب في الممشى ليخرج منها السادة النزلاء قاصدين قاعة الأكل. وتقف العجوز عند الباب لكي تلاحظ إذا كنت هذه الأحذية ستثير شيئاً من الانطباع في

نفس أحدهم. ولكنها لم تلاحظ شيئاً من ذلك، فلم تثر اهتمام أحد، وكانوا يعبرون بها دون أن ينتبهوا إليها. وأقبل عليها أحد الخدم، يخطرها بأن ابنها وابنتها ينتظرانها في قاعة الأكل. وتنزل العجوز المسكينة مع الخادم. ولم يعد هناك أحد في الممشى. لقد خلت الحجرات من سكانها وظل ذلك الحذاء ينتظر، في وحدة وصمت، أمام ذلك الباب المغلق، كأنما نزل به عقاب، فقد صنع هذا الحذاء للمشي، وقد أهمل وابتذل بعد الانتفاع به مدة طويلة، فقد كان يبدو أنه يخجل من وضعه ذلك ويلتمس في ذلة يداً حانية تمتد إليه ترفعه من هناك أو تسحبه في النهاية.

وعندما عادوا من صالة الأكل بعد أن فرغوا من تناول الطعام، توقف جميع النزلاء منتبهين إلى الإشارة المليئة بالفزع والرعب التي كانت تقوم بها السيدة العجوز، ولبثوا يتأملون في فضول. لقد أخذ يتردد اسم ذلك الأمريكاني الذي وصل مساء الأمس. من الذي رآه؟ لقد وصل في باخرة جنوا. لعله لم ينم في الليلة السابقة لعله كابد بعض المتاعب أثناء الرحلة البحرية، إنه قادم من أمريكا. إذا كان قد تألم من ركوب البحر وهو يقطع المحيط، فمن يدري كم من الليالي أمضاها مؤرق الجفن لا ينام؟ إنه الآن يريد أن يسترد قواه. ولذلك نام يوماً كاملاً.. ولكن أهذا ممكن؟ وسط هذا الضجيج.. إنها الساعة الواحدة ظهراً.

وازداد التجمهر حول زوجيّ الحذاء، الموضوعين أمام الباب ولكن الجميع ابتعدوا عنهما تلقائياً وكونوا حولهما نصف دائرة. وهرع أحد الخدم يستدعي المدير. وبعث المدير يستدعي صاحب الفندق. وأقبل الاثنان يدقان بالباب بالتناول. ولكن أحداً لم يجب. وحاولا فتح الباب،

ولكن بلا جدوى ،فقد أقفل من الداخل. وأخذا يدقان بقوة على الباب، ولكن دون جدوى، فقد خيم الصمت على الحجرة ولم يعد هناك شك.. فعليهم أن يسرعوا بإخطار النيابة، ولقد كان مكتبها من حسن الحظ قريباً من الفندق. فأقبل مندوبها في صحبة شرطيين وحداد. وفتح الباب بالقوة، ووقف الشرطيان أمامه يحولان دون دخول بعض الفضوليين الذين كانوا يتزاحمون. ودخل الغرفة المندوب وصاحب الفندق.

إن الرجل الذي قطع المحيط قد مات في فراشه بالفندق. في الليلة الأولى التي وطئت فيها قدماه الأرض. مات نائماً وقد أسند خده إلى يده كأنه طفل. ولعله مات بالسكتة.

ما أكثر الأحياء من أولئك الناس الذين جمعتهم الحياة التي لا تعرف الهدوء في هذا المكان، تدفعهم الأحداث المتناقضة وتدفعهم الحاجات المختلفة. إنهم الآن يتزاحمون حول هذه الحجرات التي توقفت فيها فجأة حياة إنسان. لقد انتشر الخبر الجديد في جميع أرجاء الفندق. وهرع جميع نزلائه من الأدوار العليا والسفلى تدفعهم رغبة جامحة في مشاهدة الميت ومعرفته وكيف مات..

- ممنوع الدخول..

وكان هناك في داخل الحجرة ممثل النيابة والطبيب. وقد استطاعوا أن يشاهدوا من فتحة الباب، جثمان الميت، فوق السرير. ها هو ذا بوجهه الأبيض الشاحب ويده تحت خده، إنه ليبدو كأنه طفل نائم. من يكون؟ وما اسمه؟ لا سبيل لمعرفة شيء عنه، وكل ما يعرف أنه عاد من أمريكا قادماً من نيويورك بالذات. إلى أين يتجه؟ ومن الذي ينتظر عودته؟ لا أحد يعرف شيئاً عن ذلك. لم يستطيعوا أن يستخرجوا أية

إشارة من الأوراق التي عثروا عليها في جيوبه وحقيبته. كل ما تدل عليه أنه متعهد.. أما في أي نوع من الأعمال، فذلك شيء مجهول. وأما المبلغ الذي عثر عليه في محفظته فلم يكن ليزيد عن خمس وستين ليرة، وبعض النقود المعدنية الصغيرة في كيس مدسوس في حزامه. وتقدم أحد أفراد الشرطة ورفع زوجي الحذاء الباليين، اللذين لن يمشيا بعد الآن، ووضعهما فوق الصندوق. وأخذ الزحام ينقص تدريجياً، وينصرف النزلاء إلى حجراتهم، ويتوزعون على مختلف الأدوار، كما ينصرف بعضهم إلى ممارسة أعمالهم والاهتمام بمشاغلهم، مأخوذين بهمومهم الشخصية.

ولم تبق إلا تلك العجوز المسكينة التي تريد أن تفهم إذا كان ركوب البحر سيرهقها أم لا. كانت واقفة هناك أمام الباب. ورغم ما بذل ابنها وابنتها لقسرها على العودة إلى الغرفة، فقد ظلت هناك باكية تنتحب فزعة من هول مصير ذلك الذي مات بعد أن قطع المحيط. الذي يتحتم عليها الآن أن تقطعه هي الأخرى.

وبين شتائم الحمالين والسائقين يتلاحق ويتتابع دخولهم وخروجهم، أقفل الباب الكبير للفندق، دلالة على الحداد، ولم يبق مفتوحاً سوى المدخل الصغير.

- لقد أقفل..؟ لماذا أقفل؟

- هه.. لا شيء.. لقد مات أحدهم في الفندق..

هكذا نفعل في الشمال

ريكو فيري؛ ضابط احتياطي، في الخامسة والعشرين من عمره، كان يستريح إلى صحبة زملائه من ضباط الفرقة التي يعمل فيها. وكلهم وافدون من الشمال. وحين ضاق بهم الأمر. واحتاروا في الطريقة التي يمضون بها الوقت، في تلك المتربة الواقعة في دوخل صقلية، تجمعوا كلهم كما يجتمع الذباب حول الأسرة الوحيدة المضياف. أسرة كروتشي المكونة من الأب، دون بلميرو، مهندس مناجم، والمعروف باسم «سامبونيتا» لأنه كان شارداً، دائم التصفير. ومن الأم، السنيورا انياتزا، وهي مهاجرة من نابولي، ومعروفة في البلدة، باسم الجنرالة، ومن أربع بنات فارهات، مشبوبات العاطفة، يتمتعن بحيوية فائقة ومشاعر مرهفة. مومينا. دورينا. كوكوتينا. ميمي.

وبحجة (هكذا نفعل في الشمال) استطاع هؤلاء الضباط أن يدفعوا الفتيات الأربع، إلى ارتكاب أجرأ الأفعال وأدعاها إلى الضحك، مما جعلهن فضيحة بين الناس، ومدار حديث البلدة. وموضع نقمة الجميع. وحظي الضباط معهن بحرية تخجل أية امرأة عادية، وكان خليقاً أن تخجلن لو لم يكن على أكثر من اليقين، أن هكذا يفعل في الشمال، دون أن تكون أفعالهن مثار استخفاف أو استهزاء أحد من الناس.

كانوا يصطحبونهن إلى المسرح في عربتهم. كل فتاة بين ضابطين، يروح عليها ضابط من اليمين، ويطعمها الحلوى أو الشيكولاتة الضابط الذي على اليسار.. وهكذا نفعل في الشمال.

أما إذا كان المسرح معطلاً، فإن البيت يتحول كل مساء إلى ساحة للرقص، ومسرح للتمثيل. فالأم تعزف على البيانو، بشكل عاصف، كل قطع الأوبرات التي استمعن إليها في الموسم الأخير، وأما الفتيات اللواتي وهبن أصواتاً زاهية، فيغنين ويمثلن حتى أدوار الرجال، بعد أن يصنعن شوارب تنكرية بخطوط السكر المخروق، ويضعن على رؤوسهن قبعات ريشية، ويرتدين ملابس الضباط.

آه لو رأيتم مومينا -وهي أكثرهن اكتنازاً- في دور (سيبسل) من أوبرا فاوست وهي تغني «كلمات الحب.. آه أيتها الزهور الحية»، وكان الكورس يردد الغناء بصوت مرتفع، وبمشاركة الأم التي تعزف على البيانو. وهكذا يفعل في الشمال.

ولكي يفعلن، دائماً، ما يفعل في الشمال، فإن كل فتاة كانت تخرج عشية الأحد -حين تبدأ الفرقة الموسيقية العسكرية في عزف موسيقاها بالحديقة العامة- مشبوكة الذراع مع أحد الضباط، يتابعن الخفافيش في الشوارع الخلفية المنزوية، وأي ضير في ذلك!- بينما تظل الجنرالة جالسة على مقعد من المقاعد الخالية المنتشرة في المقصف، تسب مواطنيها الذين ينظرون إليها نظرات الاشمئزاز والاحتقار. إنهم متوحشون أغبياء، لا يعرفون أن هذا شيئاً يفعل في الشمال.

ومضى كل شيء على ما يرام، لولا أن ريكو فيري الذي يتفق مع الجنرالة، ويتجاوب معها في الحقد على أولئك المتوحشين من سكان

الجزيرة، وجد نفسه تدريجياً يقع في حب مومينا. فانقلب هو الآخر إلى وحش وأي وحش!

لم يكن من عادته أن يشارك زملاءه لهوهم وتحررهم. كان يشهد ذلك فقط، ويطرب لمشاهدة أفعالهم. وما كاد يحاول أن يفعل ما يفعل زملاؤه، ويعبث مع الفتيات، حتى وجد نفسه كصقلي أصيل، يتحول العبث عنده إلى وجد لا لهو فيه. ومن هنا وداعاً أيها اللهو، منذ اليوم لن تغني، ولن ترقص، ولن تذهب إلى المسرح، ولن تضحك كما كانت تضحك، مومينا.

كانت مومينا فتاة طيبة، وأكثر أخواتها حكمة ورجاحة عقل، وأقدرهن تضحية وتحملاً لأعباء الأسرة. كانت تتعب، وتضحي بكل شيء في سبيل أن توفر للجميع فرص اللهو، ولم تكن هي تستمتع إلا بثمن باهظ، تدفعه من تعبها وسهرها، وأفكارها المعذبة. وكان ثقل العائلة يقع على كاهلها، إذ كان يطيب لأمها أن تمثل دور الرجل حتى عندما يكون زوجها موجوداً في البيت.

كانت مومينا تفهم أشياء كثيرة، وتدرك قبل كل شيء، أن الأعوام تمضي وتمر في سرعة، وأن والدها لن يستطيع أن يوفر شيئاً، بكل تلك الفوضى المتحكمة في البيت. وأن أحداً من شباب البلدة لن يتقدم لخطبتها، وأن أحداً من هؤلاء الضباط لن يتزوج بواحدة منهن. بينما تشعر أن ريكو فيري رجل جاد وبعيد عن العبث. وهي متيقنة بأنه سوف يتزوجها، إذا هي أطاعت أوامره، واقتنعت بما يريده، وقاومت الضغط الذي تعرض له من أمها وأخواتها.

ها هو يجلس في زاوية من زوايا المقصف، شاحب الوجه، يراقبها

ويتابع كل حركة من حركات الضباط. وانفجرت في نفسه براكين الغضب والثورة، في إحدى الأمسيات، وقامت معركة، وارتفعت الكراسي في الهواء، وانكسر الزجاج.. وتتابعت الصرخات والتحديات والدعوة إلى المبارزة. فنازلهم وجرح منهم اثنين وجرحه الثالث.

وبعد أسبوع من هذا الحادث، أقبل على البيت معصوب الذراع. فقابلته الجنرالة وهاجمته بكل ما في نفسها من ثورة حاقدة عليه. وكانت مومينا تبكي، أما أخواتها فقد كن يحاولن تهدئة الأم، وصدها عن الهجوم، مقتنعات بأنه من الأحسن ومن الأوفق، أن يتدخل الأب، ويوقف ذلك الإنسان، الذي حاول، بغير حق، أن يملي إرادته على بيت غير بيته. ولكن دون بلميرو تجاهل هذا الرأي، وجلس يصفر. وحين هدأت ثائرة الأم، واستكان غضبها، تعمد ريكو فيري أن يغيظها من جديد، فأعلن أنه سيتزوج مومينا حالما يسرح من الخدمة العسكرية.

وأخذت الجنرالة تجمع المعلومات عنه. وسألت عنه سكان القرية المجاورة، وعلمت أنه من أسرة غنية، وأن والده مشهور باحتراف الرباء، ومعروف بغيرته العنيفة التي تسببت في وفاة زوجته بعد أن أصيبت بداء القلب، بعد أعوام قليلة من الزواج به.

وإزاء إلحاحه على الزواج، رغبت الجنرالة أن يتاح لابنتها فرصة التفكير في الموضوع، ونصحتها كما نصحت أخواتها بعدم القبول. ولكن مومينا، بالإضافة إلى الأشياء التي كانت تعرفها، كانت تحس في نفسها رغبة قوية في تجربة العواصف المسرحية المأساوية. ولقد بارز ريكو من أجلها ثلاث مرات، فهل يستطيع أحد، بعد هذا، أن ينتزع صورته من القلب؟!

وظلت عند رأيتها وتزوجته.

لم تكن تدرك شيئاً من الحقد الذي يعتمل في نفسه، ويحركه ضد هؤلاء الضباط، ولم تكن تشعر بتلك الغيرة التي تسري في دمه والتي ورثها عن أبيه، ولم تكن تفهم شيئاً عن عزمه، وتصميمه على أن يثأر لنفسه، من ذلك الجرح الذي أصيب به، بأن يرفع من قيمته أمام مواطنيه، أهل البلدة، الذين يعرفون ما تتمتع به أسرة زوجته من سمعة هابطة.

وحين تزوجها سجنها في منزل منعزل، يقع في أعلى مكان من البلدة، تهب عليه الرياح من كل جهة، ويترامى أمامه منظر الشاطئ الإفريقي. وكانت نوافذ البيت كلها مغلقة بزجاجها وشبابيكها، ومصاريعها الخشبية. نافذة واحدة صغيرة، مفتوحة على منظر الريف البعيد، والبحر البعيد. ولم يكن يبدو من البلدة إلا سطوح المنازل وأبراج الكنائس.

واستورد ريكو فيري من ألمانيا قفلين مختلفين، خاصين. ولم يكن يكتفي بإقفال الباب بالمفتاحين الخاصين، كل صباح، فكان يلبث بعض الوقت، وهو يدفعه بكل قوته لكي يتأكد من إغلاقه. وتعذر عليه الحصول على خادمة ترضى بالإقامة في ذلك السجن، فأخذ على نفسه عبء النزول كل صباح إلى السوق لشراء لوازم البيت، كما فرض على زوجته القيام بالطبخ، والاهتمام بأدنى الأعمال المنزلية. وحين كان يعود من السوق، لم يكن يسمح للصبي الحمال بالصعود معه إلى البيت، بل كان يفرغ حمله عند العتبة، ثم يضمه بين يديه ويدفع الباب بكتفه، ثم يعود إليه ليتأكد من القفلين.

لقد انفجرت في نفسه، وبعد زواجه، تلك الغيرة المجنونة التي عرف بها والده، بل كانت أشد عنفاً ووحشية. كان يلهبها في نفسه إحساس لا يخمد بالندم. ولم يكن هناك خلاص من هذه الغيرة، إنها شيء من الماضي. وهو يطالع الخيانة، هناك في جسد زوجته. خيانة قوية لا تهزم، في ذكرياتها، في عينيها اللتين شاهدتا تلك المشاهد، وفي شفتيها اللتين انطبعت عليهما القبلات. لا يمكنها أن تنكر ذلك، وليس لها الآن غير البكاء والنحيب.

كان يصرخ في وجهها غاضباً ثائراً: «هكذا؟ ليس كذلك؟ هكذا كان يضم ذراعيك؟ وخصرك.. كيف كان يضمه؟ هكذا؟ وفمك.. كيف كان يقبله؟ هكذا؟». وكان يقبلها في عنف، ويعضها وينتف شعرها، ذلك الشعر البائس الذي لم تسرحه، لأنه لا يريدها أن تسرحه أبداً. ولا يريدها أن تحتفظ ببروز صدرها، بل لا يريدها أن تهتم بأي شيء يتصل بشخصيتها. ولم يكن لميلاد ابنتها الأولى، ثم الثانية، أي تأثير على وضعها، بل تزايد شعورها بالتعاسة والغربة، ثم تضاعف هذا الشعور حين أخذت الطفلتان تشبان عن الطوق وتفهمان ما يجري في البيت.

كانتا تلاحظان، في ذهول واستغراب، تلك الهجمات الوحشية المجنونة، فتتسع عيناهما، وتكتسي ملامحهما مسحة شاحبة.. آه! يا لتينك العينين، في ذينك الوجهين الصغيرين الشاحبين، كأنهما لا ينموان إلا من الخوف الذي يفتحهما دائماً.

نحيفتان، شاحبتان، صامتتان، تتبعان أمهما في ظلال ذلك السجن. وينتظران أن تخرج من البيت ليطلا من تلك النافذة الوحيدة

الصغيرة، ويستنشقا شيئاً قليلاً من ذلك الهواء. يتأملان منظر البحر البعيد، ويحصيان -في الأيام المشرقة الهادئة- أشرعة القوارب، ويرسلان البصر في ذلك الريف المنبسط، ويعدان المنازل القروية البيضاء المنتشرة بين خضرة أشجار الكروم واللوز والزيتون.

لم تخرجا مطلقاً من البيت. وكم تمنتا أن تتجولا في تلك المروج الخضراء. وكانتا تسألان أمهما عما إذا كانت قد تجولت في تلك الأماكن، وتلحان لمعرفة ماضيها. ولم تكن تملك إلا البكاء إزاء هذه الأسئلة التي تنهال عليها. كانت تبكي في صمت، وتعض شفتيها، ثم تمسح بيديها على رأس الطفلتين، وتظل على هذه الحال ما لم تحاصرها الكآبة بضيق في التنفس، ذلك الضيق الذي لم تعد قادرة على تحمله، وقد أصبح يقعد بها عن النهوض على قدميها، بسبب القلب. القلب الذي صار يخفق بسرعة كأنه جواد هارب. القلب الذي لم يعد قادراً على المقاومة تحت وطأة تلك السمنة، وذلك اللحم الميت الذي لا يجري فيه دم.

إنها لمهزلة محزنة هذه الغيرة التي يحملها ذلك الرجل نحو تلك المرأة التي تراخى كتفاها، وتهدل نهداها، وتضخم بطنها، غيرته على تلك المرأة التي تدور في البيت، قلقة، متعبة، في خطوات بطيئة، مشعثة الشعر، منهارة تحت وطأة الآلام. لقد كانت شيئاً خامداً، ولكنه لم يكن يراها إلا في حالتها السابقة، حين كان يناديها مومينا، أو مومي، ويعقب هذا النداء ضمة عنيفة قوية تطوق ذراعيها البضتين اللتين يشف بياضهما، قميصها الأسود الشفاف، كان يضمها فجأة، وبقوة، وبكل ما في رغباته من عنف، حتى تنطلق منها صرخة توجع. كان ذلك في

الحديقة العامة حيث تعزف الفرقة الموسيقية أنغامها، وحيث تشيع في الجو روائح الياسمين الكثيفة في دفء ذلك الماء المخدر.

أما الآن فإنه يدعوها موما أو حتى موم حين يريد إزعاجها، وكان من حظها أنه لم يعد يمكث كثيراً في البيت، فقد كان يخرج مساء فلا يعود إلا في منتصف الليل. ولم تكن هي تهتم بالمكان الذي يذهب إليه، كانت غيبته أعظم راحة تنتظرها. وحين تضع الطفلتين في السرير. تظل في انتظاره مطلة من تلك النافذة الوحيدة، تتأمل النجوم. إن البلدة كلها تحت بصرها. مشهد رائع بين الأضواء المنبعثة الشعاع، الكبيرة أو الصغيرة الضيقة وسطوح البيوت تبدو كأنها نصوص سوداء في ذلك الضوء. وكان يترامى إلى سمعها، في ذلك الصمت العميق. صدى خطوات في الشوارع القريبة. أو صوت امرأة تنتظر مثلها عودة زوجها. أو نباح كلب من بعيد. وكانت دقات ساعة الكنيسة تزيد من شعورها باللوعة والحسرة. لماذا تعد الزمن تلك الساعة، ولمن تشير به، كل شيء عبث وموت.

وفي إحدى الأمسيات، استوقف نظرها وهي تنسحب من النافذة ملابس زوجها العادية. كان قد خرج قبل موعده المعتاد. وارتدى بدلة يدخرها للمناسبات الكبيرة. وخطر لها أن تفتش تلك البدلة قبل أن تعلقها في الخزانة. فوجدت في أحد جيوبها إعلاناً مطبوعاً من الإعلانات التي توزع في الشوارع والمقاهي، تعلن عن عرض أوبرا (قوة القدر) للمرة الأولى، في ذلك المساء نفسه.

وحين وقعت عيناها على هذا الإعلان، وقرأت محتواه، انخرطت في بكاء يائس. وقفز الدم إلى قلبها ثم رأسها، فألهب أمام عينيها منظر

المسرح، في المدينة، وذكرى الأمسيات السالفة، واللهو الذي نعمت به في شبابها صحبة أخواتها.

واستيقظت الطفلتان، واعترتهما دهشة من منظر الأم الباكية. وحدها، وقد وضعت فوق ركبتيها ذلك الإعلان الأصفر. ولم تستطع أن تتكلم وحبست دموعها. وحاولت أن تبتسم وأخذت تردد بين الغصات التي تحاصرها.. المسرح، المسرح. ها هو المسرح أيتها الصغيرتان المسكينتان. إنكما لن تعرفا المسرح. سوف أقص عليكما وأشرح لكما معنى المسرح، عودا إلى الفراش حتى لا يصيبكما البرد. سوف أعرض عليكما مشاهد مسرحية.

وتقود الطفلتين إلى الفراش، ملتهبة الوجه، مرتجفة المفاصل ثم تفيض في شرح معنى المسرح والمشاهد والجوقة الموسيقية والمناظر. ثم تتحدث عن الأوبرا وأدوار كل شخصية فيها، ولباسها.

* * *

وأخيراً، وبين دهشة الصغيرتين الجالستين في السرير، واللتين تنظران إليها بعيون ذاهلة، خشية أن يكون قد أصابها مس من الجنون. كانت تسرع في الغناء بحركات غريبة، وتمثل أدوار مختلف الشخصيات في أوبرا «قوة القدر» حتى تشعر بالإعياء والانهيار، وتصل إلى المقطع الذي تغني فيه البطلة «سلاماً سلاماً أيها الرب» فتغنيه بعاطفة لاهبة، تعييها عن المضي في غناء بقية القطع، وتنفجر في بكاء مرير. ولكنها لا تلبث أن تسترد قواها. وتنهض وتطرح الطفلتين في السرير، بعد أن تطبع على خديهما قبلات. وتغطيهما، وتعدهما بأنها ستعرض عليهما

في اليوم التالي بعد أن يخرج أبوهما، أوبرات أخرى أكثر جمالاً وأغنى فناً. وفي اليوم التالي كانت تقدم أوبرا أخرى، وهكذا في كل يوم واحدة. وهكذا تعيش الطفلتان على الأقل، في ذكريات الأم، ذكريات حياتها السابقة.

* * *

وحين عاد زوجها من المسرح لاحظ تضرجاً واضحاً في وجهها لم يعهده فيها من قبل. وكانت تخشى أن يقترب منها فيفطن إلى الارتعاش الذي يسري في كيانها. كما لاحظ في الصباح شيئاً غير مألوف يبدو في عيني الطفلتين. فداخله الشك. ولكنه لم يصرح بشيء، وصمم على أن يكتشف بنفسه، إذا كان هناك ثمة تواطؤ، وذلك بأن يداهم البيت على حين غرة، من حين إلى آخر.

واستقر في ذهنه هذا الشك حين عاد إلى البيت في اليوم التالي فوجد زوجته مغمى عليها وهي تلهث كالجواد المتعب، وكانت عيناها مفتوحتين، ووجهها شاحباً ممتقعاً غير قادرة على النهوض ووجد الطفلتين ذاهلتين أمام هذا المنظر. لقد غنت جميع مقاطع أوبرا (ادجاتوني) من المقطع الأول حتى المقطع الأخير. ولم تكتف بالغناء بل مثلت بالتناوب جميع الأدوار. ولا تزال ترن في أذني الطفلتين بعض هذه المقاطع والترجيعات التي تعلمن ترديدها مع الأم. كان ريكو فيري يعلم أن زوجته تشكو مرض القلب. فتظاهرت هي أمامه بأنها أزمة من أزمات القلب المريض.

ولكنه عاد في يوم آخر إلى البيت قبل الموعد المعتاد بساعتين وحين دس المفتاح في القفلين الألمانيين، خيل إليه أنه يسمع صرخات غريبة

تتردد داخل البيت، فأصغى إليها، ثم تأمل النوافذ المغلقة وتساءل.. من الذي يغني في بيتي أوبرا (التروبادور)؟

وأسرع إلى البيت، وقفز درجات السلم، فإذا به أمام جسد زوجته، مطروحة على الأرض، وسط الحجرة، قرب السرير. وفوق رأسها قبعة من الريش، وقد رسمت شارباً بالسكر المحروق. أما الطفلتان فجلستا على مقعد قريب، في هدوء، واضعتين يديهما على ركبتيهما انتظاراً لاستمرار المشهد.

فاندفع نحوها بكل ما في نفسه من غضب وانفعال وحركها بقدمه. ولكنها.. ماتت.

غرفة الغائب

كان النور ينتشر في تلك الغرفة مرة كل صباح. عندما يأتي دور إحدى الأخوات الثلاث لتنظيفها. وما تكاد تقفل النوافذ حتى يخيم على الغرفة ظلام بارد قارس، وتبدو كأنها إحدى الخنادق الرطبة، وكأن نافذتها لم تفتح منذ أعوام. وقد صارت تلك البرودة القاسية نفحة مميزة لذلك الصمت المخيم على الأثاث والأشياء التي كانت تظهر عليها الدهشة من هذه العناية التي تحظى بها كل يوم.. حيث تنظف ويزاح عنها الغبار ويعاد ترتيبها في موعد ثابت لا يتغير.

أما التقويم المعلق على الجدار قرب النافذة، لم يزايله إحساسه بالحسرة على الأوراق التي تقطع منه يومياً، إنها قسوة غير مجدية أن يشير إليها التاريخ في ذلك الظلام، وذلك الصمت، والساعة العتيقة المصنوعة من البرونز على هيئة قلة.. قد وضعت على السطح الرخامي للخزانة وكان يبدو أنها هي الأخرى تشعر بهذه القسوة التي ترغمها على أن توالي دقاتها الكئيبة هناك في ذلك الصمت القاتم الحزين..

وعلى منضدة صغيرة كان دورق الماء الزجاجي الأخضر المذهب المغطى بكأس منكس عليه، يسرق ما يتسرب للغرفة من نور من خصاصي النافذة ليعكسه ويبدو به ضاحكاً ساخراً من تلك الدهشة

المنتشرة في أرجاء الحجرة. وكان هذا الدورق هو الشيء الوحيد الذي يحمل شيئاً من الحياة في تلك الحجرة.

إن ابتسامة الدورق المائي تأتي بلا شك من ذلك الخيط من النور الذي يتسرب من خلال النافذة فينبه النظر إلى الدلال والرشاقة في حركة تمثالين فوق صندوق ثقاب. وضعا هناك منذ أربعة عشر شهراً، حتى يكون كل شيء معداً ومهيئاً لإيقاد المصباح الذي ظل ينتظر طوال هذه المدة في شمعدانه الحديدي المطلي بالفضة.

أما الشمعة، فمن لهفتها وشوقها إلى اللهيب الذي يستهلكها أصبحت صفراء شاحبة كأنها عذراء ناضجة فاتها حظ الزواج. ويمكن المراهنة بأن التمثالين العابثين يقارنانها بالأخوات الثلاث الناضجات اللواتي يتناوبن كل يوم على تنظيف الحجرة وترتيبها.

وعلى الرغم من أن تلك الشمعة لم تشعل ولم تمس. فإن الأخوات يستبدلنها، إن لم يكن كل يوم كما يفعلن بدورق الماء الضاحك الحيّ الذي يبتسم لكل خيط من النور، فهن يستبدلنها كل خمسة عشر يوماً أو كل شهر حتى لا يرينها هكذا صفراء شاحبة، وحتى لا يرين في ذلك الاصفرار والشحوب الأشهر التي مرت دون أن يأتي أحد لإشعالها في المساء.

لا شك في أنه نسيان مؤلم. إنهن لا يغيرن ماء الدورق ولكنهن يغيرن كل شيء، كل خمسة عشر يوماً يغيرن الملاحف وأغطية السرير الذي يرتب في عناية ودقة كل صباح كما لو نام فيه أحد. ويغيرن مرتين في الأسبوع قميص النوم الذي يستخرج من كيس حريري كل مساء عقب ترتيب السرير، ثم يوضع على الفراش.

يا إلهي. لقد غيرن حتى الشبشب الذي وضع تحت السرير، يقيناً أن الشبشب القديم قد استغني عنه ووضع داخل الخزانة الصغيرة، ويحتل الآن مكانه زوجان عند مهبط السرير صنعا من القطيفة وطرزته إحدى الأخوات على أحدث طراز.

والتقويم؟ ذلك التقويم القريب من النافذة؟ إنه جديد. أما تقويم العام الماضي فقد كان يشعر بالأوراق تقطع منه يومياً وفي موعد دقيق طوال أشهر العام الماضي، ورقة كل صباح! ولا خوف من أن تنسى كبرى الأخوات مساء السبت من كل أسبوع، إذ ينبغي أن تدخل الغرفة عند الساعة الرابعة لتملأ تلك الساعة العتيقة فوق الصندوق. تلك الساعة التي تمزق بدقاتها ذلك الصمت في غيظ كبير. وتحرك عقربها على مهل كأنما تريد أن تفصح أنها لا تؤقت برغبتها ولكنها مرغمة على هذه الحركة إرغاماً.

إن التمثالين العابثين لا يبصران كما تبصر الساعة العتيقة بوجهها الأبيض المستدير وذلك التقويم برقمه الأحمر الذي يشير إلى التاريخ. ذلك التأثير القائم الحزين الذي تنيره تلك «المنامة المطروحة فوق السرير وذلك الشبشب الجديد الذي ينتظر عند مهبط السرير وأمام الأريكة».

أما الشمعة المعروفة في ذلك الشمعدان، فإنها مستغرقة في صمودها الشاحب ولم تهتم بذلك الدلال الذي يبدو في حركات التمثالين ولا في ابتسامة الدورق. إنها تعرف ماذا تنظر هناك.. ماذا؟

لقد مضت أربعة عشر شهراً وما زالت الأم والأخوات الثلاث يعتقدن أنه يمكن، بل عليهن انتظار العودة المحتملة للأخ شيزارينو ملازم ثان في الفرقة الخامسة والعشرين للمشاة سافر إلى إفريقيا منذ عامين، وانقطعت أخباره.

حقاً إنهن لم يعرفن أي خبر عنه منذ أربعة عشر شهراً. وأخيراً وبعد أبحاث مضنية، متواصلة عاجلة، وصل إلى القيادة بلاغ رسمي يفيد بأن الملازم شيزارينو تولي دخل مع فرقته في اصطدام مع الوطنيين فلم يعثر عليه بين الموتى والجرحى والأسرى. وأصبح الخبر الثابت اعتباره مفقوداً دون أن يخلف أي أثر يدل عليه.

كان الحادث مثار إشفاق وأسف جميع جيران تلك الأم وبناتها الثلاث ومعارفهن. ولكن هذا الإشفاق أخذ يخبو تدريجياً وبدأ يقوم مكانه شيء من الحنق، بل شيء من الاشمئزاز عند بعضهم، من هذه المهزلة، مهزلة الحجرة التي رتبت في دقة ونظام ولم تغفل معه حتى المنامة المطروحة فوق كل الفراش المرتب. كأنما يردن بهذه المهزلة أن ينكرن حقه عليهن من البكاء ويوفرن على أنفسهن بكاءه ميتاً!

ما أسرع ما نسي الجيران والمعارف! أنهم هم أنفسهم، عند وصول البلاغ الرسمي من القيادة وحين أخذت الأم والأخوات الثلاث يبكين على عزيزهن الفقيد ويصرخن صرخات موجعة، حاولوا جميعاً إقناعهن بعد جدل طويل وأحاديث متلاحقة أن لا ييأسن قائلين لماذا تبكينه كأنه ميت، إذا كان البلاغ يعلن في وضوح أن الشاب الضابط لم يعثر عليه بين الأموات؟ لقد ضاع! ومن الممكن أن يعود بين لحظة وأخرى. حتى بعد عام، من يدري أنه يتجول متخفياً في مجاهل إفريقيا. وكانوا هم الذين نصحوا بل منعوا تلك الأم والأخوات الثلاث من ارتداء السواد، لأنه شؤم وما كاد يثبت في أذهانهن الشك في موته حتى أسرع الجيران مؤكدين.. إنه حيّ يقيناً إنه حيّ.

ومع ذلك أليس من الطبيعي الآن وبعد أن زال من أذهانهن أي أثر للشك في موت عزيزهن واستقبلن -كما أراد الجميع- ذلك الوهم القائل

بأنه حيّ، أليس من الطبيعي الآن أن يمنحن هذا الوهم ما يقدرن عليه من ثبات الحقيقة وصمودها؟ أجل. ولذلك فهن يتركن الحجرة في حالة انتظار ويرتبنها بعناية دقيقة، ويسحبن المنامة كل ليلة ويطرحنها على الأغطية المنسقة، فطالما قد اقتنعن بعدم بكائه ميتاً، ولم يفقدن الأمل في حياته، فينبغي أن يرعينه، هو الذي يعيش في نفوسهن، هو الذي يحتمل أن يعود بين لحظة وأخرى. وهن على يقين من ذلك، حتى إنهن أعددن كل مساء المنامة فوق السرير الذي يرتب وينسق كل صباح كأنما نام عليه حقاً في الليلة السابقة. وهناك الشبشب الذي أعدته وطرزته جريتا لكي يجده بدلاً من الشبشب القديم.

معذرة يا سادة،

ألا يموت ابنكم وابنتكم عندما يسافران للدراسة في المدينة الكبيرة البعيدة؟ إنكم تنكرون ذلك وتصرخون، إنهما لم يموتا بعد وإنهما سيعودان في نهاية العام، وإنكم تستلمون أخبارهما في موعد ثابت، مرتين في الأسبوع، لتهدؤوا يا أصدقائي، إنني أصدق ما تقولون، ولكن كيف يكون الأمر بعد مضي العام؟ عندما يعود ابنكم وابنتكم من المدينة الكبيرة البعيدة؟ ألا تصيبكم الدهشة والحيرة، وتفتحون أيديكم في عجب كأنكم تدفعون شيئاً يحيركم وتقولون:

يا إلهي! هل هذه أنت ما أكثر ما تغيرت؟

إنها لم تتغير في روحها، أي في طريقة تفكيرها وشعورها، ولكنها تغيرت حتى في صوتها وجسمها وحركاتها وإشاراتها ونظراتها وابتساماتها.

وفي دهشة يتساءلون؟

كيف؟ هل كانت عيونك هكذا؟ وتقسمون أن أنفها عندما سافرت كان أكثر شموخاً وارتفاعاً. والحقيقة أنكم لا تكتشفون في ابنكم أو ابنتكم اللذين عادا بعد عام، تلك الحقيقة التي خلعتموها عليهما عند السفر. لم تعد موجودة لقد ماتت تلك الحقيقة. ومع ذلك فإنكم لا تلبسون السواد ولا تبكون. ولكن ربما تبكون إذا آلمكم هذا الذي يعود عوضاً عن ابنكم أو ابنتكم. هذا الآخر الذي لا تعرفونه ولا تقدرون على معرفته.

لقد مات ابنكم الذي تعرفونه قبل السفر. لقد مات. والذي يمنعكم من قبول ذلك هو أنه كائن في جسد ماثل أمامكم رغم أنه تغير كثيراً. إنكم تدركون جيداً أن ذلك الذي سافر منذ عام كان إنساناً آخر، ذهب ولم يعد.

تماماً مثل شيزارينو الذي لن يعود إلى أمه وأخواته الثلاث الحزينات، بعد أن سافر إلى إفريقيا منذ عامين.

الآن تعرفون جيداً، أن الحقيقة لا تعتمد على الوجود الجسدي أو عدمه. يمكن أن يوجد الجسد ويكون ميتاً بالنسبة إلى الحقيقة التي تخلعونها عليه.

إن ما يصنع الحياة، الحقيقة التي تعطونها أنتم لها وتخلعونها عليها. وإذاً فمن الممكن أن تكتفي الأم والأخوات الثلاث بهذه الحياة التي يحسونها لهذا العزيز الغائب. في حقيقة هذه الأعمال التي يقومون بها نحوه. في هذه الحجرة التي تنتظره مرتبة مجهزة، مهيأة لاستقباله مثلما كانت قبل أن يسافر.

آه.. لا يوجد أي خطر على هذه الأم والأخوات الثلاث في أن يعود إليهن شخص آخر كما حدث لابنكم عندما عاد من الدراسة في نهاية العام.

إن حقيقة شيزارينو في حجرته هذه، وفي قلب تلك الأم والأخوات الثلاث وعقولهن، ولم تكن له أية حقيقة أخرى غيرها قائمة بذاتها.

وتسأل الأم:

- يا بنيتي.. ما تاريخ اليوم؟

وتجيب الفتاة، وهي ترفع رأسها عن كتابها، ولكنها غير متأكدة، وتسأل بدورها أختيها: إنه الخامس عشر.. أليس كذلك؟

فتؤكد الكبرى، وهي فوق دولابها:

- إنه الخامس عشر.

وتعيد ذلك الأخت الثالثة التي تشتغل بالخياطة، ويرتسم الخط على جبين كل واحدة من الأخوات الثلاث عندما ألقت الأم ذلك السؤال.

وفي الهدوء المخيم على حجرة الأكل الرحيبة، ذات الستائر الرهيفة، تسرب إليها خاطر، لم يكن ليخطر لها في العادة، لقد استبعدنه جميعاً من قبل، لا عن تصميم، ولكن بطريقة عفوية. كان الخاطر يدور حول الزمن الذي يمضي.

لقد أدركت الأخوات الثلاث أسباب هذه الفكرة المخيفة التي تسربت إلى ذهن الأم المشلولة، المتروكة هناك، فوق المقعد. ومن أجل هذا انقبضت ملامحهن.

لم يكن ذلك من أجل شيزارينو. ولكن هناك أخرى لا تقيم في هذا البيت، ولكنها ربما تصبح غداً مليكة هذا البيت. إنها كلاريتا خطيبة الأخ، إنها هي التي تبث في أذهانهن فكرة في الزمن الذي يمضي.

لقد سألت الأم عن تاريخ اليوم حتى تعد الأيام التي انقضت منذ الزيارة الأخيرة التي قامت بها كلاريتا.

كانت في البداية، تأتي كل يوم، تلك الطفلة العزيزة، إنها طفلة حقاً في نظر الأخوات العوانس. كانت تأتي كل يوم على أمل أن يصل خبر عن عودته. لأنها متأكدة، وهي أشد يقيناً من الجميع، أن هذا الخبر سوف يصل قريباً. وكانت تدخل محتفلة، مرحة، إلى حجرة خطيبها وتترك فيها زهرة ورسالة. أجل. كانت تتابع الكتابة إليه، كل مساء كالعادة. وبدلاً من إرسالها إليه، كانت تتركها هناك حتى يجدها، حال وصوله.

وكانت الزهرة تذبل، ولكن الرسالة تبقى.

هل كانت تفكر كلاريتا، عندما كانت تجد الزهرة الذابلة فوق الرسالة التي وضعتها أمس، أن عبيرها أيضاً قد تبدد، وأنه لن ينتشي منه أحد؟ كانت تضعها في أحد أدراج المكتب الصغير، قرب النافذة، وتترك مكانها الرسالة الجديدة وفوقها زهرة جديدة.

دامت طويلاً. استغرقت أشهراً، هذه العناية اللطيفة. ولكنها في يوم من الأيام، جاءت هذه الصغيرة تحمل زهوراً كثيرة، ولكن من غير رسالة. قالت إنها كتبت ما تريد أن تكتبه في اليوم السابق، كتبت أكثر من المعتاد، وإنها سوف تواصل الكتابة كل مساء، ولكن في مذكرة قصيرة. ذلك لأن أمها لفتت نظرها إلى أنه من العبث أن تستمر في إفساد الورق والأغلفة.

كان هذا القول حقاً. إن ما يهمها هو فكرة الكتابة اليومية، وسواء بعد ذلك أن تكتب في رسالة أو مذكرة.

إلا أنه مع تخلف الرسالة اليومية بدأت تتخلف وتنقص زيارات الصغيرة كلاريتا. ثلاث مرت في الأسبوع، ثم مرتين، ثم مرة واحدة في الأسبوع. ثم بحجة الحزن على جدتها تغيب أكثر من خمسة أسابيع، وأقبلت ذات يوم ترتدي ثوب الحداد حزناً على جدتها، ووجدت نفسها،

على غير رغبة منها، تسير صحبة الأخوات الثلاث إلى حجرة خطيبها. وهناك حدث مشهد غير متوقع مزق قلوب تلك الأخوات لوعة وحزناً. ذلك أنها ما كادت تدخل الحجرة حتى ارتمت بثياب الحداد على ذلك السرير الأبيض، وأخذت تبكي بكاء يائساً.

لماذا فعلت ذلك؟ وما معنى البكاء؟ لقد ظلت ذاهلة حائرة أمام دهشة الأخوات الشاحبات اللواتي يتعذبن بلوعتهن الحارقة. وقالت إنها لم تستطع أن تملك نفسها، ولم تدر كيف حدث ولا كيف وقع منها هذا البكاء، وألقت الذنب على ثوبها الأسود، والألم الذي تحسه لوفاة جدتها.

وتابعت زياراتها.. مرة كل أسبوع، ولكن الأخوات أخذن يتحفظن نحوها ويتهيبن مرافقتها كالعادة إلى حجرة الغائب.

ولم تكن هي تجسر على الدخول إلى الحجرة وحدها، ولا تجد الجرأة على أن تطلب من إحدى الأخوات مرافقتها. ولم يعدن يتحدثن عن شيزارينو أبداً..

وبعد ثلاثة أشهر عادت إلى البيت ترتدي ملابس ربيعية بهيجة، متفتحة كأنها زهرة، تفيض مرحاً وحيوية. لم تشاهدها الأم والأخوات بمثل هذه الحيوية المتدفقة، منذ زمن بعيد. لقد أحضرت معها زهوراً كثيرة، ورغبت في أن تضعها بنفسها في حجرة شيزارينو، وأن تقوم بتوزيعها على الزهريات، وفوق المكتبة، والمنضدة وفوق الصندوق، وقالت إنها رأت حلماً جميلاً. ولم يبدين أي اعتراض، عندما أفضت لهن هذه الفتاة الصغيرة بأنه قد ولد في نفسها فضول لأن تعرف ما كتبت وما تجمع مما كتبته لخطيبها من رسائل منذ أكثر من عام، تلك الرسائل التي لا تزال على حالها في درج المكتب.. إنها أكثر من مئة رسالة. ربما كانت مئة وعشرون.. إنها ترغب في قراءتها كلها، وتريد أن تحتفظ بها مع ما

تسجله من مذكرات في تقويمها. وكانت في كل مرة تحمل معها مجموعة تتألف من عشر رسائل، حتى نقلتها كلها إلى بيتها.

ومنذ ذلك اليوم انقطعت زيارتها!

وكانت الأم، العجوز القعيدة، تحسب الأيام التي مرت منذ آخر زيارة! وهي تتأمل مساند المقعد الذي تجلس عليه. لقد كان الأمر غريباً، في نظرها، كما كان غريباً بالنسبة لبناتها الثلاث. وقد أحسسن جميعاً بثقل تلك الأيام، وطولها، وتعددها. أما بالنسبة لابنها الذي لن يعود، فالزمن ثابت لا يمر، فكأنه لم يسافر إلا بالأمس، بل كأنه لم يسافر على الإطلاق، وإنما خرج من البيت ليعود إليه بين لحظة وأخرى، ليجلس معهن إلى مائدة واحدة، ثم يذهب للنوم في فراشه.

وكانت صدمة قوية تلقتها الأم، وانهارت لها قواها الخائرة، عندما بلغها نبأ زواج كلاريتا.

كن يتوقعن هذا النبأ. فقد انقطعت زياراتها منذ شهرين تقريباً.

ولم تستطع الأخوات أن يتقبلن هذه الخيانة، وأصررن على رفض ما يوحي به هذا التصرف، ومقاومة أثر هذه الصدمة، بالتأكيد على أن كلاريتا لم تنفض اليد من شقيقهن، لأنه مات، ولكنها تزوجت بآخر بعد أن تعبت من الانتظار طوال ستة عشر شهراً. وكن يرددن إن احتضار أمهن ليس ناشئاً عن الصدمة التي بددت وهم العودة ولكنه ناشئ عن إحساسها بالآلام التي سيعانيها ابنها عندما يعود ويعلم بهذه الخيانة القاسية التي أقدمت عليها خطيبته كلاريتا.

وكانت الأم في سريرها، تصادق على هذا القول، ولكن عينيها كانتا تفيضان بابتسامة مشرقة.

وكانت البنات الثلاث يتأملن تينك العينين في حسد. إنها بعد قليل سوف تذهب إلى هناك. لترى ما إذا كان ابنها هناك. هناك سوف تستريح من هذا القلق، قلق الانتظار الطويل. سوف تتأكد وتتيقن ولكنها لن تعود لتخبرهن اليقين.

وكم كانت الأم. تود أن تفضي لهن باليقين الذي تحسه، من أن ابنها هناك ينتظرها، ولكنها لم تستطع، رحمة بهن، وإشفاقاً عليهن، هؤلاء الفتيات المسكينات اللواتي بقين هنا، وحدهن. إنهن في حاجة شديدة إلى أن يفكرن ويعتقدن أن الأخ لا يزال حياً، وأنه سوف يعود في يوم من الأيام.

وأخذ ينحجب ذلك النور الذي كان يتلألأ في عينيها، ولكنها ظلت حتى النهاية مشدودة إلى وهم بناتها الذي تريده أن يستمد من أنفاسها الأخيرة ما يساعده على أن يظل حياً إلى الأبد في نفوسهن. وبصوت خافت تتنهد قائلة:

- قولوا له أنني قد انتظرته طويلاً. وفي الليل كانت أربع شمعات تلتهب عند أركان السرير.

وكانت تلك الشمعة المصفرة المغروسة في شمعدانها منذ ستة عشر شهراً والتي يسخر منها التمثالان الرشيقان، كانت تحس شوقاً إلى اللهيب حتى ترعى ميتاً آخر، هنا، فوق هذا الفراش المهجور.

وكان انتصار لتلك الشمعة، وفي ذلك المساء لم يغير دورق الماء، ولم تستخرج المنامة، وظل التقويم يشير إلى تاريخ اليوم الذي مضى.

لقد توقف ذلك الحلم يوماً واحداً في تلك الحجرة التي تنتظر ويبدو أنه توقف إلى الأبد.

وكانت الساعة البرونزية العتيقة حزينة كئيبة ذاهلة، تتابع حديثها عن الزمن في ذلك الانتظار الدامس الذي لا حد له.

ذهول

كانت الساعة الثالثة ظهراً وكانت شمس أغسطس الحارة تخنق الأنفاس بشعاعها الممتزج بالغبار، حين وقفت عربة من الدرجة الثالثة مخصصة لنقل الموتى، أمام باب إحدى العمارات الجديدة، في حيّ براتي كاستولا بمدينة روما. وكانت أغلب هذه العمارات جديدة، غير مسكونة، وقد بدت من خلال نوافذها كأنما تنظر في ذهول واستغراب إلى هذه العربة السوداء. لقد شيدت ورفعت لكي تستقبل الحياة، ولكنها بدلاً من الحياة التي تعد نفسها لاستقبالها تفاجأ بالموت يختار ضحاياه من بين سكانها بالذات.

فالموت، قبل الحياة.

لقد أقبلت تلك العربة في بطء، وهدوء، وقد استولى النعاس على سائقها الذي يكاد يهوي، وقد سحب قبعته فوق جبهته وأمالها حتى لامست أنفه، ووضع رجلاً على غطاء العجلة القريبة، وحين وصل أمام أحد الأبواب الحاملة علامة الحزن والحداد، توقف ثم اضطجع ونام في راحة واطمئنان، فوق الصندوق.

ومن الدكان الوحيد المجاور خرج إليه من تحت مظلته القذرة الباهتة، رجل يتصبب عرقاً وقد رفع كمي قميصه حتى بدت ذراعاه بشعرهما الكثيف. وهتف موجهاً كلامه إلى السائق:

- بس.. هناك، أبعد قليلاً، هناك.

فسحب السائق قبعته قليلاً حتى يستطيع رؤية الشخص الذي يهتف به، وشد اللجام وابتعد عن الدكان دون أن يقول شيئاً.

هنا أو هناك، سواء في نظره.

وأمام أحد الأبواب الموارية توقف، وواصل نومه.

قال البقال الذي كان يراقبه ويهز كتفيه:

- إنه لحمار، ألم يفطن إلى أن جميع الأبواب موارية في مثل هذه الساعة لا بد أنه جديد على المهنة.

وهكذا كان الأمر، فهو في الحقيقة جديد على هذه المهنة. ولم ينتسب إليها إلا منذ ثلاثة أيام، ولم يرق له هذا العمل على الإطلاق. لقد اشتغل بواباً وتخاصم مع جميع الجيران، ثم مع صاحب العمارة وعمل حارساً في الكنيسة ولكنه سرعان ما اختصم مع القسيس. ثم عمل سائقاً لإحدى عربات الأجرة، فتخاصم مع المتعهد، ولم يجد بداً في ذلك الموسم الخامد من أن يعمل مع أحد متعهدي الدفن، وهو على يقين أنه سيتشاجر معه في يوم من الأيام، لأنه لا يستطيع تحمل الأشياء المعوجة ثم إنه إنسان تعس سيئ الحظ، هكذا باختصار يكفي أن تتأمله لكي تتأكد من ذلك، فالكتفان يتداخلان مع الرأس، والعينان كأنهما كوتان مفتوحتان، والوجه أصفر كأنه شمع والأنف أحمر.

لقد كانت تضايقه هذه الحمرة التي تعلو أنفه ويتساءل عن أسبابها، فالناس يستدلون منها على السكر والإدمان، بينما هو لم يذق قط طعم النبيذ.

إن حقده على الحياة بلغ حده وإنه لا بد أن يضع نهاية له، في يوم قريب أو بعيد، وحينئذ فإن معركته الأخيرة ستكون مع مياه النهر..

وليلة سعيدة. أما الآن فهو هناك، يأكله السأم والذباب، تحت شمس أغسطس اللافحة، في انتظار شحنته الأولى.

وبعد أن مضى نصف ساعة تقريباً، خرج إليه من إحدى العمارات الواقعة في الجانب الآخر من الطريق، عدد من الحمالين يلهثون تحت ثقل تابوت بائس، مغلف بقطيفة سوداء، وقد حفت حواشيه بأشرطة بيضاء، وكانوا يلعنون ويحتجون:

- ألم يعط لك عنوان المنزل؟

فاستدار واقترب منهم دون أن يقول شيئاً، منتظراً أن يفتحوا الباب الخلفي ويدفعوا التابوت دفعاً إلى العربة.

ومضت العربة في خطوات بطيئة كما جاءت. أما هو فقد وضع رجله فوق غطاء العربة، وسحب قبعته فوق أنفه.

العربة كانت عارية لا تزينها أوشحة ولا زهور وخلفها مرافقة واحدة وضعت خماراً على وجهها وارتدت ثوباً غامقاً ووضعت على كتفيها مظلة ذات لون فاتح تحت أشعة الشمس.

إنها تشيع الميت، وتحمي نفسها من الشمس بتلك المظلة، وقد نكست رأسها استحياء وخجلاً من هذه الجنازة التي تسير فيها وحيدة أكثر منها حزناً على الفقيد الراحل.

- روزي.. جولة ممتعة.

هتف بذلك في صوت مرتفع البقال الذي خرج من جديد من دكانه، وأردف التحية بابتسامة غير لائقة وهو يهز رأسه بطريقة منافية للذوق.

والتفتت إليه المشيعة الوحيدة من تحت الخمار. ورفعت يدها تحييه بقفازها النصفي ثم أنزلتها لترفع أذيال ثوبها، وتريه حذاءها العالي، إيه إنها تمتلك قفازاً ومظلة على الأقل..

ومن نوافذ إحدى العمارات قال أحد الجيران:

- يا له من مسكين، سوربير نارد، لقد مات كالكلب، أما صاحب الدكان فقد ظل يهز رأسه، وصاحت عجوز من إحدى النوافذ:

- أستاذ، تشيعه خادمته.

كان صدى هذه الأصوات يتردد بقوة في ذلك الشارع الهادئ المهجور.

وقبل أن يأخذ السائق اتجاهه فكر في أن يقترح على المرافقة أن تستأجر عربة حتى يسرعا في الوصول إلى المقبرة، طالما أنه لم يأت أحد لتشييع الفقيد سواها، في هذه الساعة، وفي هذه الشمس المحرقة؟!

ولكن روزيتا هزت رأسها تحت الخمار بالرفض، لقد أقسمت أن ترافق سيدها مشياً على القدمين حتى شارع سان لورنزو.

- ولكن ما جدوى هذا القسم؟ هل يراك سيدك؟

- كلا. إنه قسم.

وإذا كان لا بد من العربة فسوف تستأجرها عند نهاية هذا الشارع، لكي توصلها إلى المقبرة.

- وماذا لو دفعت أنا الأجرة؟

- لا يمكن. إنه قسم.

وابتلع هذه الإهانة الجديدة في صبر واستسلام، ثم أخذ يشق الشوارع، وهو يقود العربة في يقظة وانتباه إلى حركة المرور الكبيرة، واضعاً في تقديره أن أحداً لا يمكن أن يفسح له الطريق أو يحترم هذا الموكب الجنائزي الفريد.

وما كاد يقترب من ميدان بربريني حتى مال إلى أحد الشوارع المتفرعة عنه، فوضع رجله فوق غطاء العجلة وأنزل القبعة فوق أنفه واستسلم من جديد للنوم.

إن الخيول تعرف الطريق.

وعدد قليل من المارة كان يتوقف مستغرباً، مستنكراً نوم السائق فوق صندوق الموتى. الميت ينام في ظلام التابوت البارد، والسائق ينام في حر الشمس. ثم هذه المشيعة الوحيدة بالمظلة الفاتحة، والخمار فوق وجهها. إن هذا الموكب الصامت الوحيد في تلك الساعة القائظة ليثير العجب والاستغراب.

ليست هذه هي الطريقة التي ينتقل بها المرء إلى العالم الآخر، لقد أسيء اختيار اليوم والساعة والفصل.

ويبدو أن الميت تعمد ألا يعطي للموت أي مظهر جدي ملائم. ويبدو أن السائق على حق في تصرفه واستسلامه للنوم!

وظل السائق مستغرقاً في النوم حتى بداية شارع لورنزوا، وبعد اجتياز الطريق الصاعد، أخذت الخيول تسرع السير نحو المقبرة. وهنا استيقظ السائق فوقعت عينه على سيد يقف على يمين الرصيف. كان ذا لحية، يضع نظارات سوداء على عينيه، نحيفاً، يرتدي ثوباً رمادياً مشدوداً إلى جسده. وما كاد السائق يبصره حتى رفع قبعته واعتدل في جلسته، وقبل أن يسترد وعيه كان ذلك السيد قد هجم على الخيول وأمسك باللجام وأوقفها، وهو يلوح بيديه ويهدد، وكان يصرخ ويلعن ويشتم، ويكاد يرمي بيديه إذ لم يكن له شيء يرمي به.

- أتشير إلي.. إلي أنا.. أيها الملعون الوضيع؟.. أتشير إلى أبي أسرة.. أبي ثمانية أطفال.. يا لئيم؟!.. وأسرع المارة وأصحاب المتاجر يتجمعون حول العربة، وأطل الجيران من نوافذهم، وهرع عدد من

الفضوليين الذين لم يستطيعوا أن يفهموا سبب هذا الازدحام، وأخذوا يقتربون ويتساءلون، وقد وقفوا على رؤوس أصابعهم:

- ماذا حدث؟
- لا أدري..
- هل هناك ميت؟
- أين؟
- هل يوجد بالعربة؟
- من الميت؟
- يسجلون له مخالفة..
- للميت؟!
- للسائق..
- لماذا؟
- يقولون..

وظل الرجل يصرخ ويثور قرب واجهة أحد المقاهي حيث سحبه الناس، ولكن أحداً لم يستطع أن يفهم سبب هذه الثورة، وهذا الانفعال.

وفوق العربة كان السائق المتهالك يرفع قبعته عن عينيه الكليلتين الذابلتين ويجيب الشرطي الذي كان يسجل الملاحظات في دفتر صغير بين الضجيج. ثم تحركت العربة وسط الجمهور الذي أخذ يفسح الطريق، ولكن ما كاد أحدالعابثين يشاهد تلك المشيعة الوحيدة، بمظلتها وخمارها الأسود، حتى صفر لها!

- ما الذي حدث؟

- لا شيء. ذهول بسيط: سائق كان لثلاثة أيام مضت، يسوق إحدى عربات الأجرة ضربته الشمس، فاستيقظ فجأة ونسي أنه يسوق عربة موتى، وبدا له أنه لا يزال يعمل فوق عربة الأجرة، وقد اعتاد منذ أعوام طويلة أن يدعو الناس إلى استخدام عربته وتأجيرها. وحينما أبصر ذلك السيد يقف على الرصيف ويحدق فيه، أشار إليه بإصبعه أن يتفضل بالصعود!

ومن أجل تلك الإشارة البسيطة، كانت ثورة هذا السيد وهياجه.

وصفّر القطار

هذيان، أعراض حمى عقلية.

هكذا قال الأطباء، وردد جميع زملائه بالدائرة هذا القول، وهم يعودون من زيارته بالمستشفى.

وكان يبدو أنهم يجدون متعة خاصة في نقل هذا الخبر إلى الأصدقاء الذين تخلفوا عنهم، ثم التقوا بهم في الطريق، ويحسون لذة في التعبير عن ذلك باصطلاحات علمية تلقفوها من أفواه الأطباء.

- هذيان.. هذيان.
- مرض في المخيخ.
- التهاب في الجهاز العصبي.
- حمى عقلية.

وكانوا يتظاهرون بالضيق، ولكنهم في الحقيقة كانوا مطمئنين لقيامهم بواجب الزيارة، وسعداء بما توفر لهم من عافية تامة. وهم يخرجون من ذلك المستشفى الكئيب إلى شمس الشتاء المشرقة في ذلك الصباح الجميل.

- هل يموت؟
- هل يجن؟

- مه.

- يموت.. يبدو لي أنه لن يموت بهذا المرض!

ماذا تقول؟ ماذا تقول؟

- نفس الشيء. هذيان.

- مسكين بلوكا.

ولم يطف بذهن أحد منهم أنه من الممكن أن تكون هذه الحالة عادية وطبيعية بالنظر إلى الأوضاع الخاصة التي يعيش فيها هذا الإنسان التعس. وأن ما يقوله بلوكا ويبدو للآخرين ضرباً من الهذيان، وعرضاً من أعراض الجنون، إنما هو تفسير بسيط لهذه الحالة الطبيعية.

حقاً إن قيام بلوكا في مساء اليوم السابق، بالتمرد في شموخ وكبرياء، على رئيس دائرته حتى أوشك أن يهجم عليه عندما تعرض لتأنيبه القارس وتوبيخه الشديد.

كان مثاراً للمناقشات الجادة التي أجمعت كلها على أنه يعاني من أعراض حالة عقلية. ذلك لأن أحداً لا يمكن أن يتخيل إنساناً أكثر لطفاً وطاعة، وأكثر دقة ونظاماً، من بلوكا.

لقد وصفه أحد زملائه في العمل، بأنه الإنسان الذي يعيش ضمن دائرة محددة! لقد كان بلوكا المسكين يعيش داخل حدود ضيقة من واجباته الإدارية الرتيبة الجافة كمحاسب، لا همّ له سوى الاهتمام بالقوائم المفتوحة والقوائم البسيطة أو المضاعفة أو المرجعة، والسحب والتحويل والرسوم. ملاحظات، سجل الأستاذ، وهكذا.. فهو أرشيف متنقل، أو على الأصح، حمار هرم، يجر في صمت وسكون، عربته، بخطواته المعتادة وفي طريقه المعتاد.

حسناً. لقد جلد هذا الحمار الكبير أكثر من مرة، وعذب بلا رحمة ولا شفقة، لمجرد الاستمتاع بالضحك عليه، لمجرد الشعور بلذة النجاح في إثارته قليلاً إثارة تخرجه عن طوره، فيرفع على الأقل أذنيه المتهدلتين، ويقدم دليلاً على أنه يود أن يرفع قدمه ليصك بها، ويسدد بها ضربة لمن أرهقه، ولكن عبثاً، فلقد تلقى هذه السياط الظالمة، والوخزات القاسية في اطمئنان واستسلام، دون أن ينبس بكلمة، كما لو كانت شيئاً مقرراً له، كما لو فقد الإحساس بها، نتيجة أعوام وأعوام متواصلة من هذه الضربات التي يسددها إليه القدر.

إذاً، إن تلك الثورة لا يمكن أن تُفهم إلا إذا فُسرت بهذا التفسير الذي ينظر إليها على أنها عرَض مفاجئ من أمراض عقلية.

ففي اليوم السابق، تعرض لتأنيب رئيس الدائرة، وكان الرئيس على حق في هذا التأنيب. فقد حضر للعمل في ذلك الصباح بهيئة جديدة، غير مألوفة، وكان ذلك شيئاً غريباً لا يمكن تشبيهه إلا بانهيار جبل شامخ ثابت.. لقد تأخر نصف ساعة عن موعد الحضور.

لقد بدا له أن وجهه قد غدا أكثر عرضاً، وأن حجاباً قد رفع عن عينيه فاستطاع أن يكتشف فيما حوله، مشاهد الحياة التي ضاعت منه. وأن أذنيه قد انفتحتا فجأة، وانهالت فيهما أصوات لم يألفها ولم يفطن إليها قط.

وهكذا في بهجة غامرة مبهمة مليئة بالذهول والعجب، أقبل ذلك اليوم على العمل في استخفاف، ولم ينجز شيئاً طوال اليوم.

وفي المساء دخل رئيس الدائرة من مكتبه، وفتش السجلات والأوراق..

- كيف؟ ما الذي أنجزته طوال اليوم؟

فنظر إليه بلوكا باسماً، بطريقة ماجنة بعيدة عن الوقار والاحترام، ورفع يديه في وجهه.

- ماذا يعني هذا؟

سأله رئيس الدائرة، مقترباً منه، وشده من كتفه وأخذ يهزه.

- أو.. بلوكا!

فأجاب بلوكا، بتلك الابتسامة الماجنة الغبية التي ارتسمت على شفتيه:

- لا شيء.. لقد صفر القطار.

- القطار؟ أي قطار؟

- لقد صفر.

- ماذا تقول؟

- البارحة، يا سيدي المدير، لقد صفر، وسمعته بنفسي يصفر.

- القطار؟

- نعم يا سيدي. آه لو كنت تدري إلى أين وصلتْ في صحبته؟! إلى سيبيريا.. أو غابات الكونغو، في لحظات قليلة يا سيدي.

ودخل إلى مكتبه بعض الموظفين، عندما تناهت إليهم صرخات المدير الذي استشاط غضباً، ولكنهم ما لبثوا أن استغرقوا في ضحك مجنون عندما أصغوا إلى حديث بلوكا.

كان مزاج المدير سيئاً في ذلك المساء، وقد ضايقته تلك الضحكات، فأمعن في غضبه وأخذ يسخر من ضحيته الوديعة سخريات مُرّة قاسية، ومضى في إهانته وإذلاله.

غير أن الضحية، هذه المرة، وبين دهشة الجميع، تمردت على هذا الهوان، وخرجت عن طورها، وأخذت تصرخ مرددة قصة ذلك القطار الذي صفر، وإنها الآن، وبعد أن استمعت إلى صفير القطار، لا يمكن أن تقبل أن تُعامَل بهذه الطريقة.

وهكذا قبضوا عليه بقوة، وجروه إلى مستشفى المجانين، وظل هناك يواصل الحديث عن ذلك القطار، وكان يقلد هذا الصفير، إنه صفير حزين يترامى إليه من بعيد ذلك الليل البهيم.

ثم يضيف:

- إلى أين يا سادة، إلى أين؟ وينظر إلى الجميع بعينين غير عينيه السابقتين. فعيناه في العادة حزينتان، بلا بريق.

أما الآن، فإنهما ضاحكتان، لامعتان كأنهما عينا طفل صغير أو إنسان سعيد. والعبارات تخرج من فمه دون تعثر أو تلعثم.

أشياء لم تُسمع عنه من قبل. تعابير شاعرية خيالية مدهشة، ولا يمكن تفسير هذه المعجزة. وكيف تزدهر وتتلون هذه العبارات على لسان هذا الرجل الذي لم ينشغل حتى الآن بغير الأرقام والسجلات والكشوف، وقد عاش في صمم عن دعوات الحياة وعمى عن مشاهدها؟ كان آلة حاسبة صغيرة وهو الآن يتحدث عن آفاق رحبة زرقاء، وجبال شامخة مغمورة بالثلوج تتعالى في كبرياء نحو السماء. وأكرر أنها أشياء لا عهد لنا بسماعها تجري على لسانه.

إن الزميل الذي نقل إليّ خبر الجنون المفاجئ الذي أصيب به بلوكا، ظل ذاهلاً مستغرباً، من هدوئي في تلقي هذا الخبر دون إبداء أي استغراب بسيط.

فعلاً، تلقيت الخبر في صمت، وكان صمتي مليئاً بالألم والحزن، وهززت رأسي، وقلت في مرارة:

- إن بلوكا يا سادة لم يجن تأكدوا من ذلك، لم يجن. شيء وقع له، ولكنه طبيعي، لا يمكن لأحد أن يوضحه، لأن أحداً لا يعرف كيف عاش هذا الإنسان، حتى الآن.

أما أنا فإني أعرف، وإني لعلى يقين من قدرتي في أن أشرح ذلك، مؤكداً أنه شيء طبيعي، حالما أراه وأتحدث معه.

وحين كنت أسلك الطريق نحو المستشفى، حيث يعالج هذا البائس المسكين، تابعت تأملاتي، وحدي.

إن رجلاً يعيش كما عاش بلوكا حتى الآن حياة قاسية عسيرة، لا بد أن ينتهي إلى هذا الأمر، وإن الشيء الواضح والشيء العادي أن يثيره أقل شيء يعترض طريقه، ولو كانت صخرة صغيرة يعثر بها في الطريق، ويمكن أن تثير في نفسه عواطف غير عادية لا يمكن لأحد أن يفسرها إذا لم يضع في حسبانه أي حياة عسيرة كان يعيشها هذا الإنسان. علينا أن ننتهي بالتفسير إلى هناك، ونربط بينه وبين أوضاع الحياة الضنكة القاسية، وهناك فقط تبدو مثل هذه الحالة بسيطة وواضحة. ولم أر قط إنساناً يعيش في حالة كالتي رأيت فيها بلوكا. كنت جاراً له، ولم أكن وحدي بل كان جميع الجيران يتساءلون كيف يستطيع هذا الرجل أن يقاوم هذه الأوضاع التي يعيش فيها، فقد كان يعول ثلاثة عميان، زوجته وحماته وشقيقتها،، اثنتان منهما في أرذل العمر، أما الزوجة فهي مطبقة العينين. والثلاث يحتجن إلى خدمة، وهن يصرخن من الصباح إلى المساء، لأن أحداً لا يساعدهن، أما ابنتاه الأرملتان اللتان

ضمهما إليه بعد وفاة زوجيهما، فلم يكن لديهما الوقت أو الرغبة في خدمتهن، وإذا كان لا بد من الرعاية فإنهما يخصان بها والدتهما.

فهل يمكن لبلوكا، بمعاشه الضئيل كموظف صغير، أن يطعم هذه الأفواه؟

واهتم بالحصول على عمل آخر يؤديه في المساء في بيته، أوراق للنسخ، وكان ينسخ هذه الأوراق بين صراخ تلك النسوة، والأطفال السبعة حتى يأخذوا جميعاً أماكنهم في الأسرة المتوافرة في البيت.

أسرة زوجية كبيرة.. ولكن عددها لا يزيد على ثلاثة.

مشاجرات قاتلة، مطاردات لا تنتهي، أثاث يقلب، أوان تحطم، بكاء، عويل، وصراخ، وأحد الأطفال يهرب في الظلام لكي يندس بين العجائز اللواتي ينمن في سرير واحد ويتشاجرن بدورهن حول الجانب الذي ينمن فيه من السرير، فقد كانت كل واحدة منهن ترفض البقاء في الوسط، وتثور عندما يحين دورها.

ثم يسود السكون، ويتابع بلوكا النسخ حتى ساعة متأخرة من الليل، حتى يسقط القلم من يده، ويأخذه النعاس، وحينئذ يرتمي -في الغالب- بثيابه على أريكة بالية ويمضي في نوم عميق، ينهض منه في الصباح مشدوهاً، متثاقلاً.

وهكذا يا سادة، في هذه الحالة التي يعيش فيها بلوكا، فإن ما وقع له يكون شيئاً طبيعياً.

وعندما ذهبت لزيارته في المستشفى قص عليّ قصته، مقرونة بالدليل الواضح، كان ثائراً نوعاً ما، ولكن ذلك شيء طبيعي بالنسبة لما حدث له، كان يضحك من الأطباء ومن الممرضين ومن جميع زملائه الذين يعتبرونه مجنوناً.

ويقول:

- يا ليت.. ليتني كنت مجنوناً!

لقد نسي بلوكا منذ أعوام وأعوام طويلة، وجود العالم الذي يعيش فيه، كان غارقاً في عذابه المستمر، ووجوده اللعين، مستغرقاً طوال اليوم في إجراء حسابات الدائرة، دون أن يحظى براحة قصيرة يتنفس فيها الصعداء، كأنه حيوان مشدود إلى ناعورة أو طاحونة. نعم. لقد نسي وجود العالم، منذ أعوام بعيدة.

ومنذ يومين فقط، ارتمى على الأريكة لينام، وعلى غير عادته لم يستطع أن ينام على الفور. ربما كان مرجع ذلك إلى الإرهاق الشديد الذي عاناه في ذلك اليوم. وفجأة، وفي سكون الليل العميق، سمع من بعيد، صفير قطار وبدا له أن أذنيه كانتا مسدودتين منذ أعوام طويلة، وأن السداد قد رفع عنهما، لقد هزه ذلك الصفير، ورفع عن كاهله، فجأة، ثقل ذلك البؤس، وذلك الضيق الفظيع الذي عاش فيه، كأنما خرج لتوه من قبر ووجد نفسه في الفضاء الوسيع الذي ينبسط حوله في كل مكان.

لقد اندس تلقائياً تحت تلك الأغطية التي يلف بها جسده، وأخذ يجري بخياله خلف ذلك القطار الذي يقطع المسافات في الليل.

آه، هناك، خارج هذا البيت الرهيب، بعيداً عن جميع الآلام التي يعيش فيها، هناك، يوجد عالم آخر فسيح رحيب، يتجه نحوه هذا القطار. فلورنسا، بولونيا، تورينو، فينسيا، بلدان كثيرة زارها عندما كان شاباً، وهي بلا شك لا تزال تسطع أضواؤها فوق هذه الأرض الواسعة، إنه يعرف الحياة التي تحياها هذه المدن، الحياة التي عاشها هو الآخر، في يوم من الأيام. وما زالت هي تعيشها حتى الآن، بينما هو

مشدود إلى عمله كما يشد الحيوان إلى الطاحون. ولم يفكر في شيء لقد سد العالم في وجهه. ولم يعد يفكر به أو يذكره، إن عالمه قد أغلق حدوده في هذا البيت وعذابه المرهق. في حساباته الجافة ورتابتها الضيقة.

ولكنه الآن، ينسكب بقوة، في وجدانه أن هذه اللحظة التي ينطلق فيه بالقطار، هنا في سجنه هذا، فإنه يسري كالرعشة الكهربائية في العالم كله، وهو يتابعه بخياله الذي استيقظ فجأة. يلاحقه في المدن المعروفة والمجهولة في السهول والجبال والغابات، والبحار، كل هذه الرعشات وكل هذه الخفقات، موجودة هناك، بينما يعيش هو هذه الحياة الضنكة، ملايين وملايين من الناس ينتشرون فوق الأرض ويعيشون عيشة تختلف عنه.

وفي هذه اللحظة التي يتعذب فيها، هناك، الجبال الشامخة المغطاة بالثلوج والتي ترتفع قممها في شموج نحو زرقة السماء. نعم. إنه يراها يراها، يراها، هناك في المحيطات، والغابات.

الآن وقد استقبلت روحه هذا العالم وتفتحت عليه، فيمكنه أن يتعزى بذلك، يستطيع أن يتفوق على ألمه لكي يستنشق بطريقة خيالية نفحة من هذا العالم الرحيب.

هذا يكفيه!

بالطبع، كان في اليوم الأول، مبالغاً في انشراحه. كان منتشياً. فقد وجد وجدانه يحتوي العالم كله وأحس بانقلاب فجائي في حياته. ثم أخذ يستعيد نفسه ووعيه تدريجياً. ولكنه لا يزال منتشياً بتلك النفحة القوية التي هبت عليه.

وهو يأمل، بعد أن يسترد قواه، في أن يذهب إلى المدير ويعتذر له ويواصل عمله، ولكن شيئاً واحداً لا يمكن أن يطمع فيه المدير كثيراً، كما كان في الماضي، يجب أن يسمح له من وقت إلى آخر، بهروب بسيط، إلى سيبيريا، أو إلى غابات الكونغو.

- يمكن أن يتم ذلك في لحظة خاطفة يا سيدي المدير، الآن وقد صفر القطار.

ليل

بعدما بارح القطار محطة سلمونا، ظل «سلفلسترو تولي» وحده في تلك العربة العتيقة، من الدرجة الثانية.

وألقى نظرة أخيرة إلى الشرر المتطاير الذي كان يتلاشى مع اندفاع القطار. وأغمض عينيه على أمل أن ينتزعه النوم -بعد متاعب الرحلة الطويلة- من تلك اللوعة التي تأخذ بخناقه، والتي أخذ شعوره بها يتزايد كلما اقترب القطار من مكان منفاه.

ما أكثر الزمن الذي مضى، وقرقعة العجلات المتتالية تردد على سمعه، في سكون الليل، تلك الكلمات الرتيبة: أبداً.. أبداً.. أبداً..

أبداً.. أجل.. أبداً.. لن تعود تلك الأيام البهيجة من أيام شبابه الغابر. أبداً لن تعود تلك الأيام التي قضاها في صحبة رفاقه من الشباب العابث، تحت الأقواس المزدحمة في مدينة تورينو. أبداً لن يعود ذلك الاطمئنان، وذلك الدفء العائلي الذي كان يجده في بيته العتيق مع أسرته العزيزة. أبداً لن يجد تلك العناية، وذلك الحنان الذي كانت تغمره به أمه. أبداً لن يرى تلك الابتسامة اللطيفة التي تشع في نظرات والده فتمنحه الشعور بالحماية والاطمئنان.

كـان من المحتـمل، أن يحرم إلى الأبد من رؤية والديه العـزيزين، وأمه بصفة خاصة. ما أكثر ما تغيرت صورتها بعد سبعة أعوام من الفراق. كيف وجدها؟ منحنية القامة، منكمشة الجسم، صفراء كالشمع، مخلوعة الأسنان. أهكذا في أعوام قليلة؟ عيناها فقط تحتفظان ببريقهما وحيويتهما.. يا لهما من عينين مقدستين جميلتين..

وتأمل أمه، ثم تأمل والده، وأصغى إلى حديثهما. وطاف بالغرف باحثاً في زواياها وأركانها عن شيء افتقده. وأدرك جيداً أن الحياة في منزل والده لم تنتهِ بالنسبة إليه فقط، ولكنها انتهت بالنسبة للجميع، عقب رحيله، منذ سبع سنوات.

هل حملها معه؟ وماذا فعل بها؟ وأين الحياة منه، وهو الآن على هذه الحالة؟ لقد ظن الآخرون أنه قد حملها معه، أما هو فقد كان يشعر أنه تركها هناك، وهو يبحث عنها فلا يعثر لها على أثر. إنه يصغي إليهم وهم يؤكدون له أنه لن يجد شيئاً، لأن كل شيء قد رحل برحيله، فيحس من ذلك القول بشيء يشبه برودة الموت، يسري في كيانه كله، في ذلك الفراغ المحيط به من كل مكان.

بهذا الصقيع في قلبه، يعود إلى ابروزو، بعد أن انتهت الإجازة الممنوحة له لمدة أسبوعين، من مدير معهد المعلمين بمدينة سان انجلو، حيث يقوم منذ خمسة أعوام بتعليم الرسم. كان قد قضى عاماً كاملاً مدرّساً في كالابريا، وأنفق عاماً آخر في مدينة باسيليكاتا. وفي بلدة سان انجلو وجد نفسه مغلوباً بالحاجة إلى العاطفة التي تملأ عليه فراغ حياته، الذي أصبح ضائعاً فيه. وهكذا ارتكب حماقة الزواج.. فتسمر هناك إلى الأبد..

لقد ولدت زوجته ونشأت في تلك البلدة الصغيرة المرتفعة، المحرومة من المياه، حيث تسود العقليات الخرافية الضيقة، والأفكار المتخلفة، والكسل الغبي الذي تتميز به الحياة الريفية. وقد ضاعفت هذه كلها من إحساسه بالوحدة، وهي تذكره من حين إلى آخر، ببعده وحرمانه من الألفة العائلية التي كان يحرص على أن تكون من نصيبه، ولكنها ظلت بعيدة عنه، لا ينالها بفكره، ولا ينفذ إليها بشعوره.

ورزق بطفل. ولكنه أحس، منذ اليوم الأول، أنه غريب عنه، كأنه خالص لأمه وحدها وليس له منه نصيب. ربما أمكنه أن يستخلص هذا الطفل له وحده لو استطاع أن ينتزعه من ذلك البيت، ومن تلك البلدة. حتى زوجته، كان من الممكن أن تكون رفيقة حقيقية لحياته، كما كان من الممكن أن يحس ببهجة الحياة العائلية لو وفق بانتقاله إلى مكان آخر، ولكنهم أنكروا عليه أمل النقل حتى في المستقبل البعيد، هذا الأمل في الخلاص. فزوجته لم تشأ أن تتحرك من تلك البلدة حتى من أجل رحلة قصيرة في شهر العسل، أو التعرف بأسرته في تورينو، وكانت تهدد بالانفصال عنه في حالة انتقاله بدلاً من انفصالها عن أهلها.

إذاً، عليه أن ينغرس هناك وأن يظل ينتظر هناك، في تلك الوحدة المفزعة القاتلة التي تخبو معها الروح وتغلفها بلادة مريعة. كان يحب المسرح والموسيقا، وجميع ألوان الفنون الجميلة، ويكاد لا يحسن الحديث في غيرها من المجالات. وقد ظل دائماً يتعطش إليها كما يتوق إلى كأس من الماء النقي العذب. آه.. إنه لا يستطيع أن يشرب سوى هذا الماء العكر، الثقيل، الكثيف، المجمع في الصهاريج. يقولون إنه لا يضر، ولكنه منذ قليل، أخذ يحس بالألم في معدته. وهم يسخرون منه.

إن أجفانه المغمضة لم تستطع أن تحبس الدمع الذي يفيض من عينيه. وعض شفته كمن يريد أن يحول دون أن تنطلق من حلقه شهقات باكية. ولم يكن يفكر في أن وجهه قد علقت به بعض ذرات الدخان الذي كان يهب عليه، في أثناء هذه الرحلة الطويلة، وحين تأمل المنديل شعر بالغضب والمهانة لهذا الأثر الذي خلفه بكاؤه. لقد رأى حياته كلها في ذلك الانطباع القذر. وأمسك المنديل بين أسنانه كمن يريد أن يمزقه.

وتوقف القطار في محطة كاستيلا ماري. وكان يتحتم عليه أن ينتظر في ذلك المكان أكثر من خمس ساعات، من أجل مسافة لا تزيد على عشرين دقيقة. ذلك هو حظ القادمين من روما بهذا القطار الليلي، وينوون متابعة السفر على الخطوط الفرعية.

ومن حسن الحظ أن يشتغل مقهى المحطة طوال الليل. إنه مكان رحيب، حسن الإضاءة، موائده منسقة ومهيأة في نظام، ويمكن للمرء أن يجد في نوره وحركات المترددين عليه، ما يخدع به ملل الانتظار الطويل وما يصاحبه من كآبه. أما المسافرون فقد ارتسم على وجوههم المنتفخة الشاحبة المرهقة تعبير حزين وملل مرهق، وسأم مرير من الحياة التي تبدو لهم خارج إطار العواطف والعادات المألوفة، تافهة خالية من أي محتوى.

ما أكثر الذين تنقبض قلوبهم عند سماع ذلك الصغير الحزين الذي يصدر من قطار يشق جوف الليل. إذ يوحي إليهم أن الشقاء الإنساني لا يعرف الهدوء حتى بالليل. وفي الليل يبدو هذا العناء عبثاً باطلاً حين يتعرى من الخداع الذي يخلعه عليه ضوء النهار. ربما أحس كل واحد منهم أن الجنون هو الذي يوقد هذه المحركات السوداء التي تجري تحت

الأنفاق الطويلة، وترسل من حين إلى آخر صفيراً حزيناً بائساً، كأنما تئن من ثقل هذا الواجب الذي يفرض عليها أن تجري في جنح الليل، هذا الجنون البشري، على طول الخطوط الحديدية، لكي يحقق حاجاته التي لا تنقضي.

وبعد أن شرب سلفسترو كأساً من اللبن، نهض لكي يغادر المحطة من الباب الخلفي الذي يقع في أقصى هذه القاعة الرحيبة. وكان ينوي أن يتجه إلى الشاطئ لينعم بنسيم الليل، ماراً بالشارع الكبير في تلك البلدة النائمة.

كان يمر قرب إحدى الموائد حين تناهى إليه صوت امرأة تناديه. كانت قصيرة نحيفة، شاحبة الوجه، ترتدي ثياب الحداد:

- أستاذ تولي.

ووقف حائراً ذاهلاً!

- سنيورا.. آه.. أنت السنيور نينيا؟ لقد تغيرت كثيراً؟

كانت زوجة زميله الأستاذ رونكي. تعرف به منذ ستة أعوام، حين كان يعمل في المعاهد الفنية ببلدة ماتيرا. مات. أجل إنه يعرف أنه قد مات. منذ أشهر قليلة، وهو في عنفوان الشباب، تلقى نعيه في ألم ودهشة، عن طريق الصحف. يا له من مسكين. ما كاد يصل إلى الليسيه بعد مسابقات وامتحانات فاشلة، حتى مات فجأة بداء القلب، بداء الحب العنيف الذي يحمله لهذه الزوجة القصيرة، والتي كان يجرها وراءه في كل مكان. وكان يبدو إزاءها كالدب العملاق القوي العنيد.

وها هي الأرملة، تضع المنديل المحفوف بالسواد على فمها، وتنظر إليه بعينيها السوداوين الجميلتين وأخذت تقص عليه فاجعتها الأخيرة، وهي تهز رأسها من حين إلى آخر.

وحين رأى دمعتين تنسابان من عينيها الجميلتين، دعاها للنهوض والخروج من المقهى حتى يمكنها التحدث بحرية على طول الطريق المهجور الذي ينتهي عند شاطئ البحر.

كانت ترتجف. وتهتز بكل شخصيتها الصغيرة العصبية، وكان يبدو أنها تمشي قفزاً، وأفاضت في الحديث، وهي تلوح بيديها، وأخذتها الحماسة. وكان بها عيب في النطق فكانت تشدد على حرف الفاء، فتبدو وكأنها تبصق. وكانت ترفع المنديل تمسح أنفها وشفتها العليا من العرق. أو تبتلع ريقها الذي يكاد يغرق في صوتها.

- تأمل يا عزيزي تولي.. لقد تركني هنا وحدي مع ثلاثة أطفال في بلد لا أعرف أحداً فيه. إذ وصلته منذ شهرين تقريباً، وحيدة، وحيدة. يا له من أمر فظيع. لقد تحطم، ثم حطمني معه، صحتي.. حياتي.. كل شيء.

وارتجفت رجفة طويلة ثم واصلت كلامها:

- لقد غادرت بلدي.. ولم يعد لي هناك أحد، سوى أخت متزوجة، منصرفة إلى حياتها وشؤونها الخاصة.. ماذا أفعل هناك؟.. لا أريد أن أشهد أحداً على تعاستي وخاصة أولئك الذين حسدوني على حظي في يوم من الأيام.. هنا وحدي، وثلاثة أطفال، مجهولة من الجميع.. ما أفعل؟ إني بائسة تعيسة، وأحس أني ضائعة.. لقد كنت في روما لأستعجل الحصول على بعض الحقوق التقاعدية.. قالوا: لا حق لي في شيء.. أحد عشر عاماً في التدريس، مكافأة تعادل أحد عشر شهراً.. وبضعة آلاف من الليرات.. لم تصرف لي حتى الآن.. لقد صرّخت كثيراً في الوزارة.. فظنوني مجنونة. قالوا لي عليك بالحمامات الباردة أيتها

السيدة، ربما جننت حقاً. إنني أحس ألماً دائماً هنا، في الدماغ. لقد صرت غاضبة غاضبة.. أحس بالتهاب داخلي، والنار تسري في كياني.. آه ما أبردك يا تولي ما أبردك.

وهكذا في منتصف ذلك الطريق المهجور، تحت المصابيح الكهربائية التي تلقي ضوءاً شاحباً من خلال الندى الذي ملأ الجو.. تعلقت بذراعيه ودست رأسها في صدره كأنما كانت تريد أن تغرقه هناك.. وانفجرت في بكاء جنوني.

وفي استغراب، وذهول، وانفعال، انسحب تلقائياً لكي يبعدها عنه وقد أدرك أن تلك المرأة المسكينة وهي في حالتها تلك، كان لا بد أن تتعلق بأول رجل تقابله من أصدقائها:

- تشجعي.. يا سيدتي، تشجعي.. بارد؟ إني بارد لأن لي زوجة.

- آه..

وانفصلت عنه في الحال.

- زوجة؟ هل تزوجت؟

- نعم.. منذ أربع سنوات.. ولديّ طفل.

- هنا؟

- قريباً من ها.. في سان انجلو.

وتخلت عن ذراعه.

- ألست من مقاطعة بيومانتي؟

- أجل.. ومن تورينو بالذات.

- وزوجتك؟

- زوجتي.. من هذه البلدة.

وتوقفا برهة تحت المصابيح الكهربائية، وتبادلا النظرات وفهم كل منهما الآخر.

أما هي فقد كانت من الطرف الأقصى من إيطاليا، من بانيارا كلابرا.

ووجدا نفسيهما ضائعين في ذلك الليل البهيم، في ذلك الشارع الطويل الفسيح المهجور الحزين المبلل بندى الليل، ذلك الشارع الذي ينتهي عند البحر ويشق الفيلات والمنازل النائمة في تلك البلدة النائية البعيدة عن عواطفهما، القريبة من الأماكن التي قضى القدر بأن يقيما فيها. وشعر كل منهما نحو الآخر بإشفاق وأسى وعطف عميق، وقد أقفل كل منهما ذاته على بؤسه، وحزنه الذي لا يعرف السلوى أو العزاء.

وتمشيا حتى الشاطئ الرملي صامتين، واقتربا من البحر.

كانت الليلة هادئة.. وكان النسيم الندي يهب عليهما من البحر رقيقاً ناعماً. أما البحر فلم يكن يُرى في امتداده الذي لا يحد، ولكنهما كانا يشعران به، حياً خافقاً في ذلك الليل البهيم الهادئ. ومن بعيد، كانت ترتجف على البحر أشعة الربع الأخير من القمر.

وعلى الشاطئ كانت الموجات تمتد وتنبسط كأنها ألسنة صامتة، وهي تترك بعض القواقع التي ما تلبث أن تغرق عند انحسار الموج.

وفي صمت، تابعا المشي فوق الرمل المبلل، حيث تنطبع آثار خطواتهما ثم لا تلبث أن تزول حين ترتسم الخطوة التالية.. لا يسمع سوى حفيف ملابسهما.

وانتبها إلى قارب مسحوب على الرمل، فجلس هو في جانب وجلست هي في جانب آخر، ولبثا قليلاً صامتين يتأملان حركة الأمواج الخفيفة.

ثم رفعت المرأة عينيها الجميلتين إلى السماء وكشفت له تحت أضواء النجوم، الشحوب الذي ارتسم على جبينها الحزين، وقالت، والغصات تحاصرها:

- تولي، ألم تعد تغني؟

- أنا.. أغني؟

- نعم.. لقد كنت تغني، في يوم ما، في ليالينا الجميلة، ألا تذكر ذلك، في ماتيرا، لقد كنت تغني ولا يزال صدى أغنياتك يتردد في أذني. كنت تغني على نغم الفالس، في رقة وعذوبة، وفي عاطفة. ألم تعد تذكر.

وأحس بجميع كيانه يتحرك من أعماقه لذلك النداء المفاجئ، لتلك الذكرى العزيزة. أجل، وشعر برجفة تغمر جسده كله. أجل، لقد كان يغني حقاً.

كان يغني حينذاك ما زال يذكر، ومازالت في نفسه تلك الأغاني العذبة التي غناها في شبابه، في تلك الأمسيات الجميلة، عندما كان يتنزه مع أحد الأصدقاء، تحت النجوم، تلك الأغاني التي كانت تزدهر على شفتيه.

حقاً إذاً ما قيل من أن الحياة في بيت أسرته قد رحلت برحيله، إنه يذكر أنه يغني.. قرب هذه الصديقة المسكينة، ربما غازلها أيضاً في تلك الأيام البعيدة تعبيراً عن المودة والإعجاب المنزه عن الأغراض الدنيئة. من أجل الحاجة إلى الشعور بلطف امرأة صديقة.

- هل تذكر يا تولي؟

وهمس وقد حدق في الظلام:

- أجل.. إنني أذكر.

- هل تبكي؟

- أذكر.

وسكتا من جديد. وحين تأملا الليل الذي يحيط بهما بسكونه شعرا أن تعاستهما تكاد تتبخر، وأنها ليست تعاستهما وحدهما، ولكنها تعاسة العالم كله، تعاسة جميع المخلوقات والموجودات.. هذا البحر المظلم المؤرق.. تلك النجوم المرتجفة في السماء، كل هذه الحياة التي لا تعرف لماذا يولد الإنسان ولماذا يحيا، ولماذا يموت؟

وكان الظلام المنعش الهادئ، الذي تتخلله مجموعة من النجوم يلف كآبتها التي تمزج مع الليل وتخفق كخفقان تلك النجوم، وتضرب بهدوء رتيب مع تلك الموجات في ذلك الشاطئ الصامت. إن النجوم تسأل برجفاتها المضيئة التي تحترق في الفضاء، وتسأل البحر بتلك التموجات، حتى القواقع الصغيرة المنتشرة على طول الشاطئ.

وأخذ الظلام ينحسر تدريجياً، وبدأت تطل على البحر أنوار الفجر الشاحبة.

وشعر أنه يتحرر من وطأة ذلك البؤس المعتاد في بيته القريب الذي سيعود إليه بعد قليل، وهو يتمثله الآن أمامه، بجميع ألوانه وتفاصيله والحياة تجري فيه، وزوجته، وطفله الصغير، واحتفالهما بعودته.

ولم تعد هذه الأرملة أيضاً ترى مصيرها يائساً مظلماً، إن لديها بعض الآلاف من الليرات التي ستضمن حياتها فترة من الزمن. وستجد الطريقة التي ترعى بها أطفالها الصغار، ورفعت عن جبينها، خصلات شعرها وقالت وهي تبتسم:

- تولي.. من يدري كيف صار وجهي؟

ورجعا إلى المحطة.

لقد انطوت ذكرى هذه الليلة في أعماق نفسيهما، ولعلها تنبعث من جديد، في لحظة خاطفة، مقرونة بصورة هذا البحر المظلم الهادئ، وتلك النجوم الخافقة كما ينبعث الإلهام الشعري بغموضه وعذابه.

أشياء كثيرة

كانت الرسالة مكتوبة على ورقة جميلة، وردية اللون، مذهبّة الحواشي، تنم عن ذوق قروي رفيع وتنتهي بهذه العبارة:

«إذا عبرت لك عمّا أحسه من قلق، ربما أنكرت عليّ ذلك، قائلة: إنك عجوز مسن وفقير، يا عزيزي جورجيو. حقاً إنني شيخ. ولكن عليك أن تتذكري يا عزيزتي مامولينا، أنني أحببتك منذ كنت شاباً صغيراً، حباً عنيفاً، ولقد أفضيت لي بحبك حينذاك، ثم هبّت العاصفة، نعم، العاصفة، وحملتك بعيداً.. كم مرَّ من الأعوام؟ ثمانية وعشرون عاماً.. ولكن كيف استطعت أن أظل على ثباتي في هذا الحب، ولم أتغير؟. أعني كيف استطاع قلبي أن يظل على وفائه طوال هذه المدة؟.. إنه لمن الواجب ألا تتأخري في الرد على رسالتي هذه، حتى لا أظل نهباً للانتظار الطويل. هل تدرين؟ إنني قادم غداً لزيارتك؟.. لقد منحتك مهلة شهر للتفكير ولكن عليك أن تقرري موقفك غداً، رفضاً أو قبولاً، ولكنني أرجو أن يكون الرد بالقبول يا عزيزتي مامولينا، لا تهدمي القصر الجميل الذي أقمته هذا الشهر، لتحلي فيه ملكة معززة مكرمة ترعاها أمانيٌّ الشابة وتخدمها كالخادمات الودودات الناذرات للعذراء..»

وأدركت السيدة موما أن الجملة الشعرية الأخيرة، قد ألحقت بعد الفراغ من كتابة هذه الرسالة، وأنه من المحتمل أن يكون السيد جورجيو،

أراد ألا يضيع هذه الورقة الوردية الجميلة، المذهبّة الحواشي، وأن يوفر على نفسه عناء كتابتها من جديد. من يدري كم كلفته هذه الجملة الشعرية من مشقة وجهد، وكم استنفدت هذه الرسالة من جهد لكتابتها في هذا الشكل المنسق الجميل، وفي صياغة هذه العبارة الشعرية التي هبطت عليه أخيراً، بعدما أعاد قراءة الرسالة، ومراجعتها قبل أن يطوي عليها الغلاف. ذلك واضح، من هذا الحرف الصغير الدقيق الذي كتبت به والفراغ القليل الذي بقي من الصفحة بعد عبارة ستحلين ملكة.. وكانت هذه الإضافة التي تقفز إلى البصر، تملأ النفس شعوراً بسخف هذه الآمال الشابة التي ستخدمها كالخادمات الناذرات للعذراء. وما كادت تقرؤها بهذا الشعور، حتى رمتها في ضجر، دون أن تهتم بقراءة الجمل الأخيرة..

- يا إلهي، إنه قادم غداً؟.. ولكن كيف لم يفهم هذا الغبي أنني لا أريده..؟

كانت القبعة لا تزال فوق رأسها، فلم تملك من الحنق والضجر إلا أن تضرب الأرض بقدمها، وترفع يدها تعبيراً عن الاستياء والغضب.

لقد مضى على السيدة موما، أكثر من عام وأربعة أشهر، وهي بهذه الحالة، قبعتها فوق رأسها لا تنزعها إلا نصف ساعة أو ساعات قليلة في النهار، ثم تضعها في عجلة فوق رأسها، وتندفع خارج البيت من جديد. وتتجول من مكان إلى آخر تدفعها إلى ذلك رغبة لا تستطيع تحديدها، ولا تعرف بواعثها، وتملأ كيانها غيظاً وحنقاً خاصة إذا وقع بصرها على حجرة الاستقبال الفخمة، بستائرها الفاخرة، ولوحاتها القديمة والحديثة، وذلك البيانو الكبير، وتلك المقاعد التي تشبه مقاعد

الكنيسة، والتي كان يجلس عليها زملاء زوجها بآلاتهم الموسيقية، وإلى جانبهم ابنتها الجميلة «ألدا» إنها الآن تقيم بعيدة عنها.

لقد ترملت السيدة موما منذ عام وأربعة أشهر، وزوجها هو الموسيقار اللامع «ألدو سورافي». إن الرسالة التي تلقتها، في ذلك الصباح، والتي يخاطبها فيها السنيور جورجيو باسم مامولينا، قد أثارت في نفسها ذكرى بلدتها التي ولدت فيها، بلدة جبلية محفوفة بأشجار الصفصاف والكستناء، حيث هبّ عليها فجأة المايسترو الشاب، تحمله عاصفة خفية، جاء لاجئاً، عبقرية لم تفهم. وفي يده دفتر موسيقا.. باسم العاصفة.

كانت مامولينا، حينذاك، في السادسة عشرة، وردية البشرة، طرية، جميلة ممتلئة الجسم، وديعة.. وديعة... أحبت هي أيضاً المايسترو الشاب. أحبته كما فعلت جيمع فتيات البلدة. ولم تستطع أن تفهم لماذا وقع اختياره عليها هي بالذات رغم أنها كانت أقل حماساً من الأخريات. وتملكها الخجل وهي تقف أمامه مرتجفة، متضرجة الخدين، وحين اضطرت لأن تقول له أي شيء، صرحت له في لطف بأنها لا تفهم شيئاً في الموسيقى أو الشعر أو أي لون من ألوان الفنون الأخرى.

وربما كان من أجل ذلك فقط، تزوجها المايسترو. ومع ذلك، فقد كانت تعتقد أنها قد تقاسمت الحياة مع زوجها خلال ثمانية وعشرين عاماً. وكانت في البداية حياة عاصفة، غجرية، أنفقت في رحلات مرهقة، وطواف من بلد إلى آخر. وكان لسانها يلهث كأنها كلبة مسكينة، خلف تلك الرغبة الجامحة التي استبدت به، أن يصل القمة مهما كلفه الأمر.

ثم ولدت الطفلة، فولدت بميلادها حياة أخرى، لم تكن هادئة مريحة تماماً ولكنها أقل اضطراباً إذ كان المايسترو يستقر مدة بعد عودته منتصراً من جولاته الموسيقية، أو بعد المواسم الموسيقية التي يديرها في هذا البلد، أو في ذلك الآخر، إلى انتهى بها المطاف، إلى الشهرة والمجد والغنى، فاستقر نهائياً في روما.

وهناك نشأت ابنته، الشقراء الجميلة، في هذا المحيط الفني الرفيع الذي يعيش فيه والدها. ولكنها وجدت نفسها في يوم من الأيام تقع في هوى رجل صحفي قبيح ومسن، فتحطمت بذلك جميع المخططات التي رسمها لها والدها بطموحه، إذ رغبت في الزواج منه، ثم هاجرت إلى أمريكا وقررت الإقامة معه في «بونس آيرس» حيث عرضت على زوجها وظيفة مدير لإحدى الجرائد الإيطالية الكبيرة التي تصدر هناك. وبعد ثلاثة أشهر من هذا الزواج مات الوالد، الذي رفض أن يوافق على ذلك الزواج، ورفض أن يستقبل ابنته قبل سفرها إلى أمريكا.

إنه لألم عظيم. إنه لألم عظيم تحسه السيدة موما من جراء بعد ابنتها عنها. ولكن أعظم الكوارث التي حلت بها، هي موت زوجها، ولكنها لم تستطع أن تفهم أنها بفراق ابنتها، وبموت زوجها قد انتهى كل شيء، في هذا البيت، وفي هذا الرخاء الذي تركه لها الزوج.

إن السيدة موما تفهم جيداً أن تلك الحياة السابقة لا سبيل إليها. تلك الحياة النابضة الحافلة بصور الفن والإلهام، بتلك الحفلات، والمناقشات، والحاشية من المعجبات الرائعات اللواتي يحطن بذلك الأستاذ اللامع، بقامته القصيرة، وعينيه الوحشيتين تحت حاجبين كثيفين، كما يبدو في هذه الصورة الكبيرة المعلقة في صدر حجرة

الاستقبال. ثم تلك الحاشية من الشباب الأنيق الذي يحيط بابنتها الجميلة ويسكب في أذنيها كلمات الإعجاب والغزل الرقيق.

ولكن على الرغم من هذا التغيير، والتقلب الذي أصاب هذه الحياة، فإن العدد الكبير من الأصدقاء ذلك الزمن الغابر وصديقاته، قادر على أن يرد الحياة، وأن يعيدها إلى ذلك البيت الذي ظل كما كان، إلى غرفة الاستقبال الفاخرة، إلى كل هذه الأشياء التي خلفها زوجها، والتي أصبحت تعيش فيها وحيدة ضائعة.

ومن الصباح حتى المساء، والقبعة فوق الرأس، كانت السيدة موما تجري من مكان إلى آخر بلا راحة أو توقف، حانقة، ناقمة، تبحث عن أولئك الأصدقاء القدامى الذين كانوا يترددون على ذلك البيت العامر.

وقد قوبلت في البداية بشيء من العطف والحفاوة وأشفق عليها الكثيرون، وتأسفوا لمصيبتها المضاعفة، وقد وعدها بعضهم بالزيارة والاستفسار عنها من حين إلى آخر. ولكن أحداً لم يأت إليها.

وبمرور الزمن أصبحت السيدة موما امرأة قاسية شريرة.

- مخادع.. مخادع.. لقد وعدت بالزيارة.

- صدقيني يا سيدتي لم تمكنني ظروفي..

وعلى الرغم من يقينها بأنه لن يأتي أحد. فإنها تصمم في غضب وحنق على أن تنتظر عشر دقائق أخرى ثم ربع ساعة، حتى تنتهي الساعة، وحينئذ تغرس قبعتها فوق رأسها، وتخرج إلى الشارع من جديد، هائجة ثائرة على هؤلاء الأصدقاء الذين فقدوا اللياقة والأخلاق الكريمة.

ولم تفطن المسكينة إلى أن الأصدقاء والمعارف يتجنبونها، ويتهربون منها في الطريق بمجرد أن يلمحوها من بعيد، حتى يجنبوا أنفسهم

التعرض لهجومها القاسي، فإذا حاصرتهم وقبضت عليهم، مدوا لها يداً وأشاحوا عنها بوجوههم، ثم يعجلون بالفرار، دون أن يمكنوها من إتمام عباراتها المعتادة.

- غداً، إذاً.. سأنتظرك غداً.. من الرابعة إلى السادسة، لديّ أشياء كثيرة أحدثك بها.

وتذكر المسكينة، أنها قد أظهرت نحوهم عطفاً وحفاوة، وأنها قد رحبت بهم في بيتها بلا استثناء أو تمييز بين الصديقات والأصدقاء والمعجبات بزوجها والمعجبين بابنتها. كانوا يجلسون قربها، في أثناء تلك الحفلات ويوجهن إليها الحديث، ويحيونها بطريقة تنم عن الاحترام، والاهتمام، حين دخولهم وخروجهم من غرفة الاستقبال.. انحناءات.. ابتسامات.. ومجاملات.. وكانت تصغي في صبر إلى كل تلك الأنغام الموسيقية، وكل تلك المناقشات حول الفن، وكانت تجيب في بعض الأحيان بابتسامة، أو بهزة من رأسها لمن يوجه إليها نظرة خلال تلك المناقشة الحامية. إنها لم تستطع أن تتلاءم مع ظروفها الجديدة. فقد تخلى عنها الجميع لمجرد وفاة زوجها وسفر ابنتها، كما لو ارتكبت خطيئة في حقهم، لقد هجروا جميعاً ذلك البيت العامر الذي لم يبق فيه سوى هذه الآلات الفنية الثمينة تحيط بها كأنها معلقة في فراغ ساكن أو سكون فارغ.

لقد أصبح كل شيء في هذا البيت ملكاً لها، ومع ذلك فقد تملكها الشعور بأن هذه الأشياء كلها، تنظر إليها كإنسانة غريبة عنها، لا تستطيع أن تتحدث إليها بشيء لأنها كلها تحمل ذكريات حية، عن الزوج أو الابنة الجميلة، أما هي فليس لها شيء من هذه الذكريات.

وترفع بصرها لتحدق إلى إحدى اللوحات الفنية، وهي تعلم أنها لوحة قديمة وكيف لا تفهم ذلك..؟ وهي تعلم أنها امتياز خاص؟.. ولكن ما الذي تمثله هذه اللوحة..؟ ولماذا كانت هذه اللوحة جميلة..؟ ذلك شيء لا تستطيع أن ترد به حتى على نفسها.. وإذا تأملت البيانو.. حقاً إنها لا تستطيع أن تتأمله فلا تجرؤ على رفع غطائه. لأن زوجها أوصاها بشدة قبل موته، بأن لا تدع أحداً يقترب منه. أما هي فلم تفكر فيه، لأنها لا تفهم شيئاً من هذه الموسيقا، رغم أنها عاشت في صميمها طوال هذه السنوات، فهي لا تكاد تميز قواعدها البسيطة.

لم يعد ذلك البيت يحمل أي معنى للحياة، ولا يمكن أن تعود الحياة إليه إلا إذا عادت إليه بعض مظاهر الحياة القديمة، حياة الآخرين، حياة زوجها أو ابنتها.

هناك، لا بد من حياة أخرى، أما حياتها فلا شأن لها، لأن السنيورة موما في الحقيقة، لم تكن لها حياة خاصة بها في هذا البيت على الإطلاق، وينبغي أن نترفق في هذا القول ونهمس به حتى لا نسيء إلى هذه المرأة التي أصبحنا نطلق عليها اسم (المضجرة الرهيبة)..

وهي بالطبع.. لم تستطع أن تفهم هذا.. ولكنها كانت تشعر به كنوع من الهوس الذي يغيظها ويحنقها ويدفعها إلى الخروج من البيت، وهي تحمل في نفسها الإصرار على أن تنادي تلك الحياة القديمة وتجمعها حولها.

وفي اليوم التالي، استقبلت السيدة جورجيو فانتي، كأنه كلب وهو الذي حمل لها الحب في قلبه طوال ثمانية وعشرين عاماً. وقد أراد من

دعوتها للزواج به أن يعيدها إلى تلك الحياة الوحيدة التي يمكن أن تعيشها هناك في تلك القرية الجبلية، حياة متواضعة هادئة، تتشابه فيها الأيام بساطة ورتابة، حيث لا يحدث شيء يصعب على فهمها أو إدراكها، وحيث يمكن أن تلمس في كل شيء حقيقة وجودها.

ثم إن السنيور فانتي لم يكن مسناً، وكان جميلاً، وهو على التحقيق أجمل من ذلك الأستاذ القصير، وأغنى منه، يمتلك عقارات كثيرة، وله نصيب وافر من الثقافة القديمة الصحيحة، ويمكنه أن يقرأ قصائد فرجيل في اللاتينية مباشرة.

لم يجدها في البيت، وظل ينتظرها أكثر من ساعتين، وحين عادت ثائرة مرهقة، متوترة الأعصاب، حاقدة على أولئك الجاحدين الناكرين الأشرار الذين يتهربون منها ولا يبرون بوعودهم، وهجمت عليه في قسوة، في حجرة الاستقبال دون أن تنزع قبعتها، ورفعت خمارها الشفاف لكي تريه ما في عينيها من حقد ومن تصميم قاطع على رفض هذا العرض الذي تراه إهانة وتطاولاً على مكانتها..

- من الذي طلب منك الحضور يا عزيزي فانتيني؟.. أنا لم أطلب منك ذلك.. لم أرد حتى على رسالتك.. معذرة، هل يبدو لك أن ما تطلبه شيء ممكن؟.. يكفي أن تنظر يا عزيزي فانتيني، فيما يبدو حولك؟.. تأمل، هذا بيتي. هل تعتقد أنه من الممكن، وفي مثل سني، أن أتخلى عن هذه الأشياء التي صاغت حياتي طوال أعوام عديدة؟.. دعك من هذا الهراء.. كان عليك أن تفكر في الموضوع. هذه يدي تصافحك يا عزيزي، ولنبق صديقين.

ولم يجد السنيور فانتيني الجرأة على الإلحاح، وتأمل تلك الحجرة الفخمة التي تحتوي حياتها -كما تقول- ثم خرجت معه وكادت أن

تنسى بسببه جولتها اليومية المعتادة، ورآها فيما بعد، في الطريق، في تلك الأمسية الباردة من شهر ديسمبر، تقف عدة مرات، لتوقف هذا أو ذاك وتهاجمه. ورأى كيف أن هؤلاء السادة يمدون لها يداً ثم يعرضون عنها، وأصغى إليها وهي تردد في صوت غاضب منتحب عبارتها المعتادة:

- لقد وعدت بالزيارة، زرني، زرني من الرابعة إلى السادسة. لديّ أشياء كثيرة أحدثك بها.

صورة

- ستيفانو كونتي؟

- نعم، سيدي تفضل.. استرح.

واقتادني الخادم إلى صالون فخم.. أي تأثير عجيب بعثته في نفسي كلمة (السنيور) التي وجهت إليّ على عتبة دار صديقي، صديق الصبا.. أصبحت سنيوراً الآن؟.. وكذلك استيفانو كونتي أصبح هو الآخر سيداً في الخامسة أو السادسة والثلاثين.

وفي حجرة الاستقبال التي خيمت عليها ظلال حزينة، لبثت واقفاً أحدق إلى الأثاث الجديد بإحساس المتضجر السئم.. أثاث معد في الحجرة وكأنه قد وضع لغير الغرض الذي أريد له.. إن هذا الأثاث الفاخر لا ينتظر أن يستقبل أحداً لأن الصالون مغلق في أغلب الأوقات.. وكان الأسى الذي يسري في جوانحي يجعلني أتخيل أنه ينتظر إليّ في دهشة وعجب كأنما يستغرب رؤيتي هناك، إنه غير حاقد ولكنه غير مضياف.

لقد اعتدت منذ زمن رؤية الطراز القديم من الأثاث في البيوت الريفية.. إنه مريح ومتين، وقد اكتسبت بحكم العادة من ذكريات الحياة الهادئة المطمئنة طابعاً يجعله قريباً إلى النفس.. أما هذا الأثاث فإنه يقف أمامي جامداً متصلباً كأنما هو خرق كامل لجميع قواعد المجتمعات

السليمة.. هكذا كنت أفكر وأنا أهتف بحياة أريكتي القديمة تلك الأريكة الفسيحة الناعمة التي تحنو عليّ وتطوي ذكرياتي في عشيات الصيف الطويلة ولا يؤذيها حذائي المترب أو الرماد الذي يتساقط من غليوني.

ولكنني حين رفعت بصري فجأة إلى أحد الجدران أحسست بدهشة مقرونة بقلق عجيب، إذ لمحت صورة زيتية تمثل فتى في السادسة عشرة أو السابعة عشرة فيه ما في نفسي من كآبة وغم وسأم، وإن بدت كآبته أشد عمقاً وأكثر ألماً. ولبثت أتأمله في دقة من يتابع الهفوات والسقطات وقد خيل إليّ أن شخصاً قد فتح في رفق نافذة في ذلك الجدار دون أن أشعر به عندما كنت مشغولاً بالتفكير في ذلك الأثاث، أخذ يتجسس عليّ.

أنت على حق أيها السيد، كانت تحدثني بذلك عينا الشاب لتخرجاني من ارتباكي -نحن هنا في غم شديد، قد تركنا للوحدة بعيدين عن الحياة، في هذه الحجرة الخالية من النور والهواء، المنعزلة عن الحياة التي تجيش في أركان البيت.

من يكون ذلك الفتى؟.. كيف ومن أين جاءت الصورة إلى هذا الصالون؟.. ربما كانت في الصالون القديم الخاص بأسرة ستيفانو.. في ذلك البيت الذي كنت أزوره منذ أعوام بعيدة جداً باحثاً عن ستيفانو.. أنا لم أدخل ذلك الصالون القديم قط، لأن صديقي كان يستقبلني في حجرته الصغيرة أو في حجرة الطعام.

وكان يبدو على الصورة أنها قد رسمت منذ ثلاثين سنة.. ومن العجيب حقاً أنها توحي بأن الأيام التي مضت على وضعها في ذلك

المكان من قبل الرسام لم تكن سنوات حية بالنسبة لصاحب الصورة.. إن هذا الصبي قد توقف هناك عند عتبة الحياة.. في عينيه المفتوحتين الذاهلتين الغارقتين في حزن يائس شيء من ذلك الإحساس الذي يكون عند المتخلف في الحرب.. إنه منهوك متروك من غير معين في أرض معادية يحدق في أسى إلى زملائه الذين يتقهقرون، وكلما أمعنوا في الابتعاد أمعنت ضجة الحياة في البعد عنه.. أما هو فمتروك إلى الصمت الذي يقترب منه ويحيط به ويشعره بدنو الموت منه.

لم يفتح هذا الباب أي رجل في السادسة والأربعين أو السابعة والأربعين ليقول لزائريه مشيراً إلى الصورة -هذه صورتي عندما كنت في السادسة عشرة- إنها بلا شك صورة فتى ميت.. يدل على ذلك بوضوح، الموضع الذي تحتله من الصالون، فهي تذكار عزيز، وضعت هناك بين الأثاث الجديد، في عزلة عن حياة القصر.. والموضع الذي تحتله يدل على التقدير أكثر مما يدل على المحبة. أعرف أن ستيفانو لم يكن له إخوة، كما أدرك أن الصورة لا تحمل شيئاً من سمات أسرة صديقي.. ولست أرى لها أثراً للمشابهة بين استيفانو وأختيه المتزوجتين.. وتاريخ الصورة ومنظر الملابس يدلان دلالة قاطعة على أن الصورة لا يمكن أن تكون لقريب من أقرباء الأم أو الأب، مات في صباه.

وعندما أقبل استيفانو، وبعد أن تبادلنا التحية متعجبين من التغير الذي لحق بنا بفعل الزمن، أخذنا نسترجع ذكرياتنا، ووجدت نفسي أرفع بصري إلى الصورة وأحسست وأنا أسأل صديقي عنها أنني أرتكب خطأ أندم عليه أو أني أقترف خيانة سأتألم لها وحدي..

وكان يبدو لي أن الشاب الذي علقت صورته على الحائط يهمس لي

بعينيه الحزينتين البائستين قائلاً: «لماذا تسأل عني؟ لقد أفهمتك منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها الحجرة.. أني أحس بمثل ما تحس به من غربة وغم في هذا المكان.. فلماذا تحاول الآن الخروج من هذا الهم بالتماسك أخباري من الآخرين؟. تلك الأخبار التي لا أستطيع تصحيحها ونفيها، لأنني صورة خرساء».

وعندما أصغى صديقي إلى السؤال أشاح بوجهه ورفع ذراعه كأنما يريد أن يفر من رؤية تلك الصورة.

- من فضلك.. لا تتحدث عنه.. فلا أقدر حتى على رؤيته.

- عفوك، فقد ظننت..

ثم أسرع يقول:

- لا.. لا.. تتصور شيئاً منكراً، إن الألم الذي تجره على رؤية هذه الصورة، يصعب شرحه.

فجازفت مرة أخرى وسألت: هل هو قريبك..؟

قريب..؟ أجاب استيفانو ضاغطاً على كتفي.. إنه.. إنه.. ابن أمي.

فارتسمت على وجهي علامات الدهشة والاستغراب حتى أن استيفانو تضرج وجه ثم أضاف: «إنه ابن شرعي صدقني، فقد كانت أمي قديمة».. فقلت في غضب: «إذاً قل إنه أخ غير شقيق».

فأجاب وهو يشيح عن الصورة: «إن هذا التعبير يقربه إلي، وذلك يؤذيني وها أنذا أشرح لك كل شيء، سأحاول في أن أوضح لك هذه العقدة المشبكة من الأحاسيس والمشاعر التي كان من نتائجها أني احتفظت بهذه الصورة في الجدار إن رؤيته تثيرني على الرغم من مرور

السنوات العديدة.. فاعلم أن طفولتي قد سممت بعنف من قبل هذا الفتى الذي مات في السادسة عشرة، لقد سمم حبي المقدس.. حبي لأمي.. فاستمع..

«كنا نعيش حينذاك في الريف، ولدت وأقمت هناك حتى السادسة عشرة أي إلى الوقت الذي لم يتخل فيه والدي عن التزاماته التي جرت على الآخرين الثروة والجاه.

«كنا نعيش هناك وحيدين، كنا معزولين عن العالم، ولكن تلك حقيقة لم أفطن إليها إلا الآن، أما في ذلك الوقت، فلم أكن أحس بها لأنني لم أكن أتصور أن هناك، بعيداً عن هذه الأرض حيث ولدت ودرجت، وراء هذه الهضاب التي تبدو حزينة سابحة مع الأفق، لم أكن أتصور أنه يوجد عالم آخر.. لقد كان عالمي كله هناك ولم تكن لي حياة أخرى غير هذه الحياة التي أحياها في بيتنا، أي مع أمي وأبي وأخواتي والأشخاص الذين يعملون معنا.

«لقد جعلتني التجارب من أولئك الأشخاص الذين يتعمدون إخفاء كثير من الأسرار عن الأطفال لأنهم عندما يكشفونها فيما بعد فجأة ستكون ذات أثر سيّئ قد يؤدي إلى إفساد أرواحهم إفساداً لا صلاح بعده.. لقد كنت مؤمناً بأن ليس هناك حقيقة غير الوهم الذي يبتدعه الإحساس.. فإذا تبدل الشعور فجأة وتحطم ذلك الوهم تحطمت معه تلك الحقيقة التي كنا نعيش عليها ونجد أنفسنا ضائعين في الفراغ.

«هذا ما وقع لي عندما كنت في السابعة.. عندما وجدت عواطفي تتغير فجأة وكانت تحتل هذه العواطف أمي.. لا أعرف أماً كانت خالصة لأطفالها كأمي. ولم أكن أفكر، ولا كان إخوتي يفكرون عندما نراها من

الصباح إلى المساء تهيمن على حياتنا في غيبات والدنا الطويلة، إنها كانت مشدودة بحياة خاصة بها غير حياتنا.

«لقد كانت تذهب من حين إلى آخر -مرة أو مرتين في كل شهرين أو ثلاثة أشهر- بصحبة والدي إلى المدينة، حيث تنفق يوماً كاملاً، وكنا جميعاً نعتقد أنها تقوم بهذه الزيارة لكي تشتري ما يحتاج إليه البيت... بل ربما دفعناها نحن إلى هذه الزيارة لما كانت تجلبه لنا من هدايا ولعب.

وعادت ذات يوم شاحبة الوجه وقد انتفخت عيناها واحمرتا.. ولكن الشحوب الذي يشبه شحوب الموت، وجد تفسيره لدينا في التعب الذي تعرضت له في العربة أثناء الرحلة.. أما فيما يتعلق بعينيها فكان اعتقادنا أنه من المستحيل أن تكون قد بكت.. لقد احمرت عيناها من غبار الطريق.. حتى كانت عشية.. رأينا والدنا عائداً وحده إلى الفيلا وقد بدت على وجهه آثار الهم والاكتئاب.

- أين أمنا؟..

فحدجنا بعينين زائغتين.. أمكم؟.. لقد بقيت في المدينة.

لماذا؟ لأنها شعرت بشيء من الألم - ومضى يؤكد لنا أنها متألمة وأنها ستمكث في المدينة بضعة أيام وأنه ليس هناك خطر على صحتها غير أنها في حاجة إلى عناية لا يمكن أن تتوفر لها في الريف.

وأقمنا على دهشتنا تلك.. لأن من عادة والدنا أن يقسو علينا في حديثه وأن يتكلم في غضب لا يثير دهشتنا فقط بل قد يؤذينا ويبدو لنا أنه ظلم وجور.. ألا يبدو طبيعياً أن نندهش لذلك الخبر المفاجئ؟

ولكن قسوة والدي لم تكن موجهة إلينا.. عرفنا ذلك بعد أيام تالية

عندما عادت أمي.. ولكنها لم تكن وحدها.. ولو قدر لي أن أعيش مئة عام فلن أنسى وصولها في العربة ووقوفها أمام البيت، وما كدنا نسمع رنين الأجراس حتى أسرعنا -أنا وإخوتي- لكي نحتفل بقدومها... ولكن والدي اعترض طريقنا عند العتبة وأوقفنا بعد أن نزل عن فرسه، وكان أشعث أغبر، هرع لاستقبال والدتي قبل أن تصل إلى الفيلا.. ولم تكن وحدها.. أتفهم؟.. لقد كان إلى جوارها هذا الطفل الذي تراه.. مستنداً على وسائد وملفوفاً بأغطية صوفية.. وكان شاحباً كالشمع وكانت عيناه كهاتين اللتين تراهما في الصورة زائغتين تائهتين.. إنه ابنها..

لقد كانت متجهة إليه بكل عواطفها.. كانت خالصة له، وكانت منشغلة عنا بإنزاله في حذر بالغ من العربة حتى لا يناله أذى أو يصيبه مكروه، ولذلك لم تحيينا ولم تنظر إلينا نحن الذين كنا أبناءها بالأمس.

ابن آخر؟.. أمنا، أمنا جميعاً حتى أمس كانت لها حياة غير حياتنا، وكان لها ابن آخر غيرنا تحبه مثلنا وأكثر؟..

لا أدري إذا كانت أخواتي قد شعرن بمثل ما شعرت به.. لقد كنت أنا الصغير.. وكنت في السابعة.. لقد أحسست أن أحشائي تتقطع وقلبي يتمزق من الألم ونفسي يتحكم فيها شعور غامض وحالك عاصف فيه الحقد والغيرة والاشمئزاز وبأحاسيس أخرى لا أستطيع تمييزها، لأن الوجود قد انقلب كله في نظري، بفعل ذلك المشهد الذي لا يغتفر.. أن يكون لأمي طفل آخر ليس من إخوتي وأن تحبه كما تحبني وأكثر.

لقد شعرت أنه يسرق مني أمي.. لا.. ماذا أقول؟.. لا أحد يستطيع أن يسرقها.. لقد ارتكبت إزائي خطيئة إنسانية، كأنما هي

تسرق مني الحياة التي أعطتها لي، بدأت تنفصل عني وتبتعد عن حياتي لكي تمنح الحب الذي يجب أن يكون خالصاً لي إلى أخ له الحق نفسه في هذا الحب..

ألا ترى أنني أصرخ؟.. إنني أشعر عندما أتذكر بالحقد نفسه والغيظ السابق الذي لا يمكن أن يزول أبداً، على الرغم من أني عرفت فيما بعد القصة المؤلمة لهذا الفتى الذي انفصلت عنه أمي، بعد أن تزوجت من والدي. لم يكن والدي مقترحاً ذلك الانفصال وإنما تمسكت به أسرة الطفل، أسرة الزوج الأول الذي قتل بعد أن عاش مع والدتي أربع أو خمس سنوات حياة زوجية غير موفقة.. ولقد كانت أمي شابة.

ولعلك تفهم الآن أن الزيارات التي كانت تقوم بها أمي إلى المدينة إنما كانت تقوم بها لزيارة طفلها الذي لا نعرف عنه شيئاً والذي كان ينمو في رعاية عمه وعمته ثم مات عمه ومرض الطفل مرضاً خطيراً فهرعت والدتي إليه حيث وجدته يصارع الموت وما كادت تتأكد من بعض التحسن في صحته حتى اصطحبته ليجد طريقه إلى التحسن والعافية ويسترد صحته بفضل عنايتها وحبها. ولكن كل ذلك كان عبثاً فقد مات الطفل بعد أشهر.. ولم تكن الآلام التي عاناها لتخفف من حقدي عليه أو تثير الشفقة في نفسي، فلم يخفق له قلبي برحمة ولم يوقف موته حقدي عليه.. وكم كنت أتمنى أن يعيش وأن يبقى معنا ليملأ بالحقد هذا الفراغ المؤلم المخيف المفزع الذي تركه بعد موته بيني وبين أمي.

إن رؤية أمي تعود إلينا أكثر التصاقاً بعد موته وتصبح خالصة لنا كما كانت من قبل، كانت أكثر إيلاماً لأن ذلك السلوك أكد لي أنها لم تحس بما أحسست به أنا، ولن تشعر به لأن ذلك كان ابنها كما كنت أنا ابنها..

ربما تصورت أنها لم تكن تحبني وحدي وإنما كانت تحب أخواتي أيضاً دون أن تفهم أنها في حبها لأخواتي أقف أنا في الصميم، أشعر بهذا الحب، وأشعر أنه كالحب الذي تحمله لي ولكن في حبها لذلك الصبي لم أكن موجوداً.. لم يكن لي مكان.. ولا في قدرتي أن أتسلل لأن ذلك ابنها هي، وعندما تكون له لا يمكن أن تكون لي..

لعلك تدرك لماذا لم يؤلمني أن أفقد حبها، مقدار ما آلمني أن ذلك الطفل لها وحدها.. هذا أمر لم أستطع تحمله.. لأن أمي لم تعد لي وحدي كما كانت في السابق..

من ذلك الوقت.. صدقني.. عندما أخبرك بهذا الخبر الفظيع.. من ذلك الوقت لم أجد لأمي مكاناً في قلبي.

لقد فقدتها مرتين.. وهذه التي ماتت حديثاً لم تكن أمي.. أمي الحقيقية الأم التي يقال عنها أنها واحدة.. أمي الصحيحة، أمي الوحيدة ماتت عندما كنت في السابعة وقد بكيتها حينذاك بدموع من دم، وسكبت عليها عبرات حارة لن أسكبها عليها ما حييت.. إنها دموع تركت في نفسي أخاديد عميقة.. إني أحس بها في أعماقي تلك الدموع التي سممت طفولتي، ولذلك لا أستطيع حتى مجرد التحديق إليه. إني أدرك أنه كان بائساً هو الآخر.. ولكن حظه جعله لا يعيش هذا البؤس بينما أنا، لا لذنب جناه ولكن بسببه، عشت سنوات عديدة إلى جانب أمي دون أن أحس لها بمكان في قلبي كما كانت في السابق».

عندما نفهم

كـان على المسـافـرين الذين وصلوا من رومـا، بقطار الليل، أن يتوقفوا حتى مطلع الفجر، عند محطة فابريانو، ليتمكنوا من مواصلة السفر في قطار فرعي، بطيء، عتيق.

وعندما لاح الفجر، كان خمسة من الركاب قد أخذوا أماكنهم في العربة العتيقة المخصصة لركاب الدرجة الثانية، ودلفت امرأة تكاد تحمل حملاً على أكتاف الرجال الذين هبوا على الركوب، وقد هدها الحزن حتى لم تعد تقوى على الوقوف.

كان ضوء الفجر الشاحب، والضيق الخانق في تلك العربة التي رانت عليها سحب كثيفة من الدخان، قد أوجدا في نفوس هؤلاء الركاب الذين أمضوا الليل في أرق، حالة خيلت إليهم أن هذه المرأة التي تدلف إلى العربة، شبح مخيف. إذ كان تبدو وكأنها كومة من الثياب، شحنت شحناً من الرصيف إلى العربة.

وكان يسندها من الخلف، في ضيق وتأفف زوجها، الذي كان يبدو هزيلاً، نحيلاً، شاحباً كالميت. ولكن عينيه كانتا تلمعان بحيوية حادة. ولم يمنعه العناء الذي يحسه لرؤية زوجته على هذه الحالة من أن يظهر بشوشاً متهللاً رغم ارتباكه الشديد، ولقد ضايقه، فيما يبدو، ذلك الجهد

الذي بذله وأحنقه، شعوره بأنه لم يقدم إلى هؤلاء الركاب دليلاً على قوة كافية، في دفع زوجته بحملها الثقيل إلى العربة.

وأخذ مكانه بعد أن اعتذر للركاب وشكر لهم مساعدتهم وإفساحهم مكاناً لزوجته الحزينة، ثم التفت إلى زوجته مبدياً نحوها عطفاً وإشفاقاً كما أخذ يسوي أطراف لحافها.

- هل أنت بخير يا عزيزتي؟

ولكن الزوجة لم تجب. بل رفعت طرف ردائها في غضب حتى كادت تخفي وجهها كله، وحينئذ ابتسم في أسى، وتنهد قائلاً:

- إيه.. دنيا!!

وأراد أن يبين لرفقاء الرحلة، أن زوجته في حالة تستوجب العطف والإشفاق، بسبب قرب سفر ابنها الوحيد إلى الحرب، وقال: إنهما منذ عشرين سنة لم يعيشا إلا من أجل ذلك الابن الوحيد، وإنهما قد اضطرا في السنة الماضية إلى الانتقال من «سلمونا» إلى «روما» للبقاء بجانبه عند استئناف دراسته الجامعية. وما كادت تنفجر الحرب حتى دعي إلى التجنيد، وانخرط في دورة سريعة للضباط، وعين بعد ثلاثة أشهر ملازماً في الفيلق رقم ١٢ من سلاح المدفعية. مؤكداً أنه سيبقى هناك مدة شهر ونصف حتى يتلقى تدريبه وتعليمه العسكريين، ولكن بدلاً من ذلك، ها هم يعجلون الآن بإرساله إلى الجبهة بعد ثلاثة أيام من تجنيده. لقد تلقيا في اليوم السابق بروما برقية تخطرهم بسفره المفاجئ، وهم الآن يتوجهون إليه لتحيته وتوديعه.

وتململت المرأة تحت لحافها، وانطوت على نفسها ثم زمجرت أكثر من مرة كأنها وحش غاضب، متضايقة من ذلك الشرح الطويل الذي

قدمه الزوج الذي لم يدرك أن سامعيه لم يمنحوه تجاوباً خاصاً من أجل حادثة تقع لكل الناس، بل لعل من شأن هذا الشرح أن يثير حنقاً واستياءً في نفوس هؤلاء الركاب الذين لم يغلبهم الحزن على أمرهم، رغم أن لكل واحد منهم ابناً أو عدة أبناء في الحرب.

ربما قصد الزوج من حديثه، ومن إعطائه كل هذه التفاصيل عن ابنه الوحيد، وسفره المفاجئ بعد ثلاثة أيام. إلخ. أن يستدرج المسافرين لكي يعيدوا على مسامعها، وفي برود جاف كل تلك الكلمات التي رددها هو منذ أشهر، أي منذ انخرط الابن في سلك الجندية، وهو لا يريد من ذلك أن يعزيها أو يعزي نفسه، ولكنه يريد إقناعها بالاستسلام الذي يبدو أنها لا تريد أن توطن النفس عليه.

وفعلاً، تقبل الركاب هذا الشرح ببرود، وقال أحدهم:

- لتحمد الله يا سيدي العزيز. أن ابنك لم يسافر إلا الآن، إن ابني هناك في الجبهة منذ بداية الحرب. ولقد جرح مرتين. فاهم؟.. مرتين، ومن حسن الحظ أن كان الجرح الأول في الذراع، والثاني في الساق، وكانت الجروح خفيفة بسيطة، منح على أثرها إجازة شهر ثم عاد إلى الجبهة.

وقال آخر:

- لي في الجبهة ابنان، وثلاثة أقارب.

- إيه، ولكن الابن الوحيد؟

بهذه العبارات حاول أن يذكرهم بحالته الخاصة، ولكن الرجل الآخر قاطعه بطريقة غير مهذبة:

- هذا غير صحيح. لا تقل هذا الكلام، إننا ندلل ابننا الوحيد ولكننا لا نحبه أكثر مما نحب الآخرين. إن الخبز هو الذي نقسمه بين

الأبناء كسرة كسرة، أما الحب الأبوي فلا يمكننا أن نوزعه بهذه الطريقة، فلكل ابن أب يمنحه كل ما في قدرته من حب. فإذا كنت أتألم الآن، فإنني لا أقسم ألمي نصفين، نصفاً للأول ونصفاً للآخر، ولكنني أتألم لكل من الاثنين.

وتقبل الزوج هذا التعليق بابتسامة حيية، وقد بدا عليه شيء من الإشفاق والارتباك.

- صحيح، هذا صحيح، ولكن مهلاً، نحن الآن في المناقشة وعلينا أن نقدم جميع الأمثلة والافتراضات. ولكن لنفرض -وأرجو ألا يفسر هذا الافتراض بالنسبة إلى حالتك الخاصة- لنفرض حالة أب اشترك جميع أبنائه في الحرب وفقد -لا قدر الله- واحداً منهم، فإنه سيبقى له الآخر على الأقل.

وهبّ الثاني مؤكداً في حزم وصرامة:

- نعم، إن ذلك يفرض عليه أن يعيش من أجله. وهذا يعني أنه إذا حدث لك، لا أقصد حالتك، أقصد أباً ليس له إلا ابن واحد ثم يحدث أن يموت. فإذا كان على يقين بأنه لا يستفيد من بقائه بعده فإن الطريق أمامه واضح، يمكنه أن ينتحر، ووداعاً للحياة وآلامها. بينما أنا، هل تفهم؟.. يجب عليّ أن أحتفظ بالحياة من أجل هذا الابن الذي بقي على قيد الحياة، وهكذا يتبين أن أسوأ حالة هي حالتي.

وهبّ عند هذه النقطة مسافر آخر معترضاً على هذا الحديث. وكان رجلاً بديناً، قاني الوجه، وأخذ يحدق إلى ما حوله بعينيه الجاحظتين الداميتين. وقال:

- أية أحاديث هذه؟..

كان يلهث، وكان يبدو أن عينيه تكادان تخرجان من محجريهما لما تنطوي عليه جوانحه من حيوية مضطربة لم يعد جسده البدين قادراً على التلاؤم والتجاوب معها.

وغطى فمه بيده الكبيرة، عندما تذكر سنين مخلوعين من أسنانه ولكنه ما لبث أن نسي ذلك، واستطرد قائلاً:

- هل يخلق أبناؤنا من أجلنا ؟..

وتطلع المسافرون إليه في دهشة، وتنهد الرجل الذي سافر ابنه إلى الحرب منذ اليوم الأول قائلاً:

- إيه، من أجل الوطن، نعم.

فقال الرجل البدين:

- إيه، إذا كنت تقول يا سيدي من أجل الوطن ألا يبدو لك أن هذا المقطع الغنائي ظاهر التكلف والتصنع؟..

يا بني، لقد حملتك

من أجل الوطن

وليس من أجلي

خرافات.. ومتى..؟ هل تفكر في الوطن عندما يولد لك ابن؟ هذا كلام مضحك، إن الأبناء يولدون لا لأننا نريدهم، بل لأنهم يجب أن يولدوا. ينتزعون حياتهم، وحياتنا أيضاً. هذه هي الحقيقة. نحن لهم، وهم ليسوا لنا. وحين يبلغون سن العشرين.. ولكن عليك أن تتذكر أنهم يشبهوننا عندما كنا في هذه السن. كان والدنا، وكانت أمنا، ولكن كانت هناك أشياء أخرى في حياتنا، اللهو، الفتيات، ربطات العنق الجديدة، الأحلام، السجاير، وحتى الوطنية. هكذا كنا في سن العشرين

قبل أن ننجب الأبناء، لو هتف بنا داعي الوطن لكان شعورنا بأن الوطن يتقدم على أمنا وأبينا.. نحن الآن في العقد الخامس أو السادس، ولا يزال الوطن قائماً في نفوسنا ولكن في أعماقنا يكمن الشعور العنيف بحب أبنائنا. من منا يتأخر لو كان بوسعه أن يأخذ مكان ابنه في الجبهة؟ لن يتردد أحد منا. ألا نريد أن نحترم مشاعر أبنائنا وهم في سن العشرين؟.. أبناؤنا الذين بلغوا المرحلة التي يتوجب عليهم فيها الإحساس بالوطن أكثر منا؟.. أرجو أن أكون واضحاً، إنني أقصد الأبناء الصالحين، فنحن أمام الوطن كلنا أبناء في نظرهم، ولكننا عاجزون عن الحركة، ومن حقنا أن نستريح، إذا كان الوطن موجوداً، وكان ضرورة طبيعية كالخبز الذي يجب أن يأكله أي واحد منا إذا أراد أن يعيش ولا يموت جوعاً، فيجب أن يسافر بعضنا من أجل الدفاع عنه. وقد حان الوقت لكي يسافروا هم في سن العشرين، لأنه من الواجب أن يتوجهوا إلى الحرب. وهم لا يريدوننا أن نبكي، لا يريدون بكاء لأنهم إذا ماتوا فإنهم يموتون في حماسة واطمئنان، إنني أقصد دائماً الأبناء الصالحين، وماذا يريدون أكثر من ذلك؟.. أن يموتوا مطمئنين دون أن يجربوا المظاهر الكريهة في الحياة، دون أن يرهقهم البؤس أو السأم أو ثقل الشيخوخة ومرارة الخيبة، علينا أن نبكي، بل أن نضحك، نضحك كما أفعل أنا سعيداً بذلك لأن ابني كتب يقول لي إن حياته، هل تفهمون «حياته» هي التي ينبغي أن نراها في أشخاصهم وليست «حياتنا»، وقد بذلها في أعظم ميدان، وإنه ينهيها بأنبل وسيلة، وهو يموت مطمئناً. ويوصيني بأن لا أرتدي السواد حزناً عليه وهكذا ترونني أفعل الآن.

ورفع أطراف سترته ليشاهدوها، وكانت شفتاه ترتجفان عن أسنان متساقطة وعيناه تترجرجان، وختم حديثه بابتسامتين متقطعتين كأنهما شهقتا بكاء ونحيب.

- هكذا. هكذا.

وكانت الزوجة التي التحفت بلحافها، تحاول منذ ثلاثة أشهر أن تجد فيما يردده زوجها ويقوله الآخرون كلمة واحدة تمنحها العزاء والسلوى وتقنعها بالخروج من ذلك الألم الحاد الأصم الذي لا يتردد فيه صدى يفهمها كيف يمكن أن تستسلم الأم وتذعن وتقتنع بإرسال ابنها، إلى أي مكان تتعرض فيه حياته للخطر.

لم تجد كلمة واحدة على الإطلاق بين الكلمات العديدة التي رددت على مسامعها. وقد تيقنت أن الآخرين الذين يتحدثون إليها بالاستسلام والاطمئنان، إنما يفعلون ذلك لأنهم لم يشعروا بما تشعر به هي.

ولكن كلمات هذا المسافر تثير دهشتها واستغرابها. وأدركت فجأة أن ليس الآخرون هم الذين لم يحسوا بإحساسها، ولكنها هي التي لم تشعر بما يشعر به الآخرون ويستسلمون له في غير تمرد، لا عند رحيل الابن، كحالتها، ولكن عند موته.

ورفعت رأسها، وأخذت تصغي في زاوية تلك العربة إلى ردود ذلك المسافر على الأسئلة التي كان يوجهها إليه زملاؤه حول الزمان والمكان والطريقة التي مات بها ابنه، وخيل إليها أنها تزداد علماً لم تعرفه من قبل. وإنها تواجه للمرة الأولى، وهي تصغي إلى الآخرين وهم يبدون تفهماً لمشاعر هذا الرجل ويهنئونه على هذه الطريقة التي تحدث بها عن موت ابنه.

ولكنها رأت فجأة أنه قد ارتسم على وجوه هؤلاء المسافرين الدهشة نفسها التي ارتسمت عليها، وحينئذ دون وعي أو إرادة، وكأنما لم تفهم أو تدرك شيئاً من كلامه، هبت في وجه ذلك العجوز قائلة:

- وهل مات ابنك حقاً؟..

والتفت العجوز، يحدق إليها بتينك العينين الجاحظتين، وأخذ يمعن فيها النظر، مرة ومرتين كما لو أحس من جانبه، بما يحمله ذلك السؤال وتلك الدهشة الغريبة، وأدرك حينئذ فقط أن ابنه مات حقاً بالنسبة إليه، فتجهم وجهه وأسرع يخرج منديله من جيبه، وبين دهشة الجميع وأسفهم انخرط في بكاء حاد، لا يعرف الانقطاع.

الجَدي الأسود

مما لا ريب فيه، أن السيد تشارلز تروكلي كان على حق. بل إنني على استعداد للإقرار بأن السيد تشارلز لم يكن أبداً على خطأ، ذلك أن الصواب والسيد تروكلي شيء واحد. فكل حركة، وكل إشارة، وكل كلمة تصدر عن السيد تروكلي إنما تصدر دقيقة، صارمة صائبة لا سبيل إلى الشك في صوابها. فلا يملك أي إنسان إزاء ذلك إلا الاعتراف بأنه لا يمكن أن يكون السيد تروكلي في أي ظرف من الظروف، أو أمام أي سؤال يطرح أو في مواجهة أي حادث يقع له، لا يمكن أن يكون إلى جانب الخطأ وعلى سبيل المثال، فقد ولدنا -أنا وهو- في العام نفسه وفي الشهر نفسه بل وتقريباً في اليوم نفسه، ولد هو بإنجلترا وولدت أنا بصقلية. واليوم هو الخامس عشر من يونيو، وفيه يبلغ هو الثامنة والأربعين من عمره، وسوف أبلغ أنا الثامنة والأربعين في اليوم الثامن والعشرين منه، حسناً، كم سيكون عمره وعمري في هذين التاريخين من السنة القادمة؟ إن السيد تروكلي لا يرتبك ولا يتردد لحظة واحدة، في أن يقرر بحزم الرجل الواثق، أننا في هذين التاريخين من يونيو القادم، سنكون في التاسعة والأربعين، أي بزيادة عام في عمر كل منا؟ هل يمكن أن نقنع السيد تزوكلي بخطأ ذلك؟

إن الزمن لا يمضي متساوياً بالنسبة للجميع، إذ من الممكن أن يجر عليَّ يوم واحد، أو ساعة واحدة من المتاعب والمكاره ما لا تجره عليَّ عشرة أعوام من حياة يعيشها هو ويمضيها في نطاق نظامه الصارم المرفه. ومن الممكن أن أعيش أنا بحكم الفوضى المرهقة التي تعيش فيها روحي، خلال هذا العام، ما يعادل حياة كاملة. فجسمي أوهن من جسمه، وأقل ظفراً بالعناية والرعاية، وقد تهالك فعلاً خلال هذه الأعوام الثمانية والأربعين بما لا يمكن أن يبلغه السيد تروكلي في السبعين. فهو على الرغم من الشيب الذي غطى رأسه كلّه وكساه لوناً فضياً فإن وجهه لا يزال طرياً ناعماً خالياً من التجاعيد، وفي وسعه أن يمارس لعبة المسايفة كل صباح بخفة الشبان ورشاقتهم.

وأية أهمية لذلك؟

إن كل هذه الاعتبارات المثالية منها والواقعية، إنما هي في نظر السيد تروكلي اعتبارات سخيفة خاملة، وبعيدة عن الصواب. والصواب كما سيقول السيد تروكلي -إنني وإياه سنكون في ذينك التاريخين من شهر يونيو، قد زدنا سنة أخرى في حياتنا.

بعد هذا التقديم، أرجو أن تصغوا إلى ما وقع أخيراً للسنيور تروكلي. وحاولوا إذا أمكنكم أن تقنعوه بخطئة.

ففي أبريل الماضي، وسيراً على البرنامج الذي خططته إحدى الوكالات السياحية لرحلاتها في إيطاليا قامت الآنسة (أتيل هولوي) ابنة أحد وجهاء إنجلترا الذين يجمعون بين السلطة والنفوذ والثروة، برحلة إلى صقلية وقد وجدت هذه الفتاة الجميلة الصغيرة الغضة الناعمة التي تتدفق نشاطاً وحيوية، في (جرجنتي) ضمن البرنامج المقرر لزيارة

الآثار اليونانية بها. وراقت لها تلك الشواطئ الرائعة في ذلك الشهر الذي تزهر فيه أشجار اللوز وتتفتح على النسمات الدافئة التي تهب من الساحل الإفريقي. واستراحت إلى هذا الجو الرائق فقررت أن تقيم مدّة أطول في فندق المعابد الذي شيّد في بقعة جميلة ساحرة بأعماق الريف بعيداً عن المدينة البائسة.

ومنذ اثنتين وعشرين سنة ظل السيد تروكلي يشغل وظيفة نائب قنصل إنجلترا في (جرجنتي)، ومنذ اثنتين وعشرين سنة، حرص على أن يقوم عند الغروب بالتمشي بخطواته المطاطية الموزونة انطلاقاً من المدينة القائمة فوق الهضبة. حتى آثار المعابد اليونانية تبدو جليلة عظيمة، حيث كانت تقوم في يوم من الأيام بمرمرها الرائع الزاهي تلك المدينة التي تغنّى بها (بندار) ومجدها كمدينة خالدة جميلة بين المدن الفانية.

يقول القدماء إن سكان جرجنتي يأكلون كل يوم، كأنهم سيموتون في اليوم الذي يليه، ويشيّدون منازلهم كأنهم سيعيشون أبداً. أما الآن فإنهم يأكلون قليلاً، إذ إن المجاعة منتشرة بشكل واسع في المدينة والأرياف. ولم يبق أي أثر لبيوت المدينة القديمة بسبب ما تعرضت له من حروب وحرائق وسلب ونهب.

وقام مكانها غاب من اللوز وأشجار الزيتون العربية، وقد زحفت أشجار الزيتون بنظام حتى بلغت أعمدة الهياكل الفخمة وتبدو وكأنها تبتهل بأن يسود السلام تلك البقاع المهجورة. وفي أسفل المنحدر يجري نهر أكراجاس الذي مجده بندار وتغنّى بوفرة القطعان التي ترعى ضفّتيه. ولا تزال بعض قطعان المعز ترعى السرير الصخري للنهر، وتتسلّق المرتفعات الصخريّة لتجد مكاناً تشوي عنده تمضغ الأعشاب في ظلال

معبد (الكونكورديا) القديم العتيق الذي لا يزال يحتفظ بهيكله كاملاً حتّى الآن.

أما الراعي الناعس فقد استلقَى فوق الصخور مرسلاً بعض الألحان الشاكية من مزماره كأنه راعٍ عربي.

أما السيد تروكلي فقد كان يرى أن اقتحام المعز لحرم هذا الهيكل، إنما هو تدنيس له، وإهانة فظيعة لا تحتمل. وما أكثر ما قدم من شكاوى إلى مراقبة الآثار دون أن يظفر بأكثر من الابتسام الفلسفي المتسامح، أو هز الأكتاف، استخفافاً واستهزاء بهذا المطلب. وقد أفضى إليَّ السيد تروكلي بضيقه واستيائه واستنكاره، بهذه الابتسامات وهزات الكتف وذلك في بعض الجولات اليومية التي كنت أرافقه فيها. ويحدث في كثير من الأحيان أن يتردد السيد تروكلي على إحدى هذه المعابد صحبة قوافل السيّاح من مواطنيه الذين يأتون خصيصاً لزيارة هذه الهياكل. وكان يبدي للجميع ملاحظته المشوبة بالاستنكار، ومن أن الزمن والعادة، لم يخففا من تدنيس ذلك المعز الذي يربض ويمضغ في ظلال تلك الأعمدة التاريخية الخالدة. والحقيقة أنه لم يكن جميع الإنجليز الذين يزورون تلك المعابد يوافقونه أو يقرونه على هذا الرأي، بل كان يبدو للكثير منهم أن وجود ذلك المعز في ظلال الهياكل، أدعى لأن يخلع عليها، نوعاً من الشاعرية، بعد أن ظلت أحقاباً طويلة، غارقة في صمت الريف ووحشته وسكونه. وكثير منهم كان يبدو سعيداً معجباً بذلك المنظر رغم استهجان السيد تروكلي.

وفي أبريل الماضي، كانت الفتاة الرشيقة الخفيفة الآنسة (أتيل هولوي) أكثر الزائرين والزائرات إعجاباً بهذا المنظر وسروراً به، وقد

أعرضت عن نائب القنصل الذي كان يقوم بإرشادها إلى الآثار، وتقديم بعض الإيضاحات والمعلومات التاريخية التي لا يمكن أن توفرها لها أية شركة سياحية أو مرشد آخر. وتجافت عن اللياقة عندما أشاحت عنه فجأة لتعدو خلف جدي صغير لم يمض على ميلاده سوى أيام قليلة. كان يقفز هنا وهناك بين قطيع المعز.

كنت في ذلك اليوم صحبة السيد تروكلي. وإذا كنت قد أعجبت بتلك البهجة التي غمرت تلك الفتاة الصغيرة التي وقعت على الفور في هوى ذلك الجدي الصغير ورغبت في شرائه بأي ثمن فقد ساءني من جهة أخرى ذلك الألم الذي أصاب السيد تروكلي المسكين.

- ترغبين في شراء الجدي؟

- نعم، أود أن أشتريه فوراً.

وكانت هي ترتجف شوقاً إلى ذلك الحيوان الصغير ولعلها لم تكن تتصور أنها ستسيء إلى السيد تروكلي بأعظم من هذه الإساءة لأنه يحقد منذ زمن بعيد، حقداً، وحشياً عنيفاً على هذا النوع من الحيوان.

وعبثاً حاول أن يثنيها عن عزمها أو يدفعها إلى تقدير كل المصاعب التي ستنشأ عن هذا الشراء، وكان عليه أن يستسلم في النهاية لإرادتها، تقديراً لوالدها. ودنا من الراعي المتوحش للتفاوض حول شراء ذلك الجدي الأسود. وبعد أن دفعت الفتاة الثمن، قالت للسنيور تروكلي إنها ستعهد به لمدير فندق المعابد، وإنها ستبرق إليه فور عودتها، لإرسال ذلك الجدي اللطيف بعد أن تقوم بتسديد كافة المصاريف اللازمة. وعادت في العربة إلى الفندق تحمل بين أحضانها ذلك الجدي.

ورأت الشمس تميل إلى الغروب بين السحب الرائعة المنتشرة في

الأفق وقد انعكست أشعة الأصيل الذهبية على البحر فبدا كأنه مرآة ذهبية مرتعشة. وكانت رؤية تلك الفتاة الصغيرة الشقراء في عربتها السوداء غارقة في تلك الأضواء المسائية تخيل للناظر إليها، أنها حلم سحري جذاب.

لقد أدركت أنه من حقها، وهي موجودة في مكان بعيد عن وطنها وعن المشاعر والعادات المألوفة في حياتها، أن تحقق فوراً هذه الرغبة العارمة الحية وتستجيب لشعورها القوي الغلاب، لاقتناء هذا الجدي الأسود الصغير، ولم يكن من الضروري أن تكون لها ولو ذرة بسيطة من ذلك التفكير الواعي الصارم الذي يجهض بثقله كل تصرفات وخطوات وكلمات السيد تروكلي.

وماذا إذاً لدى الفتاة في مكان ذلك العقل؟

يصر السيد تروكلي بحماس يحز في النفس أنها غبية ومبررات هذا الغضب نجدها في الوقائع التي تلت شراء ذلك الجدي الأسود.

غادرت الآنسة الصغيرة (جرجنتي) في اليوم التالي في رحلة طويلة إلى اليونان ومصر والهند. وكان من المعجزات حقاً أن تعود إلى لندن سالمة في نهاية شهر نوفمبر، وبعد ثمانية أشهر من الرحيل والمغامرات الكثيرة التي وقعت لها، تذكرت ذلك الجدي الأسود الصغير الذي اشترته في أحد الأيام البعيدة عند أطلال جرجنتي في صقلية.

وما كادت تصل إلى ديارها حتّى بادرت بالكتابة تطلب إرسال ذلك الجدي الصغير الأسود. وكان من عادة فندق المعابد أن يقفل أبوابه في منتصف يونيو، ليفتح في أوائل نوفمبر. وقد سافر المدير الذي عهدت له الفتاة الجدي وعهد به -بدوره- إلى حارس الفندق، ولكن دون توصية

محددة، بل أظهر نوعاً من الاستياء والضجر للمتاعب التي جرها عليه هذا بالجدي، وظل الحارس ينتظر من يوم إلى آخر أن يأتي نائب القنصل لأخذه كما قال المدير، ليقوم بإرساله إلى لندن، ولما يئس من ذلك فكر في التخلص منه بإعادته إلى الراعي الذي باعه إلى الفتاة واعداً إياه بأن يقدمه هدية له في حالة عدم المطالبة مع تعويضه عن جهوده في حراسته ورعايته إذا جاء نائب القنصل للمطالبة به.

وعندما وصلت -بعد ثمانية أشهر- من لندن رسالة الآنسة هولوي كان مدير فندق المعابد وكذلك الحارس والراعي قد وجدوا أنفسهم في حالة ارتباك شديد، الأول لأنه سلم الجدي إلى الحارس. والحارس لأنه سلمه إلى الراعي، والراعي لأنه سلمه بدوره إلى راعٍ آخر بالوعود نفسها التي أعطاها له الحارس. ولم يعد أحد يعرف شيئاً عن هذا الراعي الأخير. واستمر البحث عنه أكثر من شهر. وأخيراً، وفي أحد الأيام الجميلة تقدم إلى السيد (تروكلي) بمقر القنصلية (بيرجنتي)، تيس مفزع نتن بقرنين كبيرين، وقد مال لون شعره إلى الحمرة، وعلقت به القاذورات والأوساخ. كان خافض الرأس كأنما يتساءل في شيء من التهديد عما يراد به ويراد منه. وقد آلت به ضرورة الأوضاع والظروف إلى هذه الحالة الغريبة من المكان الغريب الذي لم يألفه من قبل.

ومع ذلك فإن السيد تروكلي -كعادته- لم يستغرب ذلك المنظر ولم يتردد لحظة واحدة في حسبان الزمن الذي مر من أول أبريل، إلى آخر ديسمبر وانتهى إلى الإقرار، بأنه من المنطق أن يكون ذلك الجدي الصغير، قد صار هذا التيس الضخم القذر. ولم يتردد في الرد على الآنسة بأنه سيبعث إليها بالجدي في أول باخرة تجارية إنجليزية عائدة إلى

إنجلتـــرا. وعلّق في عنق ذلك التـــيس الفظيع بطاقـــة بعنوان الآنســـة (هولوي) وأمر بنقل التيس إلى الميناء حيث كان هو نفسه في توديعه، يدفع بمؤخرة ذلك التيس، وتسير خلفه مجموعة من الغوغاء المتسكعين معرضاً بذلك كرامته للاستهزاء والسخرية. وبعد أن شحنه عاد إلى جرجنتي واثقاً بأنه قد قام بتنفيذ التزاماته على الوجه الأكمل، وأنه لم يفعل ذلك مسايرة لطيش وحماقة الآنسة هولوي ولكنه فعل ذلك احتراماً لمكانة والدها.

وأمس، جاء السـيد تروكلي للبحث عني في منزلي وهو في حالة نفسية وجسدية سيئة دفعتني إلى إسناده، ثم أجلسته وأحضرت له كأساً من الماء البارد.

- بحق الله.. ماذا حصل يا مستر تروكلي؟

ولم يستطع أن يتكلم وأخرج من جيبه رسالة قدّمها إليّ. كانت من المستر هولوي والد الفتاة وكانت حافلة بالشتائم الموجهة إلى السيد تروكلي بسبب الموقف الذي عرض له ابنته بإرسال ذلك الحيوان القذر المخيف.

وكان ذلك جزاءه على كل المتاعب التي تعرض لها السيد تروكلي المسكين ولكن.. ماذا كانت تتوقع تلك الفتاة الغبية؟ هل كانت تتوقع أن يصلها إلى لندن بعد أحد عشر شهراً الجدي الصغير اللطيف نفسه الذي كان يقفز ويعدو في خفة ورشاقة بين أعمدة المعبد الإغريقي العريق؟ وهل هذا شيء ممكن؟

ولما رأيته على هذه الحال أخذت أسري عنه بكل ما في وسعي، وكنت أقره على أن تلك الفتاة لم تكن طائشة فحسب، ولكنها غير عاقلة على الإطلاق - بليدة.. بليدة.. بليدة.

- لعله من الأحسن أن نقول إنها غير واعية، وغير مدركة يا عزيزي تروكلي.

وأذنت لنفسي في أن أضيف قائلاً:

- تأمل يا عزيزي.. لقد سافرت في أبريل الماضي وفي عينيها صورة هذا الحيوان اللطيف، ذلك الجدي الصغير. فلم يكن في وسعها إذا توخينا الحق والإنصاف، أن ترتاح إلى المواجهة العقلية التي واجهتها بها، فجأة، في صورة ذلك التيس الكبير الذي أرسلته إليها.

- وإذاً؟ هكذا سألني وقد رماني بنظرة شزراء معادية - ما الذي ينبغي أن أفعله في رأيك؟

فبادرت إلى الرد عليه في شيء من الارتباك:

- ليس في نيتي أن أبدي لك شيئاً يتعلق بمظهر تلك الفتاة الطائشة التي تنتمي إلى بلادك النائية ولكن.. أتدري ما كنت فاعلاً لو كنت مكانك؟ كنت أجيب الآنسة هولوي بأن الجدي اللطيف الصغير قد مات شوقاً إلى قبلاتها ورعايتها الناعمة، أو كنت أشتري جدياً صغيراً آخر أسود اللون، نظيف الشكل، يشبه ذلك الجدي الذي اشترته في أبريل الماضي، وأرسلته إليها، وأنا على يقين بأنها ستظن أن جَدْيَها قد ظل كما كان طوال هذه المدّة.. ومع ذلك فإنني أقر بأن الآنسة (هولوي) ليست عاقلة وأن العقل كله يقف إلى جانبك كما كان دائماً يا عزيزي وصديقي مستر تروكلي...

أحلام الشيخ

بهيكله النحيف الذي ينوء بانحناءة خفيفة، وبثوبه الحريري الذي يرفرف فوق جسده، وبمظلته المفتوحة فوق كتفه، وقبعة السعف في يده، كان السنيور أورليو يتجه كل يوم إلى مصيفه الخاص.

لقد اكتشف مكاناً لا يمكن أن يخطر ببال. وهو ينعم في نفسه بهذا الاكتشاف حين يفكر فيه وهو يفرك يديه الصغيرتين العصبيتين.

من الناس من يصطاف في الجبال، ومنهم من يفضل الشواطئ أو الأرياف. أما هو فيصطاف في كنائس روما. وكيف لا يفعل؟ ألا ينعم ببرودة تفوق برودة الغابات؟ وبسلام مقدس أيضاً؟ الأشجار في الغابات، أما هناك فأعمدة المعبد. هناك في ظلال الفصول، أما هنا ففي ظلال الله.

وماذا عساه أن يفعل غير ذلك؟ لا بد من الصبر.

لقد كانت له في يوم من الأيام ضيعة جميلة جنوبي بيروجيا، غنية بأشجار الشربين الكثيفة التي تبسط ظلالها الزرقاء العذبة على مختلف الدروب، ثم تلك (الفيلا) التي تضم مجموعة من التحف الفنية الثمينة. كانت نعمة تحسد عليها الأسرة التي حظيت بها. أما الآن فلم تبقَ له سوى الكنائس، يصطاف فيها.

وماذا عساه أن يفعل؟ لا بد أن يأخذ أمره بشيء من الصبر.

إنه يقيم في روما منذ أعوام طويلة، لكنه لم يتمكن من زيارة جميع كنائسها الشهيرة. ولقد قرر أن يقوم بذلك هذا العام.

ما أكثر الآمال، والأحلام، والثروة، وما أكثر الأشياء الجميلة التي أضاعها السنيور أورليو وبددها وهو يسلك طريق الحياة. ولم يبق له إلا الإيمان بالله. الإيمان الذي بقي له، في ظلام حياته الدامس، كالمصباح الصغير، وهو يحاول أن يحميه بمشيته المنحنية، ويصونه في حرص شديد حتّى لا تهب عليه رياح باردة عاتية. لقد أصبح كالتائه في زحمة الحياة، ولم يعد يهتم به أحد.

- لا يهم.. إن الله يراني.

هكذا كان يردد في قلبه. وكان السنيور أورليو على يقين بأن الله يراه، بذلك المصباح الصغير الذي يحاول أن يحميه من الرياح العاتية. إنه على يقين من ذلك. حتى أن فكرة نهايته القريبة، لا تثير مخاوفه، بل تبعث في نفسه ارتياحاً كبيراً. وفي الظهيرة، وفي شمسها اللافحة، كانت الشوارع مهجورة خالية من الناس تقريباً. ومع ذلك فقد كان يصادف في طريقه بعض المتسكعين المتشردين، أو حمالي المحطة الذين كانوا ينظرون إليه، وهو يقطع الطريق، بتلك الصلعة اللامعة المكشوفة، وتلك اللحية الخفيفة، المرتجفة فوق ذقنه، وتلك الخصلات البيضاء التي تتطاير فوق كتفه.

- تأمل.. لحيتان، واحدة من الأمام وأخرى من الخلف.

ولم يكن السنيور أورليو يطيق وضع القبعة فوق رأسه أثناء الصيف. وكان يضحك هو أيضاً من هذه التعليقات الساخرة. ويسرع

الخطو عن غير إرادة، بتلك الخطوات التي تشبه قفزات العصفور، حتّى يجنب نفسه التعرض لمزيد من السخريات التي يوجهها إليه أولئك الكسالى.

- وماذا عساه أن يفعل.. عليه أن يصبر.

وحين دخل الكنيسة التي قرر أن يصطاف فيها ذلك اليوم. صمم قبل كل شيء على أن يستمتع، منذ اللحظة الأولى، بالجلوس. وجلس، ثم سحب نفساً عميقاً، ومسح عرقه، ثم طوى منديله أربع طيات، ووضعه فوق رأسه حتى يحميه من الرطوبة. فإذا عبرت به بعض المتعبدات النادرات أولته نظرة خاطفة، ثم ضحكت من هيئته، ومن ذلك الغطاء المضحك فوق رأسه.

وكان السنيور أورليو يشعر بنعمة كبرى، وهو يستنشق ذلك الهواء الرطب الممتزج بروائح البخور المخيمة على ذلك السكون، داخل المعبد المقدس، دون أن يساوره الشك في أن هناك أحداً يجد لذّة في السخرية منه، وهو في ذلك المكان المقدس. فإذا استراح قليلاً، نهض بعد ذلك إلى تأمل الكنيسة، وفي تؤدة، كأي شخص يحرص على تمضية اليوم. وكان يدرس في شوق وانتباه المعالم الهندسية العامة، ثم تفاصيلها الدقيقة. وكان يتوقف أمام كل ركن من أركان الهيكل، وإزاء كل عمل فني ملهم، وكل قبة أو ضريح. وهو يستطيع بنظرة فاحصة خبيرة أن يكتشف مميزات العصر الذي ينتمي إليه هذا العمل الفني، والمدرسة التي ينتسب إليها، وما إذا كان أصيلاً أم مرمماً ترميمات فاشلة. ثم يعود إلى الجلوس. فإذا تأكد أن الكنيسة خالية من الناس -وهو ما يحدث غالباً- فإنه ينتهز تلك الفرصة لتسجيل بعض الملاحظات الخاطفة في تقويم

صغير، بعض الشكوك التي تستوجب الإيضاح، أو بعض الانطباعات التي يحرص على تسجيلها.

فإذا أرضى هذا الفضول، وفرغ من الالتزام الفني المحدد لذلك اليوم، أخرج من جيبه كتاباً صغيراً، وأخذ يستمتع بروائعه الأدبية، مستغرقاً في أجوائه. والكتاب صغير الحجم حتى ليبدو كأنه كتاب أدعية وصلوات. وكان يرفع رأسه من حين إلى آخر، مستجمعاً في ذهنه ما يقرأ أو محاولاً تخيل الصورة التي يرسمها الشاعر. وكان يشعر بأن هذه القراءات الوثنية لا تسيء إلى هذا المعبد. فهو يرى أن الله لا يستاء من الأشياء الجميلة التي ابتدعها الشعراء لتمكين الناس من فرصة اللهو والمتعة البريئة.

فإذا تعب من القراءة استسلم إلى أحلامه وخيالاته، وأخذ يحدق بعينيه في الفراغ مسترجعاً ذكريات أيامه الضائعة.

وكان يفاجأ في بعض الأحيان، وهو على هذه الحال من التخيل والاستغراق، ببعض التماثيل النصفية التي تبدو له وكأنها تحدق فيه. فيهز رأسه مبتسماً:

- إنك لسعيد، أيها الصديق، أترى الأموات أحسن حالاً؟

وينهض من جديد لقراءة الكتابات المنقوشة فوق الأضرحة، ليعرف منها اسم الدفين. ثم يعود إلى الجلوس. ويأخذ في محاورته حواراً خيالياً، وهو يتأمله.

- نحن هنا يا عزيزي.. من المحزن أنه لم يعد يسمح بالدفن في الكنيسة. كان من الممكن أن أختار لي مكاناً داخل ذلك العمود الجميل الذي يواجهك. وهكذا أنت هناك، وأنا هنا. ما أروع الحوار الذي نجريه

والأحاديث التي نتبادلها. إن ملامح وجهك تدل على طيبة النفس والطوية. ولكن صبراً. يبدو أن موتى الكنيسة أحسن حالاً. هنا البخور الطيبة والصلوات والأدعية كل يوم. أما المقبرة فلا شيء سوى المطر.

ولكن الموت، حتى في المقبرة، تحرّر وانطلاق، خاصة حين نشغل بالعيش الهنيء أكثر من انشغالنا بالموت دون خوف. ولا يقصد السنيور أورليو الخوف من العالم الثاني، يكفيه أن يحمل معه، من هذه الدنيا، ضميراً مطمئناً واقتناعاً بأنه لم يرتكب الشر عن قصد وتعمد. إنه يعرف الشكوك الضبابية التي يثيرها العلم حول التفسير الواضح الذي يقدمه الإيمان لمشكلة الموت. فلقد قرأه في بعض الكتب، وتنفسه في الجو الذي يعيش فيه. وكان يشعر بالأسى والحزن لأن فكرة الله التي كانت شائعة في زمانه قد لحقها التغيير ولم يعد حتى بالنسبة إليه -وهو الرجل المؤمن- ذلك الذي خلق الأرض والسماء في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع.

وفي ذلك الصباح، دخل الكنيسة، وظلّ مشدوهاً أمام منظر الحارس العجوز، بلحيته الكثيفة وشعره الغزير. ويبدو أنه كان فخوراً ومعتزاً بتلك اللحية الصوفية، وبتلك الذوائب المتموجة التي تنسدل على كتفيه. إنّ رأسه جميل. أما الجسم فهو منحنٍ، متخاذل منهار. ويبدو وكأنه يجد مشقة في جره، بكل ذلك الثقل.

ويتأمل السنيور أورليو في الحياة والموت. معتبراً في مرارة ضآلة المغانم والمكاسب الهزيلة التي تعود على الروح في هذا العصر الذي أكثر الناس من التغني بنوره وإشعاعه. وعاد بتفكيره إلى الفكرة القديمة عن الله التي كان يحملها الآباء بإيمانهم القوي الراسخ. ولكنه لم يلبث أن

نام. فرأى في حلمه ذلك الإله، على هيئة شيخ طاعن في السن، منحني القامة لا يكاد يستقر رأسه فوق كتفيه، وقد جللته لحية كثيفة مهيبة، وجلس بالقرب منه وأخذ يبوح بما في نفسه، كما يفعل الشيوخ الذين يجلسون فوق المصاطب.

– يا لها من أزمنة سيئة. ألا ترى كيف صرت، وكيف آل بي الحال؟ إنني هنا أحرس المقاعد. لا يتردد علينا، سوى بعض السياح، من حين إلى آخر. ولكنهم لا يدخلون من أجلي. إنهم يأتون لزيارة الرسوم القديمة، والنصب التذكارية، وهم يصعدون الهياكل في سبيل أن يروا بوضوح بعض اللوحات المرسومة عند بعض الزوايا؟ زمن فاسد. هل سمعت يا بني؟ وهل قرأت الكتب الجديدة؟ أنا الإله الخالد، لم أصنع شيئاً، فكل شيء أوجد نفسه، طبيعياً وتدريجياً. لم أخلق النور أولاً، ثم السماء ثم الأرض، ثم الأشياء الباقية. مثلما علموك في طفولتك الغضة الباكرة. ماذا؟ لا دخل لي في شيء؟ فالسديم والمادة الكونية الأولى، إنما أوجدت نفسها بنفسها؟ هل تفهم؟ ألا يضحكك هذا القول؟ لقد وجد أحد العلماء الجرأة لأن يعلن بأنه درس السماء من جميع الوجوه، فلم يعثر على أثر يدل على وجودي؟ أيمكنك أن تتصور هذا الرجل، وقد تسلح بمجهره، وأرهق نفسه من أجل أن يلاحقني في السماء، حين لم يشعر بوجودي في وجدانه؟ لقد كان خليقاً بي يا بني أن أضحك من أعماقي من هذه الترهات، لولا أن بعض الناس يأخذونها مأخذ الجد ويولونها اهتماماً. أذكر أنني كنت أشدهم إليّ بذلك الخوف المقدّس، وأخاطبهم بأصوات الرعود والزلازل، أما الآن فقد اخترعوا مانعات الصواعق. هل تفهم؟ ولم يعودوا يخشونني أبداً. لقد كشفوا سر الرياح والمطر، وكل

شيء آخر، ولم يعودوا يتجهون إليّ ليلتمسوا نعمتي عليهم. ينبغي أن أقرر مغادرة المدينة وأكتفي بأن أكون إلهاً خالداً في الأرياف. فهناك ما تزال تعيش نفوس قليلة، ولكنها مؤمنة ساذجة، من الفلاحين الذين يؤمنون بأنه لا تتحرك ورقة فوق شجرة إلا بإرادتي. لا زلت في يقينهم وإيمانهم أنا الذي أصنع السحاب وأنشر السكينة والهدوء. لتنهض يا بني. أرى أن حالك مثل حالي في هذا المكان. فلنذهب إلى الريف، بين الناس الورعين، بين الناس العاملين الطيبين.

وأحس السنيور أورليو، عند سماع هذه الكلمات أثناء النوم، بضيق في القلب. الريف؟ أمله العظيم. إنه يراه كما لو كان مقيماً فيه، يرشف هواءه الصحي وينعم بجماله الساحر الخلاب.

وشعر بيد تمتد إليه وتهزه وتوقظه من غفوته، وفتح عينيه الذاهلتين وأبصر في شيء من الدهشة، تلك الصورة التي رآها في الحلم. هي تماماً. لحية متحركة تردد على سمعه:

- لتذهب.. لتذهب.

- ولكن.

وغمغم السنيور أورليو، بعينين مفتوحتين، مندهشاً من واقع حلمه. ولكن الحارس العجوز، هز مفاتيحه قائلاً:

- لتخرخ، إن الكنيسة تقفل أبوابها الآن.

الفهرست

لويجي بيرانديللو

نوبل ١٩٣٤



- ولد في جزيرة صقلية الإيطالية عام ١٨٦٧
- كتب الشعر في شبابه ودرس الآداب في جامعة باليرمو.
- كتب أول رواياته "الهاربة" ونشرها عام ١٨٨٩.
- درس اللغة الألمانية وترجم أعمالاً أدبية منها. وقام بتدريس اللغة الإيطالية في جامعة بون في ألمانيا.
- نشر أول مسرحياته "المعصرة" عام ١٩١٠، ومن أهم مسرحياته: هنري الرابع - الحياة عطاء - ديانا والمثال - لذة الأمانة.
- نشر عدداً من القصص القصيرة، ومن أهم رواياته: الهاربة، المرحوم ماتيا باسكال، الشيوخ والشباب.
- له ثلاثة أعمال في "المسرح داخل المسرح" هي: ست شخصيات تبحث عن مؤلف - لكل شيخ طريقة - الليلة نرتجل.
- انتقل في كتاباته بين عدة أساليب من الرومانسية إلى الواقعية ثم الطبيعية والتعبيرية والرمزية والفرويدية، وترك تأثيرات واضحة على كتاب المسرح في العالم.
- حصل على جائزة نوبل عام ١٩٣٤.
- توفي عام ١٩٣٦.

ISBN:2-84305-741-X
9 782843 057410